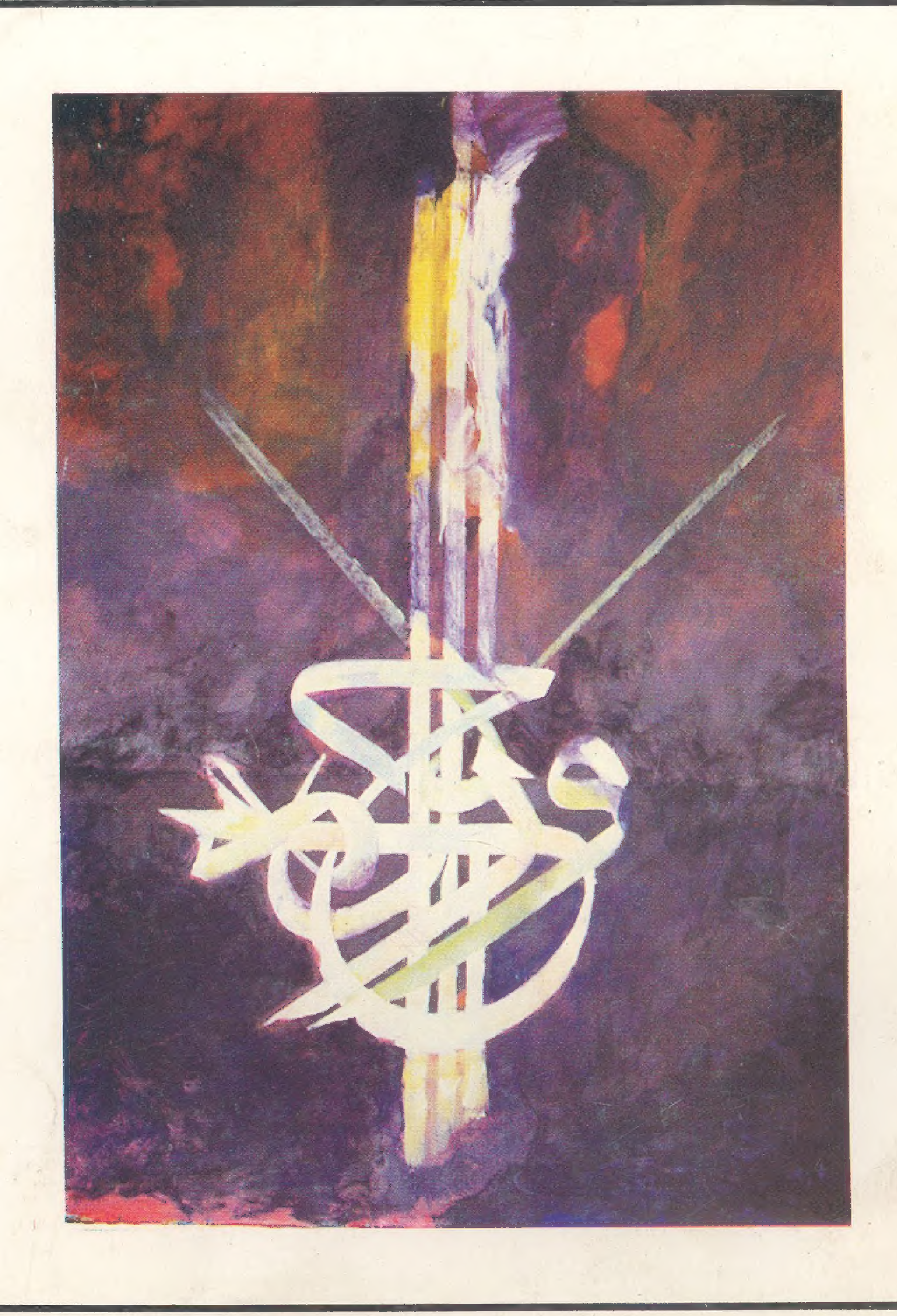
الموقف الأدبي



266



الثقافة الجديدة

رئيس التحرير : د . غانم حمدون

المواد المنشورة تعبر عن آراء اصحابها

266

العددان 10/ ت١ و11/ت٢ ١٩٩٥. السنة 41

فهرست العدد

أدب وفن

● لوحات العدد للفنان صادق الصائغ.

من المحرر

الجيش العراقي هو موضوع ملفنا الرئيسي لهذا العدد. وفيه يطرح خمسة مساهمين آراءهم الشخصية حول جوانب اساسية من ماضي هذه المؤسسة وحاضرها. ولا غرابة ان تختلف التقييمات والمواقف والآمال حسب التجربة المعاشة، وحسب استقراء ما جرى ويجري من تغيرات عاصفة داخليا واقليمياً وعالمياً. فبشأن المستقبل، على سبيل المثال، يذهب اثنان من المساهمين الى حد المطالبة بتحويل مهمة الجيش الدفاعية، بل حتى الى الغائه من حياة العراق. وهما بهذا الحلم يخالفان ما في ساحة المعارضة المنظمة من وثائق وطروحات، سواء في تقييم الدور السياسي الذي لعبه الجيش حتى الآن أم عند الحديث عن الدور الذي يراد للجيش أن يلعبه في عملية التخلص من الطغمة المتسلطة على البلاد. ولكن بأي مستقبل للعراق يلتزم هذا الطرف أو ذاك؟ وما هو موقع الجيش في بديل كل طرف للدكتاتورية الحالية؟

ما دامت احدى مساهمات الملف قد تناولت سياسة الحزب الشيوعي العراقي تجاه الجيش حتى عام ١٩٦٣، على سبيل المثال، فأن من المناسب ان يتضمن الملف ما جاء حول الجيش في البرنامج الجديد الذي اقره، قبل عامين، المؤتمر الوطني الخامس للحزب بعنوان «اقامة العراق الديمقراطي الفيدرالي الموحد والدفاع عن مصالح الكادحين» عقب اسقاط الدكتاتورية الحالية. أما الدور الذي يريده للجيش في اسقاط الدكتاتورية فنجده في فقرة خاصة من البيان الصادر عن المجلس الحزبي العام الذي انعقد خلال الصيف الماضي.

ونختتم الملف بمادة تناولت دور مختلف الدول في تزويد النظام بصنوف السلاح، فهي بالتالي تشاركه المسؤولية عن النكبات التي حلت بالبلاد، وبالجيش ذاته، جراء زجه في الحروب الداخلية والخارجية، هذا ونأمل ان تكون الآراء والتقييمات الواردة في الملف موضع المناقشة.

ويبقى ملف المرأة مفتوحاً في هذا العدد ايضاً. فثمة تقرير عن مؤتمر وندوة بكين، ومقالة لباحث انثروبولوجي عن موقع المرأة ودورها في مجتمعات «بدائية»، ثم هناك كلمة عن بواكير وعي المرأة لحقوقها حتى في بلدة عراقية صغيرة نائية، خلال الثلاثينات. ونطمح الى ابقاء هذا الملف الهام مفتوحا لمساهمات جديدة، من النساء، ومن الرجال ايضاً.

نظراً لما للعلاقة بين الدولة والمجتمع المدني من اهمية قصوى في البديل الديمقراطي المنشود حلّت في صدارة العدد مادة تناولت الخلفية التاريخية لطغيان دور الدولة على حساب تشكّل المجتمع المدني في بلادنا. وفي العدد بقية الملامح من تاريخ العراق القديم.

ضمن باب الأدب والفن طائفة من النصوص الشعرية والقصصية والمتابعات والمعالجات الأدبية، فضلاً عن مقابلة العدد بين اثنين من المبدعين.

تشرين الأول ١٩٩٥

بالاشتراك والتبرع يساهم القراء في دعم المجلة كي تتطور ويستمر وصولها الى القراء داخل الوطن بأقل من عشر كلفتها الفعلية.

الدولة والمجتمع المدني في العراق: خلفية تاريخية*

فالح عبد الجبار

تنتمي مقولة المجتمع المدني الى العهد الصناعي، أو الرأسمالي إن شئتم. وإن التمايز التاريخي والسوسيولوجي بين هاتين الحقبتين يعد أمراً مفروغا منه في عدد من المدارس المتباينة (سوسيولوجيا الحداثة، السوسيولوجيا الوضعية، سوسيولوجيا «ماركس» أو «فيبر»).

بهذا المعنى، فان اقتفاء اثر تشكل الدولة الحديثة وتتبع لحظات نشوء المجتمع المدني يشترط تتبع حركة الانتقال من الحقبة الزراعية الى الصناعية، وهو انتقال جرى بأشكال بالغة التنوع، ويحتل مساحة رحبة من التاريخ المعاصر.(١)

لقد بدأ هذا الانتقال، في اوروبا الغربية (مع وجود استثناءات) من أسفل، من

* «الليفياثان الجديد» هو العنوان الداخلي لهذا الفصل، الثاني، من كتاب انجز الباحث كتابته في نيسان الماضي ثم صدر مؤخراً عن «مركز ابن خلدون للدراسات الانمائية في القاهرة» تحت عنوان: «الدولة، المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في العراق» وذلك ضمن سلسلة بحوث «مشروع المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في الوطن العربي» الذي ينظمه المركز المذكور. وكانت معايير وبنية بحثه قد تقررت جماعياً، شأن بقية بحوث المشروع. وسبق ان نشرنا خاتمة البحث في عدد ث.ج ٢٦٢.

المجتمع ذاته، صعوداً الى الدولة التي تغيرت هي الأخرى، طوعاً أو كرهاً، بالتكيف الاصلاحي أو التحطيم الثوري العنيف. اما في العالم العربي فقد جرت حركة الانتقال هذه بصورة مقلوبة، من القمة، من الدولة، نزولاً الى المجتمع التقليدي، الذي راح يتغير هو الآخر. اذن المجتمع المدني، في الغرب، هو خالق الدولة الحديثة. أما في عالمنا العر بي، الدولة هي التي تخلق المجتمع المدني الحديث. ولعل هذه العلاقة المقلوبة تنطبق على كل القادمين الى الحداثة في وقت متأخر تماماً.

إن قولنا بأن الدولة مهيمنة قد يعني: إما ان الدولة أقوى من المجتمع المدني بفعل جبروتها بصفة خاصة، أو ان المجتمع المدني اضعف من الدولة بفعل قصور نموه. والسؤال في الحالين يبقى: كيف تأتى لهذه العلاقة البنيوية ان تكون مختلة كلياً لصالح الدولة؟ كيف تأتى للمجتمع المدني ان يكون على هذه القدر من الضعف؟ أو للدولة على هذه القدر من الجبروت؟

إن من السهل البحث عن إجابة في نقطة الانطلاق الأولى لهذا المبحث:

إن اختلال العلاقة يرجع الى أسبقية نشوء الدولة الحديثة على المجتمع المدني، أي الى علاقة الخالق/المخلوق التي تحكم الترابط بين الطرفين. لكن مثل هذه الاسبقية، ومثل هذه العلاقة (الخالق بالمخلوق) تكررت في بلدان أخرى (اليابان) دون ان تفضي الى هيمنة من هذا النوع.

إن جذور هذا الاختلال البنيوي ترجع برأينا الى علل أخرى نحن بسبيل تقصيها.

أولا، يبدو ان الآماد الزمنية اللازمة لتوطّد هياكل ومؤسسات الدولة الحديثة أقصر بما لا يقاس من الفترات الزمنية اللازمة لنشوء وتبلور (ناهيك عن نضج) المجتمع المدني، كعملية اجتماعية واقتصادية وثقافية مركبة. وهذا يعني ان المجتمع المدني ما يزال، هنا، قيد التشكّل، ضعيفاً، هلامياً.

ثانياً، وهذا أهم، إن الدولة الحديثة تخرج الى الوجود على خلفية مجتمع تقليدي متشظ (segmented)، فتجد نفسها مضطرة، في مجرى الانتقال من المركزية الزراعية (agrarian centralism) الى المركزية الحديثة، الى الاضطلاع بوظائف جديدة تتجاوز الحقل الفيبري: احتكار وسائل العنف المشروعة، التي تُنظم وتُمول وتُدار على قاعدة الحقوق الطبيعية: حق الحياة، الملكية، حماية السيادة، الخ. فهذه عملياً، هي جوهر الوظائف «الشاملة» للدولة وللثقافة السياسية التي تحيط بها. الدولة تتجاوز هذا الإطار وصولا الى حماية الثقافة الوطنية، والاقتصاد الوطني وتطويرهما مباشرة كجزء من وظائفها الشاملة الجديدة.

خلافاً للدولة الفيبرية الافتراضية كهيئة agency تحتكر وسائل العنف المشروع، تذهب الدولة الحديثة في العراق (وغير العراق) إلى ابعد من ذلك لتستحوذ على ميادين جديدة تنتمي جوهرياً الى مجال المجتمع المدني. وهو استحواذ ناجم عن ضرورات تدفع الى احتكار ميادين الانتاج المادي، والثقافي.
ان الدولة تنشئ جيشاً مركزياً، نظامياً، دائمياً، وتنشئ نظاماً تعليمياً مركزيا، وتبني جهازاً بيروقراطياً وتكنوقراطياً جديداً، وتدخل الميدان الاقتصادي، بادئ الأمر، كمحفز، وحام، وناظم regulator، إلا انها تتحول الى مالك ومنتج. (٢) هذا التحول يحدث انقلاباً في الدولة، وتحولاً هائلاً في المجتمع المدني الوليد. ان تحول الدولة الحديثة الى مالك ومنتج، وتفكك طبقات وجماعات المجتمع القديم، ونشوء تشكيلات وفئات اجتماعية جديدة، هي ما سنعرض له الآن في خطوط عامة.

الدولة في نموذج العراق

يمكن النظر الى تشكل الدولة الحديثة في العراق بوصفه تعبيراً عن الانتقال من المركزية الزراعية الى المركزية الحديثة. إن القاطرة التي تدفع حركة التطور هذه المفروضة عالمياً، هي الدولة ذاتها. ان المركزية الزراعية تقوم على علاقات خارجية بين المركز والجماعات communities التي تتالف منها الدولة، أو الرقعة الخاضعة للمركز، والتي غالباً ما تكون حدودها مطاطة.
إن الجماعات الزراعية هي كيانات اجتماعية اقتصادية-عسكرية، مكتفية ذاتياً، وتنظيماتها الداخلية مستقلة كالقبائل والعشائر التي تعيش على العرف القبلي، وتشكل وحدة قائمة على روابط الدم، أو الاحياء (المحلات) في المدن المنظمة في كيان صغير، مغلق، قائم على المهنة (الاصناف-الحرفيين) أو المذهب (شيعة، سنة)، أو الدين (حي النصارى، حي اليهود، الخ)، أو على الجماعة القرابية المهاجرة من الارياف (حي التكارتة في بغداد، حي العكيدات)، وفي الريف نجد القرى المتحدرة من عشيرة واحدة أو عشائر عديدة.
إن علاقة الدولة بهذه الجماعات تقوم على أخذ الضريبة بالقسر ما فوق الاقتصادي. وان خضوع المدن وتمرد القبائل والاحتراب الدائم سمة مميزة للعهد الزراعي. بل ان استمرار المركز يتغذى من حالة الاحتراب الدائم للجماعات وانشطارها وتشظيها المستديم.(٣)

المركزية الحديثة تقف في تضاد صارخ مع هذا التشظي، وتشكل قاطرة جبارة لمحقه بقوة العلاقات التجارية الجديدة، وجبروت التكنولوجيا والتنظيم العسكري والاداري الأرفع. إن العهد الجديد، ما بعد الزراعي، مستحيل في ظروف التشظي المذكورة، حيث كل جماعة تعيش وفق قانون خاص، وتشكل كياناً عسكرياً مميزاً (غارات القبائل، تمردات الأحياء). من هنا فان اطلالته، في ظروف العراق، تحتاج الى الدولة المركزية. ان المركزية الحديثة لا يمكن ان تعيش اولاً بدون تنظيمات مكينة: جيش دائم يحتكر وسائل العنف في المجتمع وينتزعها من الجماعات الصغيرة(٤)، ونظام تعليم موحد يتجاوز عزلة الطوائف والمذاهب والطرق، وينتج عناصر ذات ثقافة موحدة ضرورية للأجهزة الموحدة ذاتها المرتكزة الآن على لغة قومية موحدة في شكل طباعي، نظم اتصالات (طرق، سكك حديد، تلغراف، نقل بحري)، وصناعات حديثة (عسكرية بادئ الأمر، ثم صناعات أخرى).

هذا هو الإطار العام للانتقال من المركزية الزراعية المميزة للعهد العثماني، الى المركزية الحديثة، التي بدأت تتطور في العراق في بداية هذا القرن، واكتسبت زخماً أكبر بعد إنشاء الحكم الأهلي عام ١٩٢١.

لقد كانت الدولة الحديثة شرطاً لهذا الانتقال (أو تسارعه إن شئتم) مثلما هي نتيجة له. إنها تغيّر المجتمع التقليدي، فتتغير هي ايضاً، بوعي أو بغير وعي، طوعاً أو قسراً.

ويتعين الآن ان نرى الملامح العامة لهذه التغيرات من النواحي التالية:

١- طبيعة الفئات والمجموعات التي أمسكت بمقاليد الدولة، والمشروعية التي ارتكزت اليها. في إطار المكّونات البنيوية للدولة ذاتها كدولة.

٢- الدور التحديثي، وبالذات في المجال الاقتصادي، للدولة، وأشكال تطوره وآثاره.

٣- التغيرات التي يحدثها تدخل وتطور الدولة، عبر الزمان، في مكونات المجتمع التقليدي المنتقل والمتحول الى مجتمع حديث، في المدينة والريف، وارتداد هذه التحولات على الدولة ذاتها.

إن هذه العناصر أو الأوجه الثالثة تؤلف عملية واحدة في الجوهر، متداخلة ومتشابكة في حركتها داخل الزمن.

١- مكونات الدولة وبنيتها

انبثقت الدولة العراقية في ظل الاحتلال البريطاني، وتشكلت في مركّب فريد يجمع الحديث والتقليدي، جامعة الجهاز الاداري-العسكري البريطاني

الحديث، بممثلي الجماعات المحلية، من أشراف، وتجار، وممثلي طوائف.
وقد إنضاف الى هذين المكونين الحديث والتقليدي والخارجي/الداخلي في آن، عنصر ثالث هو الملك فيصل وجماعة الضباط الشريفيين، وهم الضباط العراقيون الذين خدموا في الجيش العثماني المحدّث وتحولوا إلى صف الشريف حسين اثر اندلاع ما عرف بالثورة العربية.(٥)
إن الجهاز البريطاني هو جهاز بيروقراطي وعسكري حديث، يقوم على هيكلية وضوابط بيروقراطية: تسلسل الرتب والمراتب، قواعد العمل الملزمة للجميع، التدرج، الضبط، إلخ. أما ممثلو الجماعات المحلية فهم شخصيات تقليدية تستمد أهميتها ووجاهتها من تنظيمات وقيم واعراف المجتمع الزراعي.
وتقف جماعة الضباط الشريفيين في الوسط، فهي نخبة حديثة صاعدة من المجتمع الزراعي التقليدي ذاته، بفعل نشوء تنظيم جديد: الجيش الدائم كجزء من البيروقراطية المعاصرة.
إن جهاز السيطرة والإدارة الحديثة البريطاني ما كان ليعمل وحده، أو ليقدر لوحده ان يدير هذا المجتمع المتجزئ. ذلك ان تكاليف إدارته وضبطه مكلفة تماماً للخزينة البريطانية عهدذاك(٦). لولا جهاز السيطرة البريطاني لما امكن لأي إدارة عراقية ان تبسط نفوذها ولولا وجود ممثلي الجماعات التقليدية، أي قادة الجماعات الحضرية (المنقسمة على أساس ديني/طائفي) وقادة الجماعات الريفية (القبائل)، لما أمكن لجهاز السيطرة البريطانية وحده ان يبسط هيمنته على كل أجزاء العراق بدون حروب دائمة، أو بدون تكاليف باهظة، وهو ما سبق ان حدث حقاً خلال ثورة ١٩٢٠، التي أثبتت فشل الخيار البريطاني المنفرد.(٧)
اعتمدت شرعية الدولة الاهلية، على ثنائية مماثلة لمكونات القوة فيها، انعكست في بنية الدولة، ونعني بذلك استيراد ملك من أشراف قريش (عائلة الشريف حسين في مكة) بالارتكاز الى المفاهيم الفقهية التقليدية: الخلافة في قريش،(٨) وتنصيب الخليفة الجديد على أساس ترتيبات انتخابية - برلمانية، على الطراز الاوروبي. هذا النمط من الشرعية يرتكز الى قاعدة متينة من التقاليد الدينية عهدذاك وسط ممثلي الفئات الحضرية، وقاعدة أضيق من المفاهيم القومية العروبية الجديدة التي برزت وسط الانتلجنسيا الناشئة حديثاً في اجهزة الدولة العليا: الضباط، الإداريين، الطلاب. إن هذا النمط من الشرعية يرتكز الى منظومتين متباينتين نسبياً من الثقافة السياسية، الأولى تتمثل في التقاليد الدينية (الخلافة في قريش) المميزة للفئات التقليدية الحضرية في عراق العشرينات من هذا القرن، والثانية ترتكز

الى التقاليد الدينية المحدثة (الخلافة للعرب)(٩) المميزة لتفكير الفئات الجديدة من الإنتلجنسيا: الضباط الشريفيين، كبار الموظفين (الأفندية) في الأجهزة العثمانية.
إن القاعدة الأولى واسعة اجتماعياً، أما القاعدة الثانية، فأضيق، لكن التوازن بينهما ينقلب. إن ثنائية الخلافة العربية، بمعناها الديني وبمعناها الإثني، ساعدت في توطيد مقبولية الملك العربي المستورد من الخارج وتجاوز انقسام المجتمع التقليدي في العراق انقساماً حاداً الى طوائف وجماعاتٍ ما كان لها ان تتفق على اختيار ممثل من احداها.
قاد ذلك الى اشادة نظام سياسي/ملكي/برلماني، يرتكز، اجتماعيا، على عدة عناصر: الأسرة الهاشمية، الضباط الشريفيين، الشريحة العليا من الطبقات المالكة (تجار، ملاك، أشراف) ويتم تثبيته بوسائل انتخابية، حديثة.
لقد نمت الدولة المركزية بإطراد، من حيث نظام الضبط (المؤسسة العسكرية)(١٠) والادارة (الجهاز المدني) والخدمات (التعليم، الصحة) بل تجاوزت ذلك الى ميدان الانتاج المادي (بناء الصناعات، الهياكل الارتكازية، الخ).
انٍ نمو الدولة الحديثة – من وجهة تركيبها الاجتماعي – الذي نعتمده هنا – غيّر تركيبة المجتمع، واطلق العنان لاوسع نمو في الفئات الوسطى الحديثة، التي غزت أجهزة الدولة من أسفل، رغم أنها كانت مستبعَدة من أعلى. ووجدت هذه الفئات منفذا للتعبير عن نشاطها في الاحزاب السرية من اسفل بفعل استبعادها من فوق. إن بناء الدولة الحديثة يعني اتساع قاعدة الطبقات الاجتماعية الجديدة وبالتالي ضمور الطبقات الاجتماعية القديمة، وإن عدم استجابة النظام السياسي لهذا التغيير اوقعه في لجة أزمات متتالية أودت به آخر الامر.
لقد أعربت الفئات الوسطى الحديثة عن ظهورها السياسي الشديد في فترة الأربعينات، إلا انها افلحت في اختراق قمة الدولة عام ١٩٥٨، على يد الفئات الوسطى العسكرية (الجندي/السياسي). ان القوام الاجتماعي للنخب الممسكة بالدولة في الفترة «الثورية» من ١٩٥٨ الى ١٩٦٨، تشكل افتراقا بيّناً عن قوام الدولة في الفترة ما قبل الثورية.
إن هذه النخب تنحدر جميعاً من الفئات الوسطى، وهي ترتكز في شرعيتها لا على الانحدار الشريفي/الديني، بل على آيديولوجية معاصرة قوامها النزعة القومية، العراقية او العروبية، المتحدثة باسم كيان جماعي، اسمه الوطن، أو الأمة، أو المثال الأعلى لهذا الكيان: الثورة.(١١) اذن، تتميز فترة الحكومات

العسكرية «الثورية» بنقل الشرعية الى ارادة الشعب، أو إرادة الثورة، آيديولوجياً وليس مؤسساتياً وهي آيديولوجيا شعبوية، تنطوي على عناصر عروبية، وإسلامية، اشتراكية، وتستند الى العنف السافر. ومن المفيد التذكير ان أغلب النخب العسكرية ذات منحدر عربي سني، الأمر الذي يعني ليس فقط صعوبة تمثيل المجتمع الجديد من ناحية تغايره سوسيولوجياً نشوء طبقات جديدة)، بل أيضاً الفشل في تمثيل التنوع الاثني والطائفي في هذا المجتمع.

إن المفارقة هي هذه: أن الحقبة الكولونيالية تميزت بوجود هياكل برلمانية رغم ان المشروعية الاساسية للعائلة المالكة دينية/إثنية، في حين ان الفترة «الثورية» تميزت بغياب مؤسسات التمثيل الحديث هذه رغم ان المشروعية نقلت الى إرادة الأمة أو إرادة الشعب دون مأسسة وسائل تحديد هذه الإرادة. ويمكن الحديث بالطبع عن ضعف الثقافة السياسية ذات النزوع الدستوري-البرلماني في العراق.(١٢)

إن الفترة «الثورية» أحدثت نقلة في مصدر السيادة من الدين/البرلمان الى الأمة/الزعيم. بيد ان الطبقة الوسطى الممثلة لهذه النقلة ليست متجانسة ولا متناغمة، ولا موحدة. إن النخب العسكرية (الجندي/السياسي) التي حكمت خلال هذه الفترة باسم شعب مجرد، أو ثورة مجردة، أو باسم اشتراكية عربية أو اشتراكية رشيدة، تميزت واقعياً بانعدام استقرارها وميلها الشديد للانقسام، تشهد على ذلك المحاولات الانقلابية العسكرية الكثيرة.

ومن الواضح وضوح النهار ان عوامل الالتحام الحديث لم تكن كافية وحدها للحفاظ على تماسك النخب العسكرية الوسطى الحاكمة. كما ان غياب أي شكل مؤسساتي مفتوح لتمثيل المصالح السياسية والاقتصادية، المتنوعة والمتضاربة في المجتمع، يجعل من المستحيل حل الانقسامات عبر الحوار، مما أدى الى سيادة الثقافة السياسية للجندي/السياسي:الانقلاب العنيف.

إن ضعف قوى التماسك الداخلي وسط هذه النخب العسكرية الحاكمة، أو شدة الانقسام الداخلي لهذه النخب العسكرية، يتنافى مع حاجات الدولة المركزية، ويخلق ميلاً مضاداً للبحث عن مصادر قوى تماسك أخرى أمتن وأرسخ. ويشتد هذا الميل مع تزايد التحديات الخارجية.

هذا الميل يجد التعبير عنه في صعود مركب جديد تقليدي/حديث، يجمع عناصر التلاحم القرابية (القائمة على صلات الدم – عشائر تكريت والدور وغيرها) بعناصر التلاحم الحديثة (العلاقات السلعية – النقدية، علاقات الضبط العسكري والتسلسل البيروقراطي، الخ).

إن هذا القران الفريد هو، في آن واحد، تجاوز للتشظي المميز للنخب العسكرية من الطبقة الوسطى، وحفاظ على استقرار وتماسك الدولة المركزية، في ظل استبعاد أية مشاركة على اساس التمثيل المتنوع لشتى التكوينات الاجتماعية والاثنية والدينية.

إن البلدان العربية عموماً تتميز من حيث الشكل إما بنظام الحزب الواحد، أو نظام الاسرة الواحدة، وإن العراق يجمع هاتين الميزتين. فهو اندماج للحزب الواحد بالجماعية القرابية الواحدة، التي تلعب فيها الأسرة دور المركز الناظم.

إن هذا المركّب لم يظهر دفعة واحدة، بل تشكل على درجات، وجرعات، من عام ١٩٦٨، وهو عام الصعود الثاني لحزب السلطة، الى عام ١٩٧٩ وهو عام إقصاء الرئيس السابق أحمد حسن البكر (الذي توفي سنة ١٩٨٢).

الواقع ان هذه العملية واجهت عقبات وتحديات من داخل المجتمع، والدولة والحزب الحاكم نفسه، إلا انها مضت على شكل مسارين منفصلين ولكنهما متداخلين: «تبعيث الدولة، أي هيمنة الحزب على مفاصل الدولة والاندماج بها، و«تكرتة» الحزب، أي دمج شبكة القرابات (مع حلفاء من مناطق أخرى) في الحزب وبالتالي في الدولة.

إن بالوسع القول، بمعنى من المعاني، إن الدولة في العراق هي، في الجوهر، مجموعة قرابية منظمة في جهاز عسكري - بيروقراطي حديث، مجموعة ترتبط بعلائق الدم وعلائق الضبط البيروقراطي، انها تلتحم بأواصر الدمج الميكانيكية (التقليدية) وعوامل الدمج العضوية (الحديثة)، مما يفسر سر تماسكها الشديد، رغم كل الهزات والحروب. (نعود الى هذه النقطة في الفصل الرابع).

٢- الدور الاقتصادي - التحديثي للدولة

لا يحتاج الدور الاقتصادي للدولة الحديثة كما لا تحتاج اهميته الى براهين، سواء أكنا بإزاء دولة اشتراكية تدير كامل عملية الانتاج بصفة مالك، ومنتج، وناظم واداري، أم بإزاء دولة ليبرالية تقتصر على دور الحامي والناظم. فباستثناء عن الوظائف التنظيمية/الادارية في المجال الاقتصادي، ثمة حقيقة كبرى وهي ان الدولة بأجهزتها المتسعة أبداً، المتضخمة أبداً، حتى في حدود وظيفتها كهيئة لحفظ السلام الاجتماعي أو الأمن القومي، انما هي اكبر مستهلك منفرد، وأكبر رب عمل منفرد في المجتمع.

ويختزل بعض الباحثين الاقتصاديين دور الدولة الاقتصادي الى هذه الصفة، أي مجرد «رب عمل» أو «اكبر رب عمل». ويستنبطون من هذه الواقعة نتيجة سياسية: الاستبداد.
الواقع ان المشكلة لا تقوم في ضخامة أو صغر دور الدولة كرب عمل، أي ليس في حجم موظفيها الذين تعيلهم، بل في مصادر الثروة التي تعيل بها الدولة ذاتها كدولة.(١٣)
ومما يميز الدور الاقتصادي للدولة في العراق النمو المطرد لوظيفتها كرب عمل منتج ودورها كمالك. إن دور المالك/المنتج يتجاوز بكثير دور رب العمل. فهو يعني ان الدولة تنتج الثروة وتعيل نفسها بمعزل عما ينتجه المجتمع المدني من ثروات، مما يمنح الدولة استقلالية هائلة، وقدرة هائلة على النمو، وامكانات كبيرة لاحتلال مساحات أكبر مما يفترض انه ينتمي الى مجال المجتمع المدني.
لقد جرى الحديث كثيراً عن الدولة الريعية، (المعتمدة خصيصاً على ربوع النفط)، ولا بد هنا من القول أن ثمة دولاً كثيرة تقوم بدور المالك/المنتج وتهيمن على وظائف المجتمع المدني، دون ان تكون ريعية، وهناك دول ريعية لا تقوم بدور المالك/المنتج، بل بدور المالك/المحفز.(١٤)
إن مفهوم الدولة الريعية، أو الاقتصاد الريعي (الناتج عنها) يعبّر عن علاقة خارجية، أي يصور العلاقة بين دولة ما وإيراداتها المتحققة خارج مجتمعها بالذات.
أما مفهوم الدولة/المنتج فيعبّر عن علاقة داخلية: دخول الدولة في السوق كمنتج (شار لقوة العمل، ومنتج للسلع والخدمات...الخ).
إن النموذج الاقرب للحالة الأولى في صورتها شبه الصافية (لا يوجد نموذج خالص بالمرة) هو دول الخليج، الكويت، السعودية...الخ. إما النموذج الاقرب للحالة الثانية فهو مصر الناصرية.
بالطبع فان بوسع دولة ريعية ان تتوجه الى السوق كمنتج ومالك، ان تتجاوز حدود وظيفتها كراع ومشرع ومحفز. ومثل هذا التحول يقترن في العادة مع نزوع شديد الى تصنيع ذي صبغة قومية أو قومية/اشتراكية في الغالب.
إن التمييز بين الاثنين يرجع الى تباين العلاقة العضوية التي تربط كل واحدة بالسوق، التي تعنينا بوصفها تجلياً لوجود المجتمع المدني.
إن الشكل التقريبي الخالص لنموذج الدولة/المالك – المنتج يرتكز على ما يعرف «بالاقتصاد الأوامري» command economy، أي هيمنة الدولة على السوق، وتقييد آلياته، وبالتالي ضعفه كشكل مستقل لوجود المجتمع المدني.

وإن اداء الدولـة لوظيفتها كمنتـج جماعي يؤدي الـى اعـادة انتـاج الاقتصـاد الأوامري، أي إعادة انتاج الضعف إياه.

أما الدولـة الريعية الخالصـة فلا ينتج عن ريوعها بـالضرورة أي ميل لتقييد السوق، بل غالباً ما يحدث انماء له.

بتعبير آخر ثمة إنماء للمشروع الحكومي، (أو أي اسم آخر: القطاع العام، قطاع الدولة، القطاع «الاشتراكي») في جانب، وثمة إنماء للمشروع الخاص في جانب آخر.

وبالطبع فان بالوسع ان تكون الدولة ريعية، وان تكون مالكاً/منتجاً في آن واحد، جامعة كلا الوجهين (العراق، ايران). لقد كان العراق في العهد الملكي اقرب الى النموذج الريعي، أما في العهد الحالي فصار اقرب الى النموذج المزدوج، الذي يحمل الصفتين معاً.

إن الحالتين (الريعية الخالصة، والانتاج الخالص) تؤديان، من منابع مختلفة، الى بناء علاقة خاصة بين الدولة والمجتمع المدني، هي علاقة تسيّد، رغم اختلاف بنية هذه العلاقة.(١٤)

ان سيطرة الدولة على الشطر الكبير من انتاج وتوزيع الفائض الاقتصادي، وبالتحديد تمتعها بريوع النفط من جانب، ودخولها الميدان الاقتصادي كمنتج، يجعل منها أكبر مالك، وأكبر مستثمر، وأكبر مستهلك. وهذا يضع القوة الاجتماعية للملكية العامة، ملكية الدولةً، في موقع المتسيّد على القوة الاجتماعية للملكية الكبيرة. ان وجود وفعل هذه الاخيرة بمعزل عن الدولة يهتز، ويتضاءل، بل ان الطبقات والفئات العديدة المؤلفة للمجتمع المدني تعجز عن اداء وظائفها الاقتصادية، الى حد كبير بدون الدولة. وباختصار فانها تتعلق بالدولة. فلم تعد الثروة تنتج سلطة الدولة، بل السلطة والدولة تنتج الثروة.

إن بروز الدولة كمالك/منتج في العراق ليس من اختراع فئة اجتماعية، أو انتاج آيديولوجيا محددة، بل سمة مميزة للانتقال المتأخر من المركزية الزراعية الى المركزية الحديثة، كما اسلفنا. ونشدد على الطابع المتأخر لهذا الانتقال الذي يوجب تحريك مجتمع زراعي نحو تخوم التحديث دون ان يتوفر هذا المجتمع على امكانات ذاتية للتحديث.

إن القطاع الحكومي (أو العام إن شئتم) بدأ منذ أيام الولاة العثمانيين، منذ النصف الثاني في القرن التاسع، (انشاء المطابع، المعامل، خطوط سكك الحديد)، وتوسع هذا الميدان على يد قوات الاحتلال البريطانية (١٩١٧-١٩٣٠)(١٥) واستمر في فترة الحكم الملكي وبخاصة منذ ١٩٥٠، وقد حظي

هذا الميل بدفعة كبيرة بعد مناصفة ارباح النفط مع الشركات الاجنبية ١٩٥٢)(١٦) وتلقى دفعة أكبر بتأميمات ١٩٦٤.(١٧)
لكن الانعطاف الحاسم حصل إثر تأميم عمليات النفط عام ١٩٧٢.
لقد تنوعت النظم الآيديولوجية في هذه الحقب تنوعاً كبيراً، إلا ان الميل نحو توطد الدولة كمالك ومنتج ظل مستمراً، رغم تفاوت شدة هذا الميل ووتيرته.
وبالطبع كلما ازدادت الدولة جبروتاً اقتصادياً، ازداد استقلالها عن المجتمع المدني، وتعاظمت قدرتها على بناء وسائل العنف المشروع (وغير المشروع) لإخضاع المجتمع المدني الضعيف اصلاً.
إن الدولة العراقية تتجاوز حدود الاحتكار الاقتصادي الى ميدان احتكار انتاج وتوزيع الثقافة (الاعلام، التعليم)، وميدان التنظيمات الاجتماعية (الجمعيات، النقابات، الأحزاب، المؤسسات المهنية، الخ).
وباختصار تتنامى ميول الواحدية السياسية: نظام الحزب الواحد، أو النخبة الواحدة، أياً كان طابعها، وهي ميول برزت في العراق اواسط الستينات ايام حكم الاخوين عارف (محاولات انشاء اتحاد اشتراكي عراقي على خطى النموذج الناصري) بموازاة ميول مماثلة في عموم المنطقة المجاورة (حزب «راستاخين» في أيران، والاتحاد الاشتراكي في مصر، والحزب الاشتراكي الدستوري في تونس، وحزب جبهة التحرير في الجزائر، الخ). إلا ان هذه التوجهات تراجعت مؤقتاً لا لشيء إلا لتكتسب زخماً أكبر بعد عام ١٩٦٨، عام المجيء الثاني للحزب.

٣- نشوء المجتمع المدني

أشرنا الى ان الدولة الحديثة تظهر الى الوجود بإزاء مجتمع زراعي تقليدي، وهي إذ تنمي نفسها فانما تقود الى خلق مجتمع مدني.
إن عملية بناء الدولة الحديثة هي عملية تغيير للمجتمع الزراعي المتشظي. ان بناء الجيش، والجهاز الاداري، ونظام التعليم يضع اللبنات الأولى للدولة الحديثة. وهو ينطوي على خلق فئات اجتماعية جديدة: النخب العسكرية، الموظفين (طبقة الافندية في البدء).(١٨) ولما كانت هذه الجماعات الادارية والعسكرية المطلوبة اوسع من الطبقة الضيقة من كبار الاعيان والاشراف والملاك والتجار، فإنها تُجتذب من الفئات الاجتماعية الأدنى. ويتولى نظام التعليم الحديث إعداد أبناء الطبقات الدنيا القديمة وتحويلها الى فئات وسطى حديثة تعتمد على الدولة، وتبقى هذه الفئات باتساع مطرد، مع النمو الدائب

والدائم للدولة.
إن ظهور الانتاج الحديث، والخدمات الحديثة، يستدعي الى الوجود ايضاً فئات مهنية جديدة: الطبيب، المهندس(١٩)، الخ، ويلغي من الوجود فئات قديمة: الصنايعية، الحرفيين.
ومن بين صفوف التجار التقليديين، وكبار الملاك والموظفين، تنمو طبقة رأسمال صناعي ورأسمال تجاري كبير، كما تنمو من شتى الفئات الدنيا طبقة عاملة بالأجر، سواء في الشركات الاجنبية أم الأهلية (النفط، السكك، الموانئ، التبوغ، النسيج، الخ). ان صورة المدينة، حيث تجري اغلب هذه التحولات تتغير الى درجة يتعذر معها التعرف على ملامحها القديمة. فالجدران التي تفصل الأحياء (المحلات) عن بعضها البعض كخطوط انفصال ديني، أو طائفي، أو قبلي أو حرفي تنهار وتذوب مزيلة، بالتدريج، اشكال الاندماج الميكانيكية القديمة، وخالقة عوامل التحام عضوية، جديدة. أي ان عوامل الاتحاد في هذه الاحياء (الحارات) القائمة على علاقات التبعية الشخصية وتضامن الاصناف الحرفية أو الجماعية الدينية (مجموعة سنية، أو شيعية أو مسيحية أو يهودية، أو طائفة صوفية) تزول او تخف بالتدريج لتحل محلها روابط اجتماعية جديدة تتبلور بالتدريج في شكل الاتحادات الصناعية، وغرف التجارة ونقابات العمال والمنظمات المهنية والاحزاب السياسية.
إن اشكال التنظيم الجديدة، المعبرة عن اشكال جديدة من الانتماء الاجتماعي كثيراً ما تتمازج مع انماط الولاءات القديمة وتتداخل ايضاً مع اشكالها التنظيمية.
ان هذه الحركة التطورية تؤدي الى نشوء أوسع طبقة اجتماعية: الطبقة الوسطى، على ضعف تجانسها.
أما في الارياف فان الحركة تكون اكثر تعقيداً:
أولاً – تحول القبائل الرعوية (البدو الرحل) الى قبائل زراعية مستقرة ونشوء توازن جديد بين المدينة والريف حيث تكف القبائل عن غزو الحواضر بسبب تفوق المدن بنشوء الجيش الدائم وامتلاكه قوة نارية وتفوقه (الطيران والمدفعية).
ثانياً – ترضخ القبائل لاحتكار الدولة لوسائل العنف، والانخراط فيه، أي قبول التجنيد الاجباري.(٢٠)
ثالثاً – إن الحروب والعلاقات بين القبائل على الماء والكلأ والارض تخلي مكانها لاستقرار دائم في أراضي محددة، وهذا يشدد الميل لاستقرار البدو

في اراض زراعية وتملك هذه الاراضي.

رابعاً - ان العلائق الداخلية في القبيلة تشهد تحطم الصلات البطرياركية ونشوء علاقات السيد/القن بمجرد تحويل مشايخ العشائر الى مالكين ذوي حقوق اقطاعية.(٢١) هذا هو حال الفترة ١٩٢٠-١٩٥٨ وبعد ثورة يوليو ١٩٥٨، جاءت سلسلة من الاصلاحات الزراعية في عام ١٩٥٩ و٦٩-١٩٧٠ ثم ١٩٧٤، لتقوض طبقة كبار المالكين القبليين، مما اطلق العنان لنمو الفلاح المتوسط والصغير، ونشوء طبقة عاملة ريفية.(٢٢) بيد ان الريف، في عملية التمركز الحديثة، يفقد تفوقه السابق، ويسير الى التضاؤل والانحسار. وأبرز معلم على ذلك هو التمدين.

لكن تقويض الملكية الكبيرة لا يقتصر على الريف، بل يمتد الى المدينة. ان تأميمات ١٩٦٤، على ضعفها، كانت بداية على هذا الطريق، في حين ان احتكار الدولة للتجارة الخارجية (١٩٧٠)، وتأميم النفط (١٩٧٢) اعطيا دفعة أكبر لتغير توازن الملكية بين المجتمع والدولة. ان مجرد تغيير التناسب في السيطرة على الثروة الاجتماعية يعني ان القوة الاجتماعية للملكية الكبيرة تتركز، جلّها، بيد الدولة، في حين ان القوة الاجتماعية للملكية الكبيرة المتاحة للمجتمع المدني، واهنة.(٢٣) ينضاف الى ذلك ان القوة الاجتماعية للملكية الخاصة، كما نجدها في ميادين الانتاج، موزعة على عدد هائل، ما ينى يتزايد من المشاريع الصغيرة. بتعبير آخر، انها مشتتة، أو مفتتة بإزاء الدولة. وهذه ظاهرة طبيعية مع نمو الطبقات الوسطى الحديثة، التي أتاحها التمدين، ونظام التعليم الحديث. ان الطبقة الوسطى - سواء بشقها المستوعب في الدولة أو بشقها المنتج خارجها - تشكل السند الضروري للدولة (الآن وفي المستقبل) مثلما ان الدولة هي الراعي الضروري لهذه الطبقة، غير المتجانسة، وبالغة التنوع.

خلاصة ذلك ان الدولة تهيمن على الحيز الاكبر من اهم وظائف المجتمع المدني: إنتاج وتبادل الثروة الاجتماعية، وميدان التنظيمات الاجتماعية وميدان انتاج الثقافة. ويمكننا الزعم، ان زحف الدولة في الميدان الاول الإنتاج)، مهد لزحفها الظافر في الميدان الثاني (التنظيمات الاجتماعية). والميدان الثالث (انتاج الثقافة). ها نحن بإزاء مجتمع مدني واهن من جهة، ويفتقر، من جهة أخرى، الى الأدوات الحديثة للتعبير عن النفس.

الهوامش

(١) انظر: E. Gellner, Nations and Nationalism, Blackwell, 1991, P.39.
- Theda Skocpol, States and Social Revolutions, Cambridge, 1979.
B. Moore Jr, Social Origins of Dictatorship and Democracy, Penguin, 1966.

(٢) انظر دراستي «الديمقراطية الممكنة، الديمقراطية المستحيلة». وكذلك «اشتراكية ماركس، القومية، الدين» في: فرضيات حول الاشتراكية في العالم العربي، ١٩٩٢.

(٣) للمزيد عن هذه الفترة انظر: س. لونكريك: أربع قرون من تاريخ العراق الحديث، من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠، الجزء الأول، بغداد ١٩٨٨. علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، لندن، ١٩٩٢-المجلد ١ و٢ و٣.
H. Batatu, The Old Social Classes and The Revolutionary Movements of Iraq, Princeton, 1989.

(٤) مما جاء في المذكرة الشهيرة للملك فيصل الأول، أن الحكومة عام ١٩٣٠ كانت تحوز ١٥ ألف بندقية مقابل مائة ألف بندقية لدى العشائر، أي ان توازن القوى هو واحد الى سبعة في غير صالح الحكومة. انظر نص المذكرة كاملاً في: عبد الكريم الازري، مشكلة الحكم في العراق، لندن، ١٩٩١، ص٢-٩ يقول الملك فيصل الأول: «ان الحكومة أضعف من الشعب بكثير... و... يوجد في المملكة ما يزيد على المائة ألف بندقية يقابلها خمسة عشر ألف بندقية حكومية، ولا يوجد في بلد من بلاد الله حالة حكومة وشعب كهذه.» ص٣

(٥) ثمة تفاصيل وافية عن ذلك في: علي الوردي، المرجع المذكور، الجزء الخامس. وكذلك «لونكريك»، المرجع المذكور، الجزء الاول. وبخاصة ما ورد عن رفض الضباط العراقيين الانضمام الى «الثورة العربية» متمسكين بانتمائهم العثماني، فنفوا الى الهند الى ان تأسست الدولة العراقية.

(٦) انظر: عبد الله النفيسي. دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث، بيروت ١٩٧٣. يؤكد النفيسي، حسب محاضر مجلس العموم ان قمع ثورة العشرين في العراق كلف خزينة التاج البريطاني ٥٦ مليون جنيه استرليني أنذاك. راجع جدول نفقات الخزينة البريطانية سنة ١٩٢٠-١٩٢٥ على الصفحتين ١٧١-١٧٢.

(٧) انظر: A. Wilson, Loyalties, London, 1936, V.I&II.
وكذلك: Peter Sluglett, Britain in Iraq, 1914-1932, London, 1976.
انظر كذلك مراسلات جيرترود بيل. كان هناك تياران داخل المؤسسة البريطانية بصدد مستقبل العراق: الإدارة البريطانية المباشرةأو إنشاء حكم أهلي.

(٨) زعم العثمانيون ان أخر الخلفاء العباسيين الأحياء تنازل لهم عن الملك في القاهرة.

(٩) لنتذكر ان أولى بذور النزعة القومية العربية ارتكزت الى مزيج ديني/اثني كما عند الكواكبي، بالدعودة الى ارجاع الخلافة الى العرب. حول علاقة النزعة القومية بالاسلام، انظر دراستي: القومية العربية والاسلام، وقضايا فكرية الكتاب الثالث والرابع عشر، القاهرة، اكتوبر ١٩٩٣، ص٣٢٩. للمزيد انظر:

The Origins of Arab Nationalism, New York, 1991.

Albert Hourani, Arabic Thought in the Liberal Age. Cambridge, 1991.

(١٠) نما الجيش العراقي، في عهد الملك فيصل الاول من ١٥٠٠ رجل عام ١٩٢٥ الى ٧٥٠٠ رجل عام ١٩٣٣. ثم حصلت قفزة كبرى في عهد الملك غازي الى ١٩٥٠٠ جندي و٨٠٠ ضابط عام ١٩٣٦، ثم الى ٢٦٣٤٥ جندياً و١٤٢٦ ضابط عام ١٩٣٩، الى جانب ١٧٢ ضابطاً طياراً. انظر: Batatu, Old Social, ibid,p.26, 27.

(١١) حول هذه الفترة انظر:

Majid Khadduri, Republican Iraq: A study in Iraqi Politics since The Revolution 1958, Oxford, 1969.

also: M Khadduduri, Socialist Iraq, Washington Middle East Institute, 1978.

- Marion Farouk - Sluglett & Peter Sluglett, Iraqi Bathism, Nationalism. Socialism and National Socialism, in CARDRI, Saddam's Iraq: Revolution or Reaction, London 1986, pp.89-107.

(١٢) تغلغلت الآيديولوجيا الاوروبية الحديثة الى العراق في مطلع هذا القرن. وأبدى قطاع الانتلجنسيا الحديثة المنحدر من الطبقات العليا او اقسام من الطبقات الوسطى الصاعدة ميلاً الى تبني الدستورية البرلمانية والليبرالية الاقتصادية. أما المراتب الدنيا من الفئات الوسطى ذات النزعة الراديكالية فقد توزعت على تبني آيديولوجيات قومية (فاشية وقومية/شعبوية، وماركسية، تعارض الصيغة البرلمانية للحكم السياسي من مواقع متباينة.

(١٣) كانت الضرائب قرابة ٩٠٪ من إيرادات الحكومة العراقية حتى الاربعينات. انظر: سعيد حماده، النظام الاقتصادي في العراق، المطبعة الاميركانية، بيروت ١٩٣٨، ص٤٦١ وما بعدها. اما في الستينات فقد بقيت الضرائب المباشرة وغير المباشرة تناهز في اهميتها الإيرادات النفطية. (انظر كتاب الجيب الاحصائي ١٩٦٠-١٩٧٠، بغداد ١٩٧٢ ص٢١٣ وما بعدها). اما في السبعينات والثمانينات فان الضرائب على اختلاف انواعها لم تعد تحتل اكثر من ٢٪ من الناتج المحلي. اما ضريبة الدخل فقد بلغت ١,٥٪ عامي ١٩٨٧ و١٩٨٨ من الايرادات الحكومية رغم تنامي الثروة الاجتماعية المنتجة بشكل هائل.

World Britanica, 1992-1993, Comparative National Accounts.

(١٤) حول الدولة الريعية rentier state انظر:

Hazem Beblawi and Gicacumo Luciani (ed.),

The Rentier State, Croom Helm, 1987 p.63-82, p.49-62.

(١٥) انظر: نصير سعيد الكاظمي - مساهمة في كتابة تاريخ الحركة العمالية في العراق حتى عام ١٩٥٨، نيقوسيا، ١٩٩١، ص٢٧ و٣١، ٣٣. ايضاً: صباح الدرة: القطاع العام سبل بنائه، دوره وطبيعته، آفاقه ومشاكله، بغداد ١٩٧٧، ٨-٩.كذلك,A. Alnasrawi Financing Economic Development in Iraq, London, 1967, p.46-8 and Passim p36-38. ايضاً: الكاظمي - مساهمة... الخ، مصدر سبق ذكره. تميز التطور في هذا العهد بتوسيع ملكية الدولة في ميدان الهياكل الارتكازية (الطرق، الجسور، السدود) المتصلة اصلاً بإنماء الزراعة، اما في ميدان الصناعة فقد قام على تدعيم المشروع الحر بالقروض والتسهيلات، وظلت هذه الصيغة سائدة في العهد الجمهوري الأول.

(١٧) صباح الدرة، المرجع نفسه، ص٢٣-٢٥.

(١٨) علي الوردي، لمحات، الخ، مصدر سبق ذكره، الجزء الخامس، القسم الأول ص٣٥.

(١٩) يتحدث «لونكريك» Longrigg في كتابه «العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٦٠» عن نمو نبتات المجتمع المدني الحديث على النحو التالي: «في اوائل القرن ١٩ ظل مجتمع المدينة في العراق معزولاً عن.. المؤثرات الغربية... وبقي طابع الحياة هو... طابع العصور القديمة... كان وقع المفاهيم... الغربية على هذا المجتمع... يجري بصفة تدريجية... (و) قد جاءت الى العراق لأول مرة عن طريق الجيش الجديد... كان الجيش يضم ضباطاً متدربين على أيدي الاوروبيين. وسرعان ما جاء في أعقابهم الاطباء والمهندسون وكل الافندية... وهكذا بدات دوائر البريد والبرق والتجارة الاجنبية والمشاريع تمارس اعمالها...» وانتج ذلك عام ١٩٠٠ «مجتمعاً مدنياً عراقياً يختلف اختلافا كبيراً عن الحياة في العصور السابقة»... وتم تطعيم هذا المجتمع بالهاتف وبالصحافة البدائية...» ص٤١-٤٢. للمزيد عن نمو المجتمع المدني في هذه الفترة انظر:

Marion Sluglett, From the Politics of Notables to the Politics of Parliamentary Government-1993. Unpublished paper.

وبخاصة ازدهار الصحف والجمعيات، والأحزاب والجماعات الممثلة للمصالح.

(٢٠) انظر «لونكريك»، ص٤٨-٥٤.

(٢١) نصير سعيد الكاظمي: الحزب الشيوعي والمسألة الزراعية في العراق، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، ١٩٨٦ ص١٠٦-١١٠،وبخاصة ما يتعلق بتقرير «داوسن» ص١٠٧-١٠٨. انظر ايضاً:Rony Gabbay. Commonism and Agrarian 1978 p.20-26. Reform in Iraq, Croom Helm.

(٢٢) الكاظمي: الحزب الشيوعي، ص٢٣٧ فما بعد. وايضاً Gabbay p.108.

(٢٣) H. Batatu, Old Social, p.1116-1120 & 1125-1127.

الجيش العراقي: الماضي، الحاضر، المستقبل - ملف

الحزب الشيوعي
السلطة والقوات المسلحة
١٩٣٥-١٩٦٣

ثابت حبيب العاني

استأثرت موضوعة ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق باهتمام المؤرخين والمعنيين وكتاب المذكرات والسير واحتل دور الضباط الاحرار في تفجير الثورة واوضاع الجيش العراقي مكاناً كبيراً في ذلك الاهتمام. وباستثناء كتابات محدودة مثل كتاب حنا بطاطو المعروف عن العراق وكتاب العقيد الركن صبيح علي غالب والاطروحة القيمة لليث عبد الحسين فان معظم المؤلفات التي تصدت لهذا الموضوع انزلقت - للاسف - الى محذور التحامل في افضل الاحوال.

تأسس الجيش العراقي في السادس من كانون الثاني من عام ١٩٢١ في ظل الانتداب البريطاني وكان في اساس الاهداف من هذه الخطوة هو احتواء حركة التمرد الشعبي التي اخذت منذ ثورة العشرين حالة متزايدة ومتفاعلة ومفتوحة على احتمالات كبيرة. وقد تكون الجيش من فوج واحد سمي (فوج موسى الكاظم) واتخذ (خان الكعبولي) في الكاظمية مقراً له فيما دخل في قوامه بعض الضباط العراقيين الذين تخرجوا من المدارس العسكرية التركية وممن خدموا في الجيش العثماني - اما قاعدة الجيش فقد تكشلت من انحدارات كادحة من الريف والمدينة.

ومنذ السنوات الأولى لتأسيسه زج الجيش العراقي، الذي توسع الى ثلاث

فرق، في معارك اندلعت ضد الشعب العراقي المطالب بالاستقلال وفي تامين خضوع المناطق والطوائف لمشيئة الحكم المحلي الذي نصبه المستعمرون الانكليز. فقد قمعت حركة الشعب الكردي بقيادة الشيخ محمود الحفيد وحركة الآثوريين في دهوك – زاخو – سميل، وقمعت انتفاضة سوق الشيوخ. وكل ذلك تم عشية ميلاد الحزب الشيوعي العراقي في آذار ١٩٣٤. وادان الحزب الجديد في بيان اصدره عام ١٩٣٥ الحملة العسكرية ودعا ابناء القوات المسلحة لاسناد مطاليب الجماهير المنتفضة. ومنذ ايامه الأولى اولى الحزب اهتماماً بالجيش، وبالاخص لقاعدته من ضباط الصف والجنود. وفعلاً تكونت اولى الخلايا الحزبية في ثكنة الكرنتينة التي تقع بباب المعظم وبالتحديد في وحدات المخابرة. وكان المسؤولان عن هذا التنظيم زكي خيري ويوسف متي. وقد عملا على توسيع شبكة التنظيم العسكري الى وحدات أخرى. مثل وحدات الفرقة الثانية بكركوك حيث اتخذت بساتين كاورباغي مكاناً للقاءات والاجتماعات السرية الأمر الذي أدى الى افتضاح الشبكة واعتقال خيري ومتي والحكم عليهما بالسجن سنتين مع سنتين تحت المراقبة وذلك عام ١٩٣٧. وحكم بالاعدام على ثلاثة من اعضاء التنظيم بالاعدام وعلى الآخرين بالسجن. وكان عدد المعتقلين آكثر من ٦٥ رفيقاً.

وبسبب الاهمية التي كان يعلقها الحزب على الجيش في تحديد مسار الاحداث ومستقبل العراق اخذ مؤسس الحزب الرفيق يوسف سلمان يوسف (فهد) على عاتقه اعادة بناء وتوسيع التشكيلات الحزبية. وفي عام ١٩٣٩ ارسيت قواعد العمل بين الجنود والضباط لكسب الجيش الى جانب قضية الشعب المتمثلة آنذاك بالسيادة الناجزة والحريات الديمقراطية وتحسين معيشة الشعب.

ولم يكن الجيش ميداناً محتكراً للشيوعيين وحدهم، فقد برزت نشاطات أخرى للقوميين العرب والاكراد ولمجموعات تقدمية وديمقراطية. وكان من ابرز الجماعات التي ارتبط اسمها بتأريخ الانتفاضات في الجيش العراقي هي قادة حركة مايس ١٩٤١ التي تسمى «حركة رشيد عالي الكيلاني»، حيث سقط فيها الشهداء صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد وكامل شبيب ومحمود سلمان ويونس السبعاوي. وينبغي ان لا نغفل مبادرة بكر صدقي في التاسع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٣٦ بالانقلاب على الحكومة التي يرأسها ياسين الهاشمي – رشيد عالي الكيلاني. وقد فرض على الملك غازي تشكيل حكومة جديدة برئاسة حكمت سليمان.

ومن الشخصيات العسكرية التي لعبت دوراً في تكوين تشكيلات سياسية

مناهضة للحكم الملكي يمكن ان نشير الى عزيز عبد الهادي (مقدام) الذي كتب فهد كراس «حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية» رداً على سؤاله لدى تواجده في السجن. وكذلك سليم الفخري وغضبان السعد وطه الشيخ احمد وجلال الاوقاتي وحسين خضر الدوري ومحيي عبد الحميد ومير حاج. وكان الشهداء مصطفى خوشناو وعزت عزيز وخير الله عبد الكريم ومحمد محمود القدسي قد التحقوا بالحركة الكردية عام ١٩٤٥ بقيادة البرزاني واعدموا جميعاً بعد انهيار جمهورية مهاباد وقد اثر ذلك على منتسبي القوات المسلحة. ومن قاعدة الجيش برز الكثير من نشطاء الجنود وضباط الصف في النشاط السياسي للحزب الشيوعي العراقي كجنود مجهولين ومنهم عمر الياس والعريف عجيل. ولم يوقف هذا النشاط التهديد بالاعدام وفق المادة ١٨٩أ) التي اصدرها الحكم الملكي لمعاقبة مروجي «المبادئ الهدامة» في القوات المسلحة.

وفي عام ١٩٤٥ صاغ المؤتمر الاول للحزب الشيوعي سياسة الحزب العسكرية وثبت في النظام الداخلي فقرة حول العمل في القوات المسلحة. لكن هذه الفقرة لم تنشر في وثائق المؤتمر المعلنة، لأن التنظيم العسكري للحزب اتخذ طابع السرية الشديد تحاشياً لردود الفعل الحكومية. وقد دفع الحزبيين من خريجي الاعداديات الى الانخراط في المدارس العسكرية فضلاً من صياغة الشعارات المناسبة لتعبئة الجنود والضباط حول اهداف النضال الوطني. لكن السلطات لم تكف عن زج الجيش في معاركها اللاحقة مع الشعب مثل الهجوم على الحركة الكردية عام ١٩٤٥ وقمع انتفاضة ١٩٥٢ الشعبية الامر الذي حدا بالشيوعيين الى تطوير اساليب عملهم داخل هذه المؤسسة فقاموا عام ١٩٥٥ بتشكيل «اللجنة الوطنية لاتحاد الضباط والجنود» واصدار صحيفة خاصة بهم باسم «حرية الوطن» وفتح باب الانضمام لها امام العسكريين الوطنيين لأنها كانت ذات طابع ديمقراطي تقدمي. وقبل ذلك تكونت منظمة ذات طابع يساري بقيادة العقيد ابراهيم حسين الجبوري. ولدى معرفتهم بتنظيمات «اللجنة الوطنية للجنود والضباط» حلوا المنظمة والتحقوا بها.

وفي غضون ذلك برزت شخصيات عسكرية ديمقراطية وقومية على علاقات مباشرة وغير مباشرة بالحزب مثل الزعيم الطيار الركن جلال جعفر الاوقاتي والزعيم الركن محيي عبد الحميد والزعيم الركن ناظم الطبقجلي والعقيد الركن عبد الوهاب الشواف والزعيم الركن داود الجنابي والزعيم الركن هاشم عبد الجبار والعقيد حسن عبود والعقيد الركن عبد الرضا عبيد

والمقدم الركن موسى ابراهيم والعقيد طه السلطان والعقيد سلمان الحصان والعقيد طه البامرني والعقيد فاضل المهداوي والعقيد الركن ماجد محمد امين والعقيد الركن كافي النبوي والزعيم الركن عبد الله سيد احمد والعقيد جلال بالطه والرئيس الاول فاتح الجباري والرئيس رسول مجيد والمقدم لطيف حسن والمقدم محمد عبد الغفور والمقدم ابراهيم الغزالي والرئيس الاول كاظم مرهون والمقدم عدنان الخيال والعقيد وصفي طاهر والمقدم غازي دخيل والعقيد عبد الباقي كاظم والعقيد الركن مجيد علي والمقدم محمد علي كاظم والمقدم جواد كاظم التعيسي والمقدم كاظم عبد الكريم والمقدم ابراهيم كاظم الموسوي والمقدم عمر الفاروق وغيرهم الكثيرون.
كان الاثر المباشر لانتشار الافكار الوطنية وتنظيمات الحزب في الجيش العراقي انه لم يعد ينفذ اوامر الحكومة بضرب التحركات الشعبية أو يتلكأ بالاستجابة لتلك الاوامر كما حدث في انتفاضة عام ١٩٥٢ حيث برزت ظاهرة التأييد والتعاطف للوحدات التي أنزلت الى الشوارع في بغداد لقمع الانتفاضة بعد اختفاء الشرطة من مناطق بغداد واحجمت الحكومة في عام ١٩٥٦ عن انزال الجيش لقمع الانتفاضة الواسعة لتأييد الثورة المصرية لموقفها من العدوان الثلاثي بل استخدمت الشرطة والشرطة الخيالة لقمع الانتفاضة. وينبغي ان لا نقلل من شأن تأثيرات الاحداث في المنطقة على اوضاع الجيش العراقي وبخاصة حرب فلسطين ومساهمته بها وهزيمة الجيوش العربية امام الحركة الصهيونية حيث انبرى ضباط مثل رفعت الحاج سري ونعمان ماهر الكنعاني وشكيب الفضلي الى تشكيل تنظيم للاطاحة بالحكم. وكذلك تأثيرات ثورة ٢٣ يوليو - تموز في مصر حيث الهبت المشاعر الوطنية والقومية ودفعت الكثير من الضباط الى التفكير بالعمل للثورة ومنهم محي عبد الحميد وعبد الكريم قاسم وناجي طالب ومحمد محمود الحبيب ورجب عبد المجيد وعبد السلام عارف وعبد الرحمان عارف وصبيح علي غالب ووصفي طاهر وعبد الكريم فرحان وعبد الوهاب الامين ورفعت الحاج سري الذين توصلوا الى تشكيل «حركة الضباط الاحرار» وانضم عبد الوهاب الشواف اليهم في الاخير.. كما بادر آخرون الى تشكيل تنظيم آخر سمي بـ«جماعة القسم» وهم من الضباط الشباب الذين بدأوا نشاطهم بدفع ربع دينار لكل منهم والقسم بالحفاظ على السر ويقود التنظيم طه الدوري ومن بين افراده خزعل السعدي وخليل ابراهيم العلي واحمد محسن العلي الذين انضموا الى صفوف الحزب الشيوعي العراقي فيما بعد باستثناء الدوري.

وفي اواسط ١٩٥٥ انتخب سلام عادل سكرتيراً للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي وكان تحولاً في نهج الحزب وسياسيته حيث ادى ذلك الى وحدة الحركة الشيوعية وتخلت وحدة النضال والشغيلة عن مواقفها ووضعت تنظيماتها تحت تصرف الحزب الشيوعي العراقي؟ وتكلل ذلك بعقد الكونفرنس الثاني للحزب وانتخاب قيادة جديدة وانتخب سلام عادل كسكرتير وصدرت وثيقة هامة عن الكونفرنس حددت الطريق السلمي لتطور الثورة العراقية طريق النضال السياسي والاقتصادي والاجتماعي وانتزاع الحريات الديمقراطية والخلاص من التبعية الاستعمارية بالاستقلال الناجز والقضاء على الاقطاع واعطاء بعد جديد لحل القضية القومية سواء العربية ويعني بها الوحدة العربية أو القضية الكردية. كان ذلك في الشهر التاسع من عام ١٩٥٦ ولكن العنف الذي استخدمته الحكومة لمواجهة انتفاضة الشعب في تشرين الأول ١٩٥٦ حيث اغرقت مدن العراق بالدماء خاصة بغداد والنجف الاشرف والحي البطلة وسائر مدن العراق - رغم ان الانتفاضة كانت سلمية - ادى استخدام العنف الى تقييم جديد بالنسبة لقيادة الحزب وتوصلت الى ما يلي «أن مسألة العنف بالنسبة لنا مسألة يقررها سلوك الخصم عندما لا يريد ان ينزل عند ارادة الشعب ولذلك فأن الاسلوب العنفي هو الاسلوب الراجح في كفاح شعبنا وحركتنا الوطنية من اجل التغلب الحاسم على عدوانية وعنف الاستعمار وحكمه العميل في العراق» وبذلك توجه الحزب للتركيز على القوات المسلحة واصبح الجيش ميداناً للنشاط السياسي الانقلابي السري واخترق من قبل الاحزاب وبخاصة الحزب الشيوعي العراقي الذي اخذ نفوذه في الوحدات العسكرية يتأثر بأوضاعه الداخلية خاصة بعد انتخاب سلام عادل ووحدة الحركة الشيوعية. وفي هذا الاثناء استخدم الحزب اسلوب المفارز للقيام بتفجيرات في المراكز الحساسة مثل نادي (YMCA) والسفارة البريطانية وكانت هذه المفارز بقيادة عدنان السامرائي وبيتر يوسف ولكن هذه التفجيرات لم تلقى التأييد من قبل الجماهير وتخلى الحزب عنها وركز على القوات المسلحة.

وعشية الاعداد لثورة تموز ١٩٥٨ كان نفوذ الحزب في المؤسسة العسكرية قد بلغ اعلى مستوى له فقد كانت قيادة الحزب على علم بجميع المحاولات التي سبقت الرابع عشر من تموز للاطاحة بالحكم وقد بلغت ست محاولات وأهمها محاولة العقيد الركن عبد الوهاب الشواف في ١١-١٢/٥/١٩٥٨ حيث اتفق مع ضابط ركن اللواء الخامس عشر تسليم مقاليد اللواء الى الضباط الوطنيين الذين تجمعوا في بيتي عبد اللطيف الدراجي وخليل

ابراهيم العلي وكان في هذا التجمع اكثرية مطلقة للحزب الشيوعي ومؤيديه وقد أكد ذلك جاسم العزاوي في كتابه «ثورة تموز» (ص١٠٣) نقلاً عن العقيد محمد مجيد (قومي- اسلامي شارك في مجازر شباط ١٩٦٣) ما يلي «تجمع الضباط في مركزين احدهما دار عبد اللطيف الدراجي في الكلية العسكرية والآخر دار خليل ابراهيم العلي في ابو غريب، لقد حضر اكثر من مائة ضابط جاؤا من مختلف المعسكرات حتى من خارج بغداد وكان اكثرهم يساريين وشيوعيين وبينهم من لم نشاهدهم ولم نسمع بهم طوال المدة التي مضت على التنظيم. لا بد ان الحزب الشيوعي كان على علم بالحركة وقد اتخذ الاحتياطات كافة للسيطرة عليها بعد التنفيذ والزج بكل ما يستطيع من المرتبطين والمؤيدين له».

وفي هذه الفترة شدد الحزب على اعضائه بضرورة جرد اقاربهم واصدقائهم ومعارفهم العسكريين وارشاد الحزب للوطنيين منهم ضمن خطة واسعة ارتبطت بانتعاش الحياة السياسية في مفاصل الحزب والحركة الوطنية عموماً. واتذكر ان سكرتير الحزب الشهيد سلام عادل وعضو المكتب السياسي عامر عبد الله طلبا اليّ اعداد لقاء مع جلال الاوقاتي ومحيي عبد الحميد غير ان اللقاء فشل بعد ان رصدت اجهزة السلطة تحرك الرفاق لدى توجههم الى بيتنا وتفرق الرفاق والقي القبض عليّ واخذت طريقي الى سجن نقرة السلمان.

وفي مجرى الاعداد للثورة كادت تقع الكارثة التي ربما حالت دون قيام الثورة. ففي ليلة ١٢-١٣/٧/١٩٥٨ ألقت السلطة القبض على حكمان فارس احد المسؤولين عن تنظيمات الحزب في المجال العسكري الذي كان في عملية الاعداد للثورة وكان حكمان فارس يحمل مواد لطبع جريدة «حرية الوطن» للجنة الوطنية لاتحاد الضباط والجنود وقد القي القبض في مجرى التحقيق على الرئيس فاضل البياتي المسؤول عن قسم هام من تنظيم الحزب العسكري وعلى حمزة سلمان المرشح للجنة المركزية وكان لصمودهما واحتفاظهما بأسرار الثورة اثر في منع افتضاح الحركة التي ستطيح بعد يومين بالحكم الملكي تماماً، غيران هذه الحادثة اوقفت حركة تبليغات الشيوعيين العسكريين وقللت بالنهاية من مساهمة العديد منهم بالثورة في ساعاتها الاولى.

غير ان وقائع الثورة سجلت مساهمات مميزة للشيوعيين من الضباط وضباط الصف والجنود في القطعات التي تحركت في الرابع عشر من تموز للاطاحة بالملكية. فقد كلف سعيد مطر بالتوجه الى معسكر الرشيد لاعتقال رئيس

اركان الجيش رفيق عارف والسيطرة على المعسكر من ضمن وحدة من الضباط وضباط الصف والجنود، وتوجه علي شريف ضمن مفرزة عبد اللطيف الدراجي للسيطرة على وزارة الدفاع ومديرية الشرطة العامة ومتصرفية بغداد، ومصطفى عبد الله مع مفرزة مدرسة المشاة في الوشاش التي توجهت الى قصر الرحاب لدعم القوى التي تحاصر القصر ولعب دورا في السيطرة على القصر وجرح خلال ذلك، وقاد عبد الرزاق غصيبة مفرزة المدرعات من كتيبة صلاح الدين لاسناد القوى التي تحاصر القصر كما لعب الشيوعيون العسكريون دوراً هاماً في احباط محاولات التعرض للثورة واحباطها وخاصة تحرك قائد الفرقة الاولى عمر علي في الديوانية. ويشار هنا الى مبادرات الرئيس الاول كاظم عبد الكريم والرئيس جواد كاظم التعيسي والملازم الاول احسان البياتي. وكذلك الموقف المؤيد الذي ابداه العقيد طه اليامرني آمر الحرس الملكي في قصر الرحاب. وما دمنا في الحديث عن دور الشيوعيين من العسكريين في انجاح الثورة فان الامانة تقتضي الاشارة الى مأثرة الملازم الاول رشاد سعيد آمر مخازن العتاد في منصورية الجبل الذي زود لواء الثورة (اللواء العشرين) بالعتاد سرا ليتوجه الى الاردن عبر العاصمة خلافاً للاوامر المشددة التي تمنع تزويد القطعات التي تمر في بغداد.

لقد تشكلت اول لجنة مركزية للتنظيم العسكري للحزب الشيوعي العراقي في تموز ١٩٥٨ فقد ابلغني الشهيد سلام عادل بعد الثورة بأربعة ايام بقرار الحزب تكليفي بقيادة اللجنة العسكرية التي تكونت من الرئيس فاضل البياتي والرئيس مهدي حميد والملازم المتقاعد عطشان ضيون والملازم الاول جبار خضير (ولا اعرف لماذا جرى استثناؤه فيما بعد ولم يحضر أي اجتماع للجنة) وعقد اول اجتماع في دار بغداد للطباعة والنشر قرب منطقة حافظ القاضي بقلب مدينة بغداد وحضر الاجتماع مشرفاً من المكتب السياسي الشهيد جمال الحيدري وقد نوقشت فيه خطة العمل وبناء تشكيلات الحزب في الوحدات العسكرية وربطها باللجنة.

وفي اجتماع اللجنة المركزية للحزب في السادس من ايلول ١٩٥٨ طرح العمل في صفوف القوات المسلحة واسفرت المناقشات عن صيغة محددة بالآتي «الاهتمام بالقوات المسلحة والعمل على كسبها للحركة التقدمية – الديمقراطية وجعل الجيش جزءاً من الحركة الديمقراطية للدفاع عن الجمهورية وتطهير صفوفه من الرجعيين والعملاء».

وخلال فترة قصيرة من عمر الثورة كانت تنظيمات الحزب العسكرية تغطي

جميع وحدات الجيش تقريباً في حين دخلت الثورة طوراً من الخلافات بين قادتها: عبد الكريم قاسم ومعه الشيوعيون والديمقراطيون من جهة وعبد السلام عارف ومعه البعثيون والقوميون والاسلاميون من جهة ثانية. وفيما حسم الصراع لصالح عبد الكريم قاسم لجأت اول مجموعة من الموالين لعبد السلام عارف الى العمل للانقلاب بقيادة احمد حسن البكر في تشرين الاول ١٩٥٨ كما لجأ عبد السلام منذ البداية لإزاحة عبد الكريم قاسم ولذا جرد من مناصبه. ان رفعت الحاج سري كون فريق عمل من ثلاثة من الضباط وهم العقيد الركن عدنان عبد الجليل والعقيد الركن محمد مجيد والرئيس الاول الركن صبحي عبد الحميد للعمل لاغتيال عبد الكريم قاسم في وزارة الدفاع واذا تعذر ذلك فالتخطيط للقيام بانقلاب عسكري وكان هذا التوجه في شباط ١٩٥٩ (راجع كتاب حول ثورة ١٤ تموز للعقيد خليل ابراهيم حسين) ونشط رشيد عالي الكيلاني في تشرين الاول ١٩٥٨ للقيام بحركة ضد الحكومة وتمرد الشواف في ٨/آذار/ ١٩٥٩ بحركة ضد عبد الكريم قاسم في الموصل بينما كان الشيوعيون والديمقراطيون في تحالف مع عبد الكريم قاسم رافعين شعار الدفاع عن الجمهورية دون ان يسعوا الى التفكير بالسلطة.

ان واحدة من التناقضات التي رافقت ثورة ١٤ تموز تتمثل في ان القيادات العسكرية العليا بقت في غالبيتها تحت سيطرة ضباط قوميين كبار فيما قاعدة الجيش من الجنود وضباط الصف الصغار اكثريتهم الساحقة كانت موالية للحزب الشيوعي العراقي ولعبد الكريم قاسم. فقد كان الزعيم الركن عبد العزيز العقيلي قائداً للفرقة الاولى والزعيم ناظم الطبقجلي قائداً للفرقة الثانية والعقيد رفعت الحاج سري مديراً للاستخبارات العسكرية، ومعاونه خليل ابراهيم حسين والعقيد الركن عبد الوهاب الشواف آمر حامية الموصل والعقيد الركن فهمي الجراح آمر حامية اربيل واحمد حسن البكر آمر اللواء العشرين والعشرات من الضباط الكبار في المراكز المهمة. وقد شخّص رفعت سري هذا التناقض لدى الحاح الضباط القوميين والاسلاميين عليه للقيام بحركة حيث قال «ان القيام بالثورة التي تطلبونها تضع العراق على الطريق الصحيح وتضع حداً لتصرفات الشيوعيين وتصرفات عبد الكريم قاسم وهي قضية تحتاج الى دراسات متأنية لا تقبل الخطأ لان الحزب الشيوعي يسيطر على معظم ضباط الصف والجنود والضباط الصغار والذين اصبحت كلمتهم نافذة وسيطرتهم تامة». (انظر الكتاب الثاني لخليل ابراهيم حسين من مذكراته ص ١٤٠).

وعلى ذكر خليل حسين الذي تربطني به ذكريات مقاعد الدراسة في متوسطة الكرخ عام ١٩٣٦-١٩٣٩ والاعدادية العسكرية عام ١٩٤٠-١٩٤١ والكلية العسكرية ١٩٤١-١٩٤٢ (حيث فصلت من الكلية سياسياً) فقد التقيته بعد ١٤ تموز ١٩٥٨ للتهنئة بقيام الثورة وعرفني برفعت الحاج سري ورشيد محسن احد الضباط في مديرية الاستخبارات العسكرية وجرى بيننا حوار حول الوضع في الريف وتحرك الفلاحين للاستيلاء على اراضي الاقطاعيين وابدى رفعت استياءه من ذلك وطلب مني ان يسعى الحزب الشيوعي الى وقف هذه الحركة وتهدئة الوضع وخاصة في لواء الكوت فقلت له ان الحزب الشيوعي ليس في السلطة اولاً، وثانياً ان عبد السلام عارف هو نفسه يحرض الفلاحين ضد الاقطاعين في خطبه التهريجية حيث يقول «لا قصور ولا ثلاجات بعد اليوم» وتطور الحوار وطالبت بالحريات الديمقراطية واجازة الاحزاب فكان جواب سري اصراراً على تحريم النشاط الحزبي لعدة سنوات فقلت لماذا قامت الثورة، ما الفرق مع العهد المباد الذي حرم الاحزاب وعطل الدستور فقال ان حرية الاحزاب تؤدي الى الاقتتال، قلت يجب تعزيز جبهة الاتحاد الوطني بضم الحزب الديمقراطي الكردستاني وممثلي القوات المسلحة واعادة صياغة برنامج لتطوير الثورة وأي فصيل يخرج على ذلك سوف يكون معزولاً عن الشعب والجماهير تتخلى عنه ولكن سري اصر على رأيه.

وفيما برزت اولى الخلافات مع عبد الكريم قاسم انبرى بعض الضباط الشيوعيين الى المطالبة بأبعاد قاسم عن السلطة واستلامها وكان اول من دعا الى ذلك في التنظيم العسكري الرئيس المتقاعد فاتح الجباري الذي عبر عن رأيه بازاحة عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف بعد الثورة مباشرة حين التقاهما وهنأهما بالثورة حيث كانت تربطه بهما ذكريات الزمالة في حرب فلسطين قبل ذلك الوقت بعشر سنوات. وفي اوائل ١٩٥٩ دعا كل من الرئيس الاول خزعل السعدي والرئيس الاول خليل ابراهيم العلي آمري كتيبة الدبابات الثانية والرابعة في ابو غريب الى الاطاحة بقاسم بل وقاما سوية وبملابسهما العسكرية بزيارة مكاتب جريدة الحزب واتحاد الشعب والاجتماع برفاق قياديين متخطين مرجعهما الحزبي مما ترتب على ذلك وصول الخبر للاستخبارات العسكرية التي كانت تراقب مكاتب الجريدة وتم اعتقالهما بأمر من عبد الكريم قاسم. وكانت المطالبة باستلام السلطة برأيي أنذاك تنطوي على خطورة فضلاً عن انها لا تأخذ بالاعتبار الانجازات التي تحققت في تلك الحقبة في ظل عبد الكريم قاسم وعززت مكانته الشعبية

علاوة على اسباب أخرى لا مجال لذكرها.
وكانت حركة الشواف في الموصل ٨/آذار/١٩٥٩ قد انهت التوازن داخل الجيش حين شقته الى شطرين الاول مع عبد الكريم قاسم والثاني ضده. الاول يضم الشيوعيين والتقدميين وانصار قاسم والثاني يضم البعثيين والقوميين والاخوان المسلمين وذوي الولاء الاقطاعي.
لقد كانت خطة استخدام القوة الجوية للقضاء على حركة الشواف تعود للزعيم الركن جلال الاوقاتي الذي اقنع عبد الكريم بها وكان السرب الذي قام بالقصف لمقر الشواف بقيادة الرئيس الاول الطيار خالد سارة مرشح الحزب الشيوعي العراقي وكان طياراً ماهراً. ولابد من الاشارة الى ان عبد الوهاب الشواف لم يكن قومي النزعة بل كان اقرب للمجموعة الديمقراطية واليسارية وحتى ناظم الطبقجلي كان كذلك، ولكن خلافهما مع قاسم وحدة مزاج الشواف دفعهما الى التعاون مع الاخرين (خاصة وان الحزب الشيوعي انساق الى جانب عبد الكريم قاسم) الذين كانوا متحمسين للعمل ضد حكم قاسم بتشجيع مباشر من عبد الناصر والجمهورية العربية المتحدة آنذاك.
ان التصفيات الجسدية التي رافقت الحاق الهزيمة بحركة الشواف من قبل منظمة الحزب الشيوعي العراقي في الموصل لم تكن مبررة رغم انها كانت رد فعل للتصفيات التي بدأها المقدم الركن محمود عزيز، لولب حركة الشواف، حيث قام بتصفية كل من الشخصية الوطنية التقدمية كامل القزنجي والمقدم عبد الله الشاوي آمر كتيبة الهندسة والعريف حرز وهم معتقلون من قبل قادة الحركة في الثكنة الحجرية وكان محمود عزيز يواصل تصفية المعتقلين الآخرين من الشيوعيين والديمقراطيين لولا انهيار الحركة بمقتل الشواف وهروب محمود عزيز الى سورية، فقد كانت توجيهات عبد الكريم لجماهير الشعب بتصفية المتآمرين ولكنه فيما بعد استغل ذلك ضد الحزب الشيوعي واعطى الضوء الاخضر للقوميين والاخوان المسلمين والبعثيين واجهزة الحكم المحلي في الموصل وبغداد والمدن الأخرى لشن حملة تصفيات بشعة ضد اعضاء وكوادر الحزب الشيوعي العراقي (راجع كتاب العراق في عهد قاسم لجرجيس فتح الله - المحامي) ومع هذا اقول ان مجزرة الدملماجة من قبل رفاقنا في الموصل كانت جريمة ارتكبت ولا لزوم لها. ووقعت بعض العناصر في تنظيماتنا العسكرية في خطأ آخر وهو مساهمتها في تعذيب بعض المعتقلين بعد حركة الشواف رغم انهم غير مخولين لا من الحزب ولا من جهات رسمية في القيام بذلك واقصد ما جرى في هيئة التحقيق الخاصة المشكلة رسمياً بأمر من عبد الكريم قاسم برئاسة

العقيد الركن هاشم عبد الجبار، وكان شيوعياً، وآخرين، وقد ساهم عضو اللجنة العسكرية آنذاك عطشان ضيون الازيرجاوي في التبرع بحضور التحقيق والقيام بتعذيب المعتقلين ولدى اطلاعي على الأمر قمت بمحاسبته وابعاده عن اللجنة العسكرية وارسل الى الخارج. ان الانتهاكات التي قام بها رفاقنا سواء في الهيئة التحقيقية الخاصة أو في كتيبة الدبابات الثانية لم تكن بتوجيه من قيادة الحزب بل انها كانت ضدها وهذا ليس تبريراً بل هو الواقع فقد انتدبتني قيادة الحزب الى الموصل بعد حركة الشواف وتسلم الرفيق حسن عبود آمرية حامية الموصل من اجل تطويق هذه الممارسات واتفقت معه للقيام بإطلاق الموقوفين في مقرات المقاومة الشعبية لكن اللجنة المحلية لمنظمتنا الحزبية في مدينة الموصل رفضت الاقتراح وكان المتحمس للرفض هو عدنان جلميران مما اضطر حسن عبود الى اطلاق جميع الموقوفين بنفسه.

اما قاسم فقد شن حملة اعتقالات ضد عشرات من اعضاء الحزب الشيوعي من العسكريين والمدنيين واحالهم الى المحاكم العرفية ليحكموا بالاعدام وفي انقلاب شباط الفاشي ١٩٦٣ ارسلوا اغلبيتهم الى ساحات الاعدام وشنق الكثير من المدنيين واغلبهم لم يشارك من قريب أو بعيد بالاحداث.

لقد انخرط التنظيم العسكري في قلب الصراع الذي كان يجري في صفوف الحزب وبالتحديد في قيادته حول وجهة التعامل مع عبد الكريم قاسم وتزايدت المطالبة باعداد خطة لازحة قاسم واستلام السلطة في حين دعت اصوات في المكتب السياسي الى حل تنظيمات الحزب في القوات المسلحة لتطييب خاطر عبد الكريم قاسم الذي يعتقد ان الجيش ملك له وكان هادي هاشم عضو المكتب السياسي انذاك من اكثر المتحمسين لهذا الاقتراح بوصفه مشرفاً على لجنة التنظيم العسكري التي كنت سكرتيراً لها (وكان هذا بعد الاجتماع الموسع للجنة المركزية في تموز ١٩٥٩. وضمت في ذلك الوقت عمر علي الشيخ وعبد الرزاق الصافي وسلطان ملا على المرشحين لعضوية اللجنة المركزية ولطيف الحاج وسعد يحيى قاف وعلي حسين الرشيد (وقد جرى ابعاد العناصر العسكرية من اللجنة تماشياً مع الحملة التي قام بها قاسم ضد الضباط الشيوعيين) حيث طرح هادي هاشم في ١٩٥٩/٩/١٥ فكرة حل التنظيم العسكري مما اضطرني للتصدي له باعتبار ان الفكرة هي «رأي شخصي» كان عليه ان يطرحها في هيئته الحزبية المكتب السياسي) لا ان يطرحها هنا وعلى اثر ذلك ترك الاجتماع وقلت لاعضاء اللجنة بالاستمرار بعملنا وانا مسؤول امام الحزب فيما نحن عليه.

وبعد حادث اغتيال عبد الكريم قاسم في ١٩٥٩/١٠/٧ شعر المكتب السياسي بالحاجة الى تنشيط اللجنة العسكرية واعاد الاتصال بنا بعد ان اهملنا خلال الفترة السابقة وقمنا بتطهير صفوف التنظيم العسكري من الانتهازيين والوصوليين والقاسميين من الضباط ومع استمرار التداعيات السياسية الناجمة عن الحملة السياسية والقمعية والاعلامية ضد الشيوعيين برزت فكرة السيطرة على السلطة اكثر فأكثر في التنظيم العسكري وتزايدت مع اعلان الحرب ضد الشعب الكردي في عام ١٩٦١ وكان من ابرز الداعين الى ذلك الزعيم الركن الطيار جلال الاوقاتي الذي قامت خطته على فكرة الاستيلاء على وزارة الدفاع فالذي يستولي عليها يستولي على السلطة وقال مفصلاً: «لو اصبح عبد الكريم قاسم سكرتيراً للحزب الشيوعي العراقي لازم نزيحه لانه سوف يدمرنا ويدمر نفسه» وقال لدينا القوة الجوية ويتطلب الامر لواء مشاة وسألني هل لدينا مثل ذلك؟ اجبته «لدينا لواء ٢٧ مشاة الموجود في معسكر الوشاش وكان آمر ذلك اللواء الزعيم الركن حميد امين وهو قاسمي (اخو ماجد محمد امين) ولكن هناك رفاق على رأس الافواج مثل العقيد الركن عبد الرضا عبيد آمر الفوج الاول والعقيد ابراهيم الجبوري آمر الفوج الثاني والمقدم غازي دخيل آمر الفوج الثالث والمقدم الركن علي خالد ضابط ركن اللواء وهناك الكثير من امراء السرايا والفصائل من اعضاء الحزب علاوة على منظمة الجنود وضباط الصف.

وواصل الاوقاتي فكرته: «مطلوب حركة جماهيرية أو اضرابات أو مسيرة نقوم خلالها باعتقال قاسم ونجبره على التوقيع والتنازل ثم نرسله الى احدى الدول الاشتراكية» وقال ان أي حركة جماهيرية يتحرك الحزب بها تجعل اشجع العناصر الرجعية من الضباط يرتجفون ويقولون سوف يحتل الحزب وزارة الدفاع لهذا يجب ان نقوم بالخطة. ومن جانبي قمت بنقل الفكرة التي اقتنعت بها الى سكرتير الحزب سلام عادل في لقاء عقد في آذار ١٩٦١ وبعد ثلاث ساعات من النقاش حول الاوضاع العامة وحالة التبرم والاستياء داخل التنظيم الحزبي ازاء سياسة قاسم طلب سلام عادل مني تقديم المقترح مكتوباً معززاً بالاسباب وبجرد قوانا في المؤسسة العسكرية لطرحه على المكتب السياسي للحزب وكان الجرد الذي قدمته يتضمن المعلومات التالية:

- لدينا في الجيش في ذلك الوقت خمسة آلاف ضابط منهم خمسمائة ضابط بين ملازم وزعيم منتظم في الخلايا واللجان الحزبية وألف ومئتين ضبا ط اصدقاء متبرعين شهرياً أي قوانا من الضباط – ١٧٠٠ ضابط.

- عدد افراد الجنود وضباط الصف في الجيش العراقي آنذاك مائة وعشرة آلاف، قوانا المنظمة اكثر من ثلاثة آلاف عضو (أي بنسبة ٢٪ الى ٢.٥٪) ومع هذه الاحصائية قوى الخصم، كان في الدرجة الثانية قوة الاخوان المسلمين ثم القوميين ثم البعثيين وفي الاخير القاسميين. ووضعت الخطة التي طرحها في وقتها الشهيد الاوقاتي وقدم التقرير باسم اللجنة العسكرية.
في لقائي مع السكرتير سلام عادل وجدته متعاطفاً مع المقترح غير ان الرد الذي جاء من اعضاء المكتب السياسي، المتواجدين في العراق آنذاك (سلام عادل، زكي خيري، عامر عبد الله، محمد حسين ابو العيس، جورج تلو، عزيز محمد، عبد السلام الناصري ومرشح المكتب السياسي عزيز الشيخ) في شهر حزيران ١٩٦١ كان مخيباً للآمال ويتضمن نقداً لاذعاً للجنة العسكرية التي قيل انها تستهين بالجماهير ويذكرنا بأن السلطة القائمة وطنية ويحذر من «المغامرة» وبعد اسبوع من الرد طلب الي الاستعداد لمغادرة العراق بغية الدراسة في الاتحاد السوفييتي وتسليم التنظيم العسكري الى عمر علي الشيخ. ولكن قبل التسليم اعتقل عمر في الكوت ورشح الشهيد نافع يونس عضو اللجنة المركزية لتسلم قيادة التنظيم العسكري.
ومن ذلك الوقت اخذت الاحداث تجري متسارعة الى نقطة الانفجار حيث اتى انقلاب شباط الدموي عام ١٩٦٣ على حكم عبد الكريم قاسم وطحن بعجلاته ارواح اشرف ابناء الشعب العراقي وتحمل الشيوعيون العسكريون قسطهم الكبير من ضريبة الهزيمة امام الانقلابيين الانتقاميين مما اعاد الى الاذهان ما قاله الشهيد جلال الاوقاتي من ان قاسم سوف يدمرنا ويدمر نفسه. وقد كان اغتيال جلال نقطة الصفر بالنسبة للانقلابيين فجرت تصفيته لدى خروجه من بيته في كرادة مريم يوم ٨ شباط الاسود ١٩٦٣ في الساعة الثامنة والثلث ولهذا اخذ الفاشست سرباون شواربهم بهذه العلامة ثمانية وثلث انتصاراً لجريمتهم القذرة. وبدأت التصفيات بالنسبة للعسكريين من الساعات الاولى وأذكر منهم جلال الاوقاتي الزعيم الركن الطيار والزعيم الركن داود الجنابي والعقيد حسين خضر الدوري والعقيد الركن ماجد محمد امين والرئيس افاضل البياتي والرئيس فاروق عمر والمقدم ابراهيم كاظم الموسوي والعقيد الركن طه الشيخ احمد والعقيد وصفي طاهر الملازم الاول نوري مجيد والمقدم كاظم عبد الكريم والرئيس هشام اسماعيل صفوت والرئيس الطيار منعم شنون والرئيس الاول خزعل علي السعدي والرئيس نوري نادر والمئات من الضباط والجنود وضباط الصف والآلاف المدنيين من الشيوعيين والديمقراطيين والتقدميين والوطنيين ولا بد من

اختتام هذا القسم بمقتطف من رسالة الشهيد سلام عادل التي وجهها الى لجان المناطق والمحليات قبل اعتقاله بأيام تقييماً للانقلاب الفاشي. فقد جاء فيها «ان الدكتاتورية السوداء الجديدة لم تأتي للقضاء على الدكتاتورية الفردية كما تزعم ولم تأت من اجل الوحدة والحرية والاشتراكية والعدالة الاجتماعية. ان طبيعة الدكتاتورية السوداء الجديدة لا يمكن تستيرها بغربال من الديماكوكية والتهويش انها ذات طبيعة رجعية قومية يمينية شوفينية عنصرية طائفية وطبيعتها تخدم بالدرجة الأولى الاستعمار والرجعية والاقطاع. انها تمثل حركة ردة سوداء للنكوص ببقايا مكتسبا ثورة ١٤ تموز، انها تحمل راية مهادنة الاستعمار الامريكي والانكليزي وشركاتهما النفطية. انها تحمل راية تخريب البقية الباقية من النزر اليسير من حريات الشعب ومنظماته ونقاباته وجمعياته المهنية والثقافية والاجتماعية. انها تحمل راية تخريب المقاييس الوطنية وتشويه اهداف الحركة الشعبية وحرفها لصالح الاستعمار والاقطاع. انها تحمل راية معاداة الشيوعية والديمقراطية والوطنية راية ميثاق بغداد وغلاة دعاة الاستعمار والعدوان والحرب وفرض ابشع اساليب الحكم البوليسية الفاشية على البلاد انها تحمل تدمير جيشنا الوطني جيش ١٤ تموز وتصفية عناصره الوطنية الاشد اخلاصاً للشعب والوطن. انها سلطة معادية للقوميات والاقليات التي يتألف منها شعبنا تحمل راية العداء القومي والطائفي ضد الشعب الكردي وضد الاقليات القومية والدينية والطائفية انها تحمل راية معاداة العمال والفلاحين ومعاداة المثقفين والثقافة والعلم».

وجاء في الرسالة «ولا يحتاج الى برهان جديد بأن من المستحيل فرض حكم غادر على الشعب بالحديد والنار بأساليب الاعتقال والتشريد والتقتيل الجماعي. ان الشعب لا يمكن افناؤه أو فل ارادته. والمغامرون والخونة الذين يحاولون حكم الشعب رغم ارادته هم الذين دائماً مصيرهم الفناء والدماء. والفاشست الانقلابيون الجدد المنعزلون كلياً عن الشعب سيجدون مثل هذا المصير بصورة عاجلة وبشكل استثنائي».

الجيش في مقررات الحزب الشيوعي

في البرنامج الجديد*

- إعادة بناء القوات المسلحة ديمقراطياً وتأكيد ولائها للشعب وإزالة نزعة العسكرة، ومعالجة الآثار السلبية لنهج الدكتاتورية على معنوية ونفسية منتسبيها واحترامهم وصيانة كرامتهم الشخصية.
- تكريس مهمة الجيش في الدفاع عن الوطن واستقلاله وسيادته.
- تربية القوات المسلحة باحترام المؤسسات الدستورية والديمقراطية الممثلة لارادة الشعب والالتزام بقراراتها.
- اخضاع الميزانية العسكرية، واعلان حالة الطوارئ والحرب، الى قرار ممثلي الشعب المنتخبين ديمقراطياً.
- تحديد منشئات التصنيع العسكري ضمن حاجة البلاد الدفاعية، وتحويل الزائد عن ذلك الى حاجات الانتاج المدني، والامتناع عن انتاج اسلحة الدمار الشامل الكيمياوية والبايولوجية والنووية، واحترام العراق لالتزاماته الدولية في هذا المجال.
- رعاية شؤون العسكريين وتأمين عودتهم الى الحياة السلمية الطبيعية وتأهيلهم.

* اقره المؤتمر الوطني الخامس للحزب الذي عقد بين ٢١-٢٥ تشرين الثاني ١٩٩٣.

- ضمان حرية الانتماء السياسي لمنتسبي القوات المسلحة وحرية الانتخاب والترشيح للمجالس التمثيلية.
- تحديد مدة الخدمة الالزامية وخدمة الاحتياط وتسريح المكلفين بعد انهائها.

في بيان المجلس الحزبي العام**

توقف المجلس الحزبي العام عند التطورات التي حصلت في القوات المسلحة منذ الحرب العراقية-الايرانية، وغزو الكويت، وانتفاضة آذار المجيدة، وما تركته من آثار على الشعب والوطن، ولاحظ ايضاً تفاقم الضائقة المعاشية لمنتسبي القوات المسلحة، شأن غالبية ابناء الشعب. اذ تدهورت حياة الجنود والمراتب الى درجة مريعة، كما تدهورت احوال صغار الضباط ومتوسطيهم، بل حتى بعض كبار الضباط.
وبسبب من ذلك، اضافة الى التعسف والارهاب السائدين في القوات المسلحة، لجأت اعداد كبيرة من افرادها الى الفرار منها، واتسعت ظاهرة الهروب رغم العقوبات الوحشية بقطع الآذان والسجن والاعدام.
ونتيجة لهذا كله، وغيره من العوامل، اصبحت القوات المسلحة مفككة نسبيا، مزعزعة الولاء، فحتى الحرس الجمهوري لم يعد كما كان سابقاً، لذلك انشيء الحرس الجمهوري الخاص.
كما عمد النظام الى اقامة تشكيلات عسكرية جديدة سميت بفدائيي صدام. واستخدمت في قمع هبّة الرمادي في ايار الماضي، واشبال صدام، وربما تظهر تشكيلات أخرى في المستقبل.
وهكذا ينشأ الى جانب الجيش، جيش آخر هو عبارة عن ميليشيات خاصة بالعائلة والطغمة الحاكمتين، مهمتها حمايتهما وسلطتهما من غضب الشعب وقمع أي تحرك جماهيري ضدهما.
ان هذه التطورات في القوات المسلحة، التي كانت في خلفية ما انكشف من محاولات انقلابية وتمردات ضد النظام تتطلب وقفة جدية من جانب حزبنا وكل قوى المعارضة العراقية لتدارس كيفية تطويرها وتوظيفها في مسعاها لتعبئة كل قوى الشعب في النضال لاسقاط الدكتاتورية. ذلك ان العمل من اجل اسقاط الدكتاتورية يتطلب ضمان قوة مسلحة ضاربة سواء كان هذا

** عقد بين ٢-٤ آب ١٩٩٥.

العمل انتفاضة شعبية مخططاً لها، أو انفجاراً شعبياً عفوياً بفعل تردي الاحوال المعاشية والعسف الدكتاتوري، أو تمرد وحدة عسكرية بفعل ظروف وعوامل خاصة كما حدث في ابوغريب مؤخراً.

وفي هذا المجال يتطلب الامر بذل جهد تثقيفي مستمر ضد الآراء التي تستهين بالعمل في هذا المجال، أو ترفض التضامن مع ضحايا الدكتاتورية الذين يتعرضون للعسف والتعذيب والاعدام، لمجرد انهم كانوا مع النظام سابقاً. هذا الى جانب عدم اهمال النشاط السياسي والتربية الفكرية لترسيخ القناعة بضرورة نهوض الجيش بدوره للدفاع عن الوطن واحترام الديمقراطية.

صدام حسين
وتغيير المهمات الاساسية للقوات المسلحة
وآثار غزوه الكويت

عامر الجبوري*

المقدمة

١- لقد شهدت القوات المسلحة العراقية تطورات كبيرة خلال عقد الثمانينات أبان الحرب العراقية - الايرانية، وكانت هذه التطورات على المستوى الافقي والعمودي. فعلى المستوى الافقي بلغ حجم الجيش العراقي اكثر من عشرة أضعاف حجمه عام ١٩٨٠. ويفوق ذلك على المستوى العمودي من حيث التسليح والتجهيز والتدريب والتقنية والخبرة النظرية والعملية، بحيث اصبح يعد من الجيوش المتقدمة التي يهاب جانبها. ومما يزيد خطورته انه من الجيوش القليلة في العالم المبنية على أسس ضبطية راقية ويعمل وفق سياقات وانظمة عالمية اضافة الى الشجاعة والاقدام التي يتميز بها والخبرة والممارسة في القتال. وفي مغامرة طائشة لاشباع نزوات صدام العدوانية تحول هذا البناء الى ركام، وعلى جميع المستويات.

٢- ان هذا الموضوع لا يمكن اعطاء حقه في مقالة أو بضع مقالات بل يتطلب مؤلفات. لذا استميحكم عذراً، اني سأمر على بعض العناوين مرور الكرام مع مراعاة الجوانب الامنية في ذكر بعض المعلومات.

* عقيد ركن من «التجمع الدستوري العراقي». والمادة هي اجابة الكاتب على اسئلة وجهتها المجلة لعدد من الضباط الملتحقين بالمعارضة في كردستان حول اوضاع الجيش.

التغيرات التي طرأت بعد حرب تحرير الكويت عام ١٩٩١

٣- ســأتناول بعض جوانب الكارثة التي حلت بـالجيش العراقـي جراء غزو الكويت تحت العناوين التالية:

أ- الحجم

نتيجة الخسائر البشرية التي تقدر بمئات الآلاف، والخسائر في المعدات من الدبابات والعجلات المسرّفة والمدولبة والمدافع وقواعد الصواريخ (أرض/أرض، وأرض/جو) وأجهزة الرصد والرادار بكافة انواعها، والاسلحة الثقيلة والمتوسطة والخفيفة، والطائرات المقاتلة والسمتية، بات يقدر حجم الخسائر فـي تشكيلات الجيش بما يزيد على ٧٥٪، وفـي قوات الحرس الجمهوري بما يزيد على ٥٠٪. لذلك اضطر النظام الى هيكلة، أو الغاء، ما يزيد عن ٧٠٪ من تشكيلات الجيش (بما فيها قوات الحرس الجمهوري)-التي كان حجمها قبل الحرب ما يعادل اكثر من خمس عشـرة فرقـة متكاملة (يقترب من مجموع الجيوش العربية المجاورة للعراق). وأضطر النظام الى الابقاء على تشكيلات من الجيش (الموجودة حالياً) على شكل هياكل واكوام من البشـر تعاني من النقص الحـاد في كل شـيء، ولو أعيد تنظيمها لتـأليف تشـكيلات نظامية متكاملـة لحصلنـا على قـوة تقدر ب٧-١٠٪ من القـوة قبل الحرب. مـن هذا نتمكن من تقدير مدى الكارثة التي حلت بالجيش.

ب- التسليح

اضافة الى ما ذكر اعلاه، فـأن التسليح والتجهيز لحقهما من الدمار الشديد ما يفوق دمار الحجم، حيث يضاف الـى التدمير خلال الحرب، التجريد من الاسلحة الحديثة (البالسـتيقية وغير البالسـتيقية) مـن خلال قرارات مجلس الأمن الدولي المعروفة، وعدم توفر قطع الغيار نتيجة للحصار الدولي، وتدمير البنـى التحتيـة للصناعات العسـكرية، وعـدم توفر العملـة الصعبـة لتغطيـة متطلبات الصيانة والادامة.

ج- التنظيم

هنالك عوامل عديدة تؤثر على تشـكيل وتنظيم أي جيش من الجيوش، منها العقيدة العسـكرية: هل هي دفاعيـة أم هجوميـة، والاخطار المحتملـة على الدولة، والمستوى الحضاري للسكان وحجم السكان وغيرها...

وكان العراق مراعياً لهذه العوامل في بناء جيشه لاسيما ان عقيدته العسكرية كانت دفاعية. ولكن بعد استلام صدام للسلطة اخذ تنظيم الجيش منحى آخر من حيث الحجم والتسـليح والتنظيم والارتباط فيسـتنتج المتتبع ان العقيدة

العســكرية للجيش قد تغيرت فـأصبحت هجومية عدوانيـة، اضافـة الى العشوائية والبعد عن التنظيم العلمي مما أثر سـلباً على الأسس الضبطية والتنظيمية. وجرى هدر الثروة الوطنية والاموال الطائلة في مشاريع ما يسمى بالتصنيع العسـكري التي آلت الى التدمير. كما أدى ذلك الى عسكرة المجتمع العراقي بما لـه من العواقب الخطيرة اجتماعياً وحضارياً وسياسيا واقتصادياً وثقافياً.

وقد عمـد صدام الى خلق تكوينـات واحداث تغيرات في تنظيم القوات المسلحة حيث فك ارتباط قوات الحرس الجمهوري ومديرية الاستخبارات العامـة من رئاسـة اركـان الجيش ومن وزارة الدفـاع فربطهما برئاسـة الجمهورية عن طريق جهاز الامن الخاص وهذه سابقة لا يوجد لها مثيل في جيوش العالم.

د- الأوضاع المعاشية والمعنوية

من السـمات المهمة، التي تميز الجيوش عن التنظيمات الأخرى، النظام الدقيق والضبط العالي. وهذا بدوره يسـاعد على رفع الروح المعنوية لافراد الجيش. واليوم بعد مغامرة غزو الكويت لم يعد يلاحظ الحد الادنى من هذه السـمات، بل نلاحظ الفوضى والارتباك والتسـيب والاهمال والاوضاع المعاشـية المتردية جداً، جراء النقص الكبير في الارزاق. بل اكثر افراد التشكيلات يقتاتون من القرى المجاورة والمزارع. اضافة الى ذلك عدم توفر الملابس مما حدا بالسلطة ان تصدر قراراً يسمح بارتداء الملابس المرقعة! ولعدم توفر العجلات لنقل الارزاق والمجازين يضطر الفرد الى الغاء اجازته أو الغياب عن وحدته أو التسـول حيث ان راتبه لا يسـد اجرة النقل ذهابا وايابا. هذه صورة مختصرة عن الحالة المعاشـية لمنتسبي الجيش والتي بدورها تؤدي الى تدني الحالة المعنوية لديهم اضافة الى العوامل التالية:

أولاً، عدم عدالة الحروب التي زج الجيش بها وعدم ايمانه بها.

ثانيـا، الهزيمة الكبرى التي سـببها النظام الدكتاتوري في مغامرتـه بغزو الكويت.

ثالثـاً، حالة الاستسـلام والذل المهين للنظام ازاء شروط وقف اطلاق النار لحرب الكويت وقبولها بدون تردد.

رابعاً، عدم بروز القيادة خلال المعارك (كما كان يتشدق صدام قبل الحرب) بل لا نجد اثراً لها.

خامسـاً، الحالة المعنوية المتدنية للشـعب بصورة عامة نتيجـة للاوضاع السياسـية والاقتصادية والعسـكرية التي اعقبت الحرب ونتيجـة اسـتمرار

السلطة الممقوتة بممارساتها القمعية واساليبها التضليلية واستحواذها على ثروات الوطن.

سادساً، الانتفاضة الشعبية المباركة في آذار ١٩٩١ تسببت هي الأخرى في تدني الحالة المعنوية لأفراد الجيش من خلال زاويتين، الاولى كسر وتحطيم هيبة الجيش أزاء الشعب من خلال العمليات الشعبية الناجحة، والثانية الشعور بالخطيئة والذنب لموقف بعض التشكيلات المشين من الانتفاضة.

سابعاً، اصدار القرارات اللاإنسانية بحق الهاربين والمتمثلة بقطع الآذان والاطراف او وشم الجباه.

هـ- القيادة

من مميزات الجيش وحدة القيادة. وهكذا كان جيشنا حيث ان القائد/ الآمر هو مركز القرار (بمعونة ومشورة هيئة ركنه)، هذا على المستوى التكتيكي أو التعبوي. لم ترق لصدام وأعوانه هذه الميزة فأوجدوا ابتداءً مركز قرار آخر هو «المسؤول الحزبي» ثم ضابط الاستخبارات ثم ضابط الأمن ثم استحدثوا بعد حرب تحرير الكويت وبعد الانتفاضة منصباً جديداً هو «مسؤول جهاز الامن الخاص» ويدعى «الاستاذ». وجميع هذه المناصب موجودة اعتباراً من الوحدة الصغيرة الى التشكيلات العليا في الجيش، واسندت مسؤولية ادارة هذه المسميات الى ابن رأس النظام مباشرة، وليس للقائد/الآمر سلطة عليهم! وبهذا اوجدوا صيغة تعدد مراكز القرار على المستوى التكتيكي أو التعبوي. أما على المستوى الاستراتيجي فان عملية صنع القرار عملية خطيرة جداً. لذلك فان سلطة القرار في معظم الدول تتألف من القائد العام وهيئة الاركان وذوي الاختصاصات كافة كالسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية ومن ينتدب من كبار مسؤولي الدولة، وذلك نظراً لتطور العلوم وتشعب الاختصاصات في عصرنا. فعملية صنع القرار مسؤولية الأمة وعليها يتوقف مستقبل اجيال وارواح افرادها. لقد انتهى زمن القوة البدنية والشجاعة. واصبح التفكير العلمي المنظم هو العامل الاساسي في القيادة. وبما ان القيادة الجماعية هذه تمس شخص صدام وتحد من تصرفاته وسلطته، لذلك عمل لايجاد مركز قرار يتمثل بشخصه فقط، لكي يقرر ويعمل ما تنسج له احلامه المريضة والعدوانية. وهذا ما جعل القرارات الاستراتيجية للدولة عشوائية ومتخبطة، تنقل العراق من كارثة الى اسوأ. فالثمانينات والتسعينات تشهد بذلك.

و- تغير مهمات القوات المسلحة

ان المهمات الاساسية للجيش العراقي هي الدفاع عن سيادة الوطن

والشعب. وهذا نابع من عقيدتنا العسكرية الدفاعية كما ذكرنا آنفاً. وقد بدأ الانحراف عن هذه العقيدة منذ السبعينات. وتكرس خلال الثمانينات، من خلال التوسع في حجم الجيش توسعاً لا يتناسب مع العقيدة الدفاعية والمهمات الاساسية له. وجاء ذلك واضحاً على لسان صدام حسين في احدى المناسبات قائلاً: «اننا لا نريد للجيش العراقي فقط الدفاع عن حدود العراق وانما نريد ان يكون الجيش درع الأمة وسيفها المشهور ضد الاعداء». وما الحرب العراقية - الايرانية وغزو الكويت الا دليل قاطع على تغير العقيدة العسكرية من دفاعية الى عدوانية وتوسعية. وهكذا تحولت مهمات القوات المسلحة الى حماية النظام ورأسه شخصياً وتنفيذ مخططاته العدوانية ضد الشعب (كالانفال وعملية قمع الانتفاضة الشعبية لعام ١٩٩١) وضد الأمة العربية والدول المجاورة (كالحرب العراقية- الايرانية، وغزو الكويت). ولغرض القيام بهذه المهمات الجديدة للقوات المسلحة على افضل ما يرام ولحصر سلطة القرار في شخص رأس النظام (صدام حسين) قام الأخير بعدة اجراءات خطيرة وتغييرات جوهرية في الهيكل التنظيمي للجيش هي:

اولاً. تشكيل قوات الحرس الجمهوري بقوة تعادل ضعف قوة الجيش حجما وتسليحاً وتدريباً وادارة، وربطها برئاسة الجمهورية مباشرة عن طريق ما يسمى «جهاز الأمن الخاص». وهي لا علاقة لها برئاسة اركان الجيش ووزارة الدفاع. أي اصبح لدينا جيشان في دولة واحدة. احدهما أقوى من الآخر. ويرتبط الاول بشخص رأس النظام فقط. ولا علاقة له بأي مؤسسة عسكرية.

ثانياً، فك ارتباط مديرية الاستخبارات العسكرية العامة من رئاسة اركان الجيش وربطها برئاسة الجمهورية فحرم الجيش من المصدر الاساسي للمعلومات.

ثالثاً، تعدد مراكز القرار على المستوى التكتيكي أو التعبوي، ووحدته على المستوى الاستراتيجي كما ورد في الفقرة (هـ) اعلاه وهذا خلاف المألوف.

رابعاً، التوسع الكبير في تشكيل القوات المسلحة (الجيش والحرس الجمهوري) حجماً وتسليحاً بشكل يفوق احتياجات العراق الدفاعية بكثير ولا يتناسب مع حجم السكان وكما ورد في الفقرة (ج) اعلاه بشكل اكثر تفصيلاً.

خامساً، اقامة وتطوير المنشآت الصناعية لأسلحة الدمار الشامل (الجرثومية والكيمياوية والنووية) وتخصيص الاموال الطائلة لها.

سادساً، هدر وتبديد الثروة الوطنية في المشاريع اعلاه، وفي توسيع الجيش على شكل تورم مرضي، وفي الحروب، وإتنفيذ مخططات الاجهزة الأمنية القمعية ضد احرار الشعب.

الخاتمة

٤- وهكذا كانت حصيلة الحكم الفردي المشبع بالعدوانية، والمتعطش للسلطة مهما كان الثمن، والذي لا يستند على أي مؤسسة علمية أو هيئة شرعية تمتلك الحد الأدنى من مقومات السلطة. ففي الوقت الذي كان العراق من الدول الغنية والقوية اقتصادياً، ويتمتع بسيادة كاملة أرضا وسماء وشعباً، ويمتلك جيشاً من اقوى جيوش المنطقة، اصبح بين ليلة وضحاها مهدم الاقتصاد ينتظر بفارغ الصبر ما تجود به وكالات الاغاثة والمعونات الانسانية. وحلت به مجاعة قاسية لم يمر بها سابقاً. وانتهكت سيادته ارضا وسماء وشعباً، (وطن بلا سيادة)، بحيث ان السلطة (اللاشرعية) لا سلطة كاملة لها حتى في العاصمة. فباتت اشبه بجهاز شرطة لتنفيذ طلبات فرق الأمم المتحدة، ولقمع ابناء الشعب. وأما الجيش فأصبح من اضعف جيوش المنطقة (عدا القوة التي تؤمن حماية رأس النظام).

٥- ان عملية تغيير العقيدة العسكرية وجعلها عدوانية، وبالتالي تحويل الجيش عن مهماته الاساسية، وتسخيره لحماية النظام الدكتاتوري ولتنفيذ مخططاته المناهضة لمصالح الأمة والانسانية، عملية خطيرة ينبغي على كافة الاحرار الوقوف بوجهها.

٦- التضخم غير الطبيعي نهايته الاستئصال أو التدمير للكيان، والنفخ في بالون اكثر من استيعابه يؤدي الى الانفجار. وهذه نتائج الحكم الفردي الدكتاتوري وسياسة العدوان المناهضة لمصالح الشعب والوطن والانسانية. فليعتبر بهذا النموذج جميع الاشخاص والحكومات بما فيها الحكومة العراقية ما بعد صدام، «والحكيم مَنْ اعتبر بغيره».

٣ أيار ١٩٩٥

حول إلغاء مؤسسة الجيش
واعادة صياغة مؤسسة الشرطة
في عراق المستقبل

د. أنور الغساني

ما أطرحه هنا جزء من تصوري الشخصي لعراق المستقبل ويعتمد على الافكار الاساسية التي سجلتها في «بيان ٩٢: مستقبل العراق»(١).
آمل ان تحظى هذه الآراء باهتمام أكبر عدد ممكن من العراقيين. وبما انني لا اطرح هذه الآراء كصيغ جاهزة ونهائية، لهذا ارجو ان يجري تحليلها ومناقشتها بموضوعية، وبهدف الوصول الى صيغة افضل لحل مشاكلنا في مجال مهم وحساس هو: العنف والفوضى وتأثيرهما على تأريخنا وحياتنا الراهنة.
هذه آراء، تصورات، احلام، قد تفيد في تحريضنا على اعادة التفكير في قضايانا، وفي بعض المسلمات التي تتحكم في حياتنا، والتي تبدو في معظم الاحيان غير قابلة للتغيير. ليست لدي، على ما أظن، أية اوهام حول الصعوبات والمسافة الطويلة التي ينبغي ان نقطعها قبل ان نفوز ببعض الهدوء والترشيد في حياتنا. قد أكون مخطئاً في هذا الرأي أو ذاك، لكنني واثق، الى حد بعيد، من اننا لن نتمكن من اعادة صياغة حياتنا العراقية اذا لم نتجرأ على اعادة التفكير، أي اذا لم نحلم.

* * *

السلام الدائم

للعراق تأريخ طويل، غني، عاصف، بل وحتى مأساوي في بعض أوجهه. تأريخ حافل بأعظم المنجزات من ناحية، وبحروب وصراعات شبه دائمة من ناحية أخرى. هذه الحروب والصراعات لم تكن من صنع العراقيين، ولم تأت بمبادرة منهم، بل كانت، في معظمها، مفروضة عليهم من قبل الطغاة والمغامرين والغزاة والمعتدين. ينبغي ايضاً ان نضيف الى كل هذا الأوبئة والمجاعات والفيضانات وغيرها من الكوارث لكي يكتمل تصورنا عن تأريخ العراق.

يلفت النظر هنا، ان بلداً له مثل هذا التأريخ من العنف لم ينتج حتى الآن ثقافة سلام متكاملة مضادة لهذه الحال. أسباب ذلك عديدة ولا شك، ومن أهمها: ان الحروب والصراعات كانت شبه دائمة، متصلة، وفترات الهدوء بينها قصيرة لم تسمح للعراقيين بالتأمل وبلورة توقهم الى السلام وصياغته في اعمال وتصورات وتقاليد(٢). لدينا ثقافة حزن. نعم. هذه ثقافة ترافق الحرب والصراع والخسارة. لدينا ايضاً ثقافة استمرار وقدرة على تدبير امورنا في ظل اقسى الظروف. ان من يدرس تأريخنا، منذ سومر وحتى الان، يعجب من قدرة الأمة العراقية على البقاء على الحياة. هذه خصيصة ايجابية وأساسية فينا.

* * *

انطلاقاً من معرفتي المتواضعة، لا يبدو ان هناك دراسات علمية تساعدنا على قياس مستوى وعي العراقي بمأساوية تأريخه. لهذا، فان من العسير على المرء ان يعرف هل ان العراقيين بحاجة الى تنبيههم الى محاسن السلام أم لا. هل محاسن السلام واضحة تماماً وبديهية بالفعل بالنسبة لمعظم العراقيين؟ وهل اصبح السلام فعلاً المحرك الأول والقوة الدافعة للعراقي الان؟ بالطبع، لا يوجد هناك من يناقش حول جدوى السلام باستثناء الذين يتاجرون بالحرب والعنف. ولكن هل ندرك حقاً معنى ان نحب السلام وان نكره الحرب والقمع والعنف؟ والأهم: هل ندرك ما يترتب على ذلك من مسؤولية، مسؤولية كل فرد، وضرورة تكريس جهوده من أجل السلام؟

إن مراجعة وقائع العنف بعد حرب الخليج الأخيرة تثير الخيبة. أما قيامنا بقتل بعضنا في كردستان العراق هذه الايام فهو منتهى العبث والفوضى. هل نحن أمة تريد السلام؟ هل هناك من يستطيع ان يفسر سر هذه المجزرة الغريبة في كردستان؟

لنرجع الى الوراء قليلاً ولنواجه انفسنا:
الذين تظاهروا في وثبات العراقيين قبل ١٤ تموز ١٩٥٨ كانوا شجعانا لانهم مارسوا الاحتجاج والتظاهر السلبي واللاعنف. آما الشرطة التي اطلقت الرصاص وقتلت المتظاهرين فكانت جبانة، شأنها في ذلك شأن الذين اصدروا الأوامر اليها. كانت الشرطة جبانة لانها مارست العنف والقتل. العنف والقتل وكل أشكال الارهاب أفعال تدل على جبن القائمين بها. أما اللاعنف والتظاهر السلمي فهو شجاعة. تلك كانت بداية لثقافة سلم عراقية دفع العراقيون دماءهم ثمناً لها. ولكن من المؤسف ان هذه الثقافة لم تستمر، فما ان جاء يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ حتى انهار كل شيء. بالامكان ان نقول ان العنف الذي مورس يومذاك كان رد فعل لعنف مارسه النظام طوال عقود. هذا تبرير. وبالامكان ايضاً ان يتجادل المرء حول شرعية او عدم شرعية التغيير الذي حصل، وحول شرعية النظام (الذي تمت الاطاحة به) أصلاً. قد نستطيع ان نقول، مستخدمين مفهومين ضبابيين مثل: الضحية والجلاد، ان الضحية والجلاد في فترة ما قبل ١٤ تموز تبادلا الادوار في ذلك اليوم، فأصبح الجلاد ضحية، والضحية جلاداً.
ومع هذا: فبدلاً من اعتقال شخصيات النظام وتقديمهم الى محاكمة اصولية مدنية جرى قتل البعض عشوائياً (قصر الرحاب) واعتقال البعض الآخر لكي يجري تقديمهم الى محكمة عسكرية.
كان ١٤ تموز ١٩٥٨ يوماً سيطرت فيه الروح الغوغائية على كل شيء، كان يوماً حافلاً بالفوضى والعنف.
واليوم، وفي كردستان، من المفهوم ان كل زعيم يلوم الزعيم الاخر، ومن المفهوم ان هناك قوى تحرك هذا وذاك، وان هناك مطامح ومطامع. ليس هذا مصدر القلق الاعظم. ينبغي علينا، كعراقيين، ان نقلق جداً من ظاهرة أخرى هي وجود عراقيين مستعدين للتحول الى ادوات للقتل والعنف ولتبرير سلوكهم الهمجي ببضعة افكار واعتقادات مبهمة. ماذا ينتظرنا؟ ١٤ تموز آخر في بغداد؟ هذا لن يغير شيئاً إلا على مستوى السطح، ولن يكون الا بداية لفترة هدوء قصيرة ستليها عاصفة عنف جديدة لأن العنف يولّد العنف. والعنف يؤدي الى الخضوع والاستسلام والاعتقاد الخاطئ بأنه قدر لا مرد له. علينا، ربما، ان نتعلم السلام وندرك انه ممكن، وان لدينا القدرة على تحرير طاقتنا المبدعة والخروج من حالة التأزم الدائم. ينبغي ان نكون جريئين لكي نستطيع الخروج من الحلقة المفرغة التي نحن فيها والمتمثلة في التنقل بين حالات الحرب – اللاحرب – العنف – الهدوء النسبي –

الحرب-اللاحرب... الخ. نحن مصابون بالادمان على الألم والمعاناة. ولو استطعنا تحرير انفسنا من هذا الإدمان فاننا سنكون قادرين، ولأول مرة في تأريخنا، على تحرير طاقاتنا وتركيزها على انتاج الثقافة والحضارة. ان السلام الذي تبحث عنه ليس سلام فترة الهدنة بين الحروب والأزمات والكوارث والصراعات. نحن بحاجة الى سلام دائم، والى اجتثاث العنف من انفسنا ومن حياتنا، نحن بحاجة الى سلام أبدي، الحال الطبيعية للأشياء.

الحياد

ينبغي اعلان حياد العراق نهائياً، وينبغي ان يحرّم دستور عراق المستقبل الغاء صفة العراق كدولة محايدة، تحت أي ظرف كان. ماذا نعني بالحياد؟ نعني الإمتناع عن اللجوء الى العنف، والعمل من أجل السلام والديمقراطية وحقوق الانسان والتقدم، على المستويات الوطنية والاقليمية والعالمية. الحياد يعني أيضاً الاهتمام بأوضاع الأمم والشعوب الأخرى. انه مضاد للأبالية والإهمال.
الحياد يعني اننا سنمتنع عن المشاركة في اعمال العنف، مهما كانت الأسباب والظروف، واننا لن نهاجم ما يدافع الآخرون عنه، بل سنقاوم ذلك سلمياً وسلبياً، لكي لا يجد العنف هدفاً له، ولكي يسقط في فراغ ويتبدد.
حين سنقرر اتخاذ خطوة اعلان حياد العراق فان علينا ان ندعو الى عقد مؤتمر عالمي لهذا الغرض. في هذا المؤتمر سيتم اعلان حياد العراق على نحو ثابت ودائم. وينبغي ان يتم فيه تقديم تعهدات عربية واقليمية وعالمية لضمان احترام حياد ووحدة اراضي العراق.

إلغاء الجيش

قام الجيش العراقي بدور مهم ووطني في تأريخ العراق المعاصر. لقد أدى كثير من الضباط والجنود خدمات كبيرة لبلادنا. وحتى في أيامنا هذه، ورغم السيطرة الارهابية على الجيش من قبل النظام، فاننا نرى أن الغالبية العظمى من ضباط الجيش وجنوده تنتهز كل فرصة متاحة للتعبير على تعلقها بالعراق وعن اهتمامها بمصيره. انها الأغلبية الصامتة المناهضة لديكتاتوريا صدام حسين.
ينبغي ان نلاحظ ايضاً ما حدث للجيش خلال العقود الثلاثة الماضية. لقد

تحول، وللأسباب المعروفة، الى وسيلة لإثارة النزاعات والصراعات، وتنظيم الانقلابات، والاستهتار بالشرعية، والقيام بأعمال القمع في الداخل، وغزو الدول المجاورة والمشاركة في الحروب.
وبعض النظر عن الافساد المنظم الذي تعرضت له فئة الضباط وجعلها حكرا على حزب السلطة والأدلجة الأحادية الجانب وتزييف ارادتها بوضعها تحت التهديد المتواصل أو اغرائها بالمنافع المادية، فان مشكلة الجيش لا تحل بتغيير قيادته واشاعة العلاقات الديمقراطية بين افراده.ان المشكلة، في النهاية، ليس مع ضباطه وجنوده، بل مع الجيش كمؤسسة لا ضرورة لها ولا مبرر لوجودها اصلاً. لهذا ينبغي الغاء الجيش، كمؤسسة، مرة واحدة والى الأبد.
لقد قمنا بتكوين هذه المؤسسة وعلينا الآن ان نلغيها. لن نكون أول بلد يقوم بذلك. لقد قامت كوستاريكا، البلد الصغير في امريكا الوسطى، بالغاء جيشها في عام ١٩٤٨ وبعد مرور اكثر من قرن على تأسيسه. كوستاريكا اليوم اهدأ بلد في امريكا اللاتينية، ومن بين اكثر البلدان تطوراً في العالم الثالث، على الرغم من انها لا تملك أية ثروات طبيعية تستحق الذكر. كوستاريكا بلد محايد ومسالم.
ثمة قضية أخرى: إذا كنا نريد اعلان حياد العراق فاننا ينبغي ان نعلم ان الجمع بين الحياد ووجود الجيش غير ممكن، لأن هذا مضاد لمنطق الحياد. وهذا صحيح على الرغم من وجود امثلة لهذا الجمع بين الحياد والجيش (سويسرا مثلاً)، غير ان العراق ليس سويسرا.
اصلاح الجيش ليس حلاً. ان بأمكان أية مجموعة منظمة من الضباط والجنود ان تقوم بانقلاب وتغير كل شيء وتعلن ديكتاتورية جديدة. إن الجيش، أي جيش، مؤسسة غير قابلة للاصلاح. هذه مؤسسة لا ضرورة لها، ولا يحتاجها بلد مسالم وديمقراطي حقاً.
عندما يتم اتخاذ القرار من قبل البرلمان العراقي في المستقبل، ينبغي القيام بما يلي من الاجراءات قبل واثناء عملية الالغاء وتفكيك الجيش:
أ- نزع السلاح الشامل والفوري داخل العراق تحت رقابة عالمية. ينبغي ان تقوم كل الاحزاب والجماعات والمنظمات، بدون استثناء، بنزع سلاحها بصورة شاملة وكاملة وفورية، على ان يتم جمع هذا السلاح وإتلافه.
ب- تحريم حمل السلاح أو الإتجار به، وفرض عقوبات صارمة على المخالفين.
ج- تقديم طلب الى الدول العربية والصديقة والمحايدة لإرسال وحدات

عسكرية تقوم بمهام الشرطة اثناء عملية نزع السلاح وتفكيك مؤسسة الجيش، والى ان يتم انشاء مؤسسة جديدة للشرطة العراقية.
د- وضع برامج لإعادة تأهيل ضباط وجنود الجيش المسرحين والبحث عن اعمال لهم.

إعادة صياغة مؤسسة الشرطة

من الواضح ان إلغاء الجيش لا يعني إلغاء الشرطة. لا يوجد بلد في العالم بدون شرطة. المجتمع البشري لم يصل بعد الى مرحلة تسمح له بالعيش بدون شرطة. ومن المؤسف ان العراق لا يختلف في ذلك عن غيره من البلدان.
ان تأريخ مؤسسة الشرطة العراقية والأهوال التي عانتها أمتنا على يد هذه المؤسسة تجعل من الضروري القيام بما يلي:
أ- إلغاء كل مؤسسات الشرطة السرية أو ما شابهها. وهذا يعني إلغاء الشرطة السرية أو ما يسمى ب«الأمن» وكل ما يشابهها أو ما هو ملحق بها. أما الاستخبارات العسكرية فانها ستلغى في اطار إلغاء الجيش. وينبغي ان يحرم القانون نهائياً اعادة تشكيل هذه المؤسسات.
ب- تشكيل مؤسسة جديدة للشرطة على النحو التالي:
(١) ينبغي تشكيل المؤسسة الجديدة على نحو متوازٍ مع التسريح التدريجي لضباط وأفراد مؤسسة الشرطة القديمة واعادة تأهيلهم وضمان اعمال لهم. ان هذه العملية ينبغي ان تتم في فترة لا تتجاوز ٣ سنوات.
(٢) ينبغي ان تتألف الشرطة الجديدة من عدة أصناف من الشرطة المتخصصة، وأن توكل قيادة كل صنف الى هيئة/قيادة مدنية مؤلفة من ثلاثة اشخاص (شرطة مرور، شرطة مالية، شرطة كمارك، شرطة حدود وسفر، شرطة جنائية، شرطة لمكافحة المخدرات... الخ).
(٣) يلحق كل صنف بوزارة لها علاقة بتخصصه، ويكون الصنف وقيادته المدنية تحت إمرة الوزير المدني. مثال ذلك: يمكن إلحاق شرطة المرور بوزارة النقل، والشرطة الجنائية بوزارة الداخلية، والشرطة المالية بوزارة المالية... الخ).
(٤) تقوم لجنة برلمانية متخصصة بقضايا الأمن الوطني برسم السياسة العامة لمؤسسة الشرطة والاشراف العام عليها. وتكون لهذه اللجنة صلاحية تتجاوز صلاحيات الوزراء في الوزارات التي لها شرطة متخصصة.

(٥) يحرّم القانون تشكيل قيادة موحدة لمؤسسة الشرطة، باستثناء القيادة المؤقتة التي يقرر البرلمان تشكيلها في حالات الطوارئ والكوارث، على ان يتم حل هذه القيادة بعد زوال الأسباب التي أوجبت تشكيلها. كما يحرم القانون تشكيل مؤسسات موازية لمؤسسة الشرطة، ويشمل ذلك كل مستويات الدولة، ويحرم حتى على رئيس الجمهورية تشكيل لجان تنفيذية ترتبط به وتكون لها علاقة بالأمن والشرطة. كما يحرم القانون على رئيس الجمهورية تكوين حرس خاص به. إن حماية رئيس الجمهورية مهمة ينبغي ان تنهض بها وزارة الداخلية.

إلغاء عقوبة الإعدام والعقوبات الأخرى المنافية للكرامة البشرية

العراق بحاجة ماسة الى اصلاح واستكمال نظامه القضائي ومفهومه للعدالة. إن أول إجراء ملح ينبغي القيام به هو إلغاء عقوبة الاعدام نهائياً. كذلك ينبغي تحريم العقوبات المنافية للكرامة البشرية مثل: قطع الآذان والأنوف، والوشم بوصمات العار، وقطع الأيدي، والجلد، وتحريم التعذيب كوسيلة لإجبار الاشخاص على الاعتراف. كذلك ينبغي تحريم القتل العشوائي والسياسي وقيام الأفراد بتطبيق القانون على نحو فردي.

لا يليق ببلد كالعراق نشأت فيه أول حضارة زراعية في العالم ان يستمر خاضعاً للفوضى التي بدأت يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ ولا تزال مستمرة.

ان القتل والاعدام والقسوة، وعلى مدى الآف السنين، لم تؤد ولن تؤدي الى اصلاح الوضع البشري. الاستمرار على ممارسة هذه الاعمال جريمة وحماقة ينبغي ان يعاقب عليها القانون.

لكل متهم الحق في المثول أمام محكمة مدنية وسماع التهمة الموجهة اليه والدفاع عن نفسه. ولا حكم الا للقضاء المدني. لقد تعبنا من الفوضى ومن المحاكم الخاصة و«الثورية» والعسكرية والسرية. ينبغي ان تكون كل اجراءات القضاء والمحاكم مفتوحة وعلنية وتحت رقابة كاملة. أما الاعدامات الكيفية والجماعية والفردية والارهاب والتعذيب والاعتقال الكيفي والتمثيل بالجثث وتعليقها على الاعمدة في الاماكن العامة فهذه ليست فقط فوضى بل دناءة ينبغي ان نترفع عنها، ونمنعها قانونياً. كل هذا ينطبق ايضاً على الذين هم مع النظام اليوم أو هم ضده. إن من قام ويقوم أو سيقوم باقتراف جرائم القتل والتعذيب والانتهاكات الاخرى ينبغي ان يقدم الى المحاكم المدنية، سواء أكان من أنصار النظام أم من معارضيه، وسواء أكانت الضحية مع

النظام أو ضده.

ثقافة السلام واللاعنف

ان نشر ثقافة السلام واللاعنف واحترام حقوق الانسان وتحضير ابنائنا وبناتنا للحياة السلمية أمر مهم جداً، وينبغي ان يكون من بين المهام الرئيسية لنظام التعليم في عراق المستقبل.

* * *

اعلان حياد العراق والغاء الجيش ومؤسسات التجسس والقمع البوليسي وعقوبة الإعدام والعقوبات الأخرى المنافية للكرامة البشرية خطوات في اتجاه انشاء ثقافة سلام عراقية تليق بنا.
ينبغي وضع حد نهائي للعنف والفوضى. هذه قضية مصيرية. لنتخذ القرارات اللازمة كل من موقعه. ينبغي ألا نخاف من الهدوء والسلام.

أسئلة وأجوبة

ثمة اسئلة عديدة ترتبط بقضايا العنف، الحرب، الجيش، السلام وما اليها من القضايا لا يتسع المجال هنا للإجابة إلا على عدد صغير منها: ١- اذا أعلنا حياد العراق أو قمنا بالغاء الجيش فهل هناك ضمان بعدم قيام تركيا أو ايران أو السعودية مثلاً باحتلال العراق؟
الجواب:
اولاً، ان اعلان حياد العراق وإلغاء الجيش لن يكون بدون ضمانات عالمية.
ثانياً، لنتصور ان الجيش التركي أو الايراني دخل العراق واخذ يحاصر بغداد. ماذا سيحدث؟ حسناً، لنتذكر ماذا حدث عندما قام النظام الحالي بغزو الكويت.
ثالثاً، لقد انتهى عهد تكوين الامبراطوريات. حقاً، لقد حدث في القرون الماضية ان احتل الاتراك والايرانيون بغداد بالتتابع، لكننا نحيا اليوم في عصر آخر.
٢- ولكن لنفرض أن دولة ما افلحت في احتلال العراق، ولم تفد الضمانات ولا التحذيرات ولا قرارات مجلس الأمن في ثنيها عن مواصلة احتلال العراق، ماذا سيكون مصيرنا؟
الجواب: هذه حالة نظرية، ولكن لنسلم بأن شيئاً كهذا قد وقع، فماذا

سيحدث؟
اولاً، التأريخ يعلمنا ان احتلالاً كهذا مصيره الفشل والزوال.
ثانياً، العراقيون أمة حية وذات طاقات هائلة. انهم سيتوحدون ازاء أهانة كهذه وسوف يقاومون الاحتلال بنشاطات جماهيرية سلبية منظمة. سيمارسون المقاومة السلبية المدنية وقد ينتقلون، في أقصى الاحوال، الى رمي الغزاة بالحجارة. هذا سيكفي لاخراج الغزاة ولا حاجة الى الرشاشات والمدافع. لننظر الى ما حدث للجيش الاسرائيلي في لبنان وفلسطين. هذا الجيش، الذي كان ولا يزال افضل واقوى جيش في الشرق الأوسط من حيث التسليح والتنظيم، فشل في القضاء على الانتفاضة الفلسطينية التي لم تستخدم ضده إلا الحجارة المتوفرة في كل مكان.
٣- العراقيون قوم متمردون بطبيعتهم وقصتهم مع الحجاج بن يوسف الثقفي معروفة يبدو ان من الضروري قطع بعض الرؤوس بين آن وآخر للسيطرة عليهم وعلى العراق. كيف نضمن هذه السيطرة إذا الغينا الجيش والأمن والاستخبارات؟ وكيف نضمن بقاء العراق موحداً وهادئاً مع وجود كل هذه القوميات والأديان والطوائف وكل منها يريد نظاماً على هواه وتصوره؟
الجواب: حين نتحدث عن الأمة العراقية فاننا نعني أمة تتألف من عدة شعوب وقوميات. العراق متنوع. هذا مصدر ضعف يمكن ان يتحول الى مصدر قوة. العراقيون ليسوا قوماً متمردين بطبيعتهم. مشكلتنا ان الانظمة التي تتابعت على الحكم اضطهدت العراقيين، كل العراقيين، او جاءت بحلول ناقصة، سيئة، أو غير مخلصة لقضية التنوع. لنشرف على حل قضايانا بأنفسنا عبر برلمان ننتخبه بحرية في المستقبل. ثم ليقم البرلمان باعطاء كل القوميات حقوقها كاملة بدون تزييف وتآمر. وليتح أقصى مستويات الحرية للأديان والطوائف. عندئذ سنرى ان الهدوء سيحل، ولن يكون هناك من يفكر في الانفصال او في فرض صيغ وحلول غير عراقية علينا.
العراقيون أذكياء لانهم بنوا عدة حضارات. القيمة الفكرية والعمق العاطفي الذي يكتسبه الفرد من المشاركة في العملية الحضارية يبقيان، الى هذا الحد أو ذاك، ولهما استمرارية عبر الاجيال. لنضف الى هذا ان العراقيين «تعلموا» البقاء على الحياة والاستمرار عبر الكوارث والأهوال. كل هذا أكسبهم ذكاءً خاصاً. لا نقول هذا انطلاقاً من نظرة قومية ضيقة، أو لنؤكد ان العراقيين افضل من سائر البشر. كلا، بل لتثبيت حقيقة تأريخية.
وهكذا، فان العراقيين سيدركون بذكائهم، وبسرعة، ان السلطة هي سلطتهم، وأنها تريد لهم الخير وتعطيهم الحرية لكي يعيشوا في هدوء. ولهذا فانهم

سوف يدعمون سلطة كهذه، ولن تكون هناك حاجة الى الجيش والأمن والاستخبارات للحفاظ على السلطة.

٤- هل يجوز ان نفكر في الغاء الجيش بينما يأمل البعض في قيام الجيش بتغيير النظام الحالي؟

الجواب: لنكن واضحين: لاشك في وطنية معظم ضباط وجنود الجيش الحالي اذا اخذناهم كأفراد. أما الجيش، كماكنة وكمؤسسة، فلم نرَ منه خلال ربع القرن الماضي غير القمع والحروب. ومهما يمكن، فان أي تحرك يقوم به الجيش ينبغي ان يهدف الى تسليم السلطة الى المدنيين، وان يكون مفهوماً ان الجيش سيحل نفسه في وقت لاحق. وبدون هذا الهدف فان عملية التغيير لن تكون أكثر من انقلاب آخر.

ولكن احتمال حدوث تحرك كهذا ضئيل، حتى في ظروف الحصار الحالي. أما اذا رفع الحظر المفروض على تصدير النفط فان هذا الاحتمال سيزول نهائياً. السبب: ان آلية السيطرة على الجيش ارهابية ودقيقة الى حد يسمح للنظام بالسيطرة التامة على الجيش. ان رفع الحظر يعني ايضاً ان احتمال حدوث أي تغيير في النظام سيكون مرهوناً بفعل عوامل التعرية والتآكل الطبيعية التي سيتعرض له كمنظومة. هذه عملية مؤكدة ولكن نتائجها بطيئة وقد تستمر عقوداً.

هوامش

(١) ANWAR AL-GHASSANI (1992): MANIFESTO-92, THE FUTURE OF IRAQ

كراس في ٢٠ ص – بالانكليزية– نشر خاص. تم نشر مقاطع من الكراس في نشرة «قضايا عراقية» الصادرة عن المعهد العراقي في واشنطن (شباط ونيسان ١٩٩٣). كما وأرسل الى عدد من الشخصيات العراقية واحزاب المعارضة. وقد جرى مؤخراً توزيعه على نطاق عالمي بواسطة البريد الألكتروني عبر شبكة إنترنيت.

(٢) ربما هناك أعمال كثيرة يمكن ان تعتبر جزءاً من ثقافة السلام العراقية تجهل ماهيتها وهويتها. ثمة بالتأكيد حاجة الى البحث عن هذه الاعمال واعداد مصنف لها. هناك أعمال تتبادر الى الذهن: موكب السلام السومري (هناك بالمقابل موكب الحرب والأسرى)، نصب الحرية لجواد سليم له روحية سلمية (بعد التاريخ العاصف يأتي الهدوء والانتاج والسلام). هذه، بالاضافة، الى ما يرد في بعض الاعمال الأدبية والفنية العراقية في القرن العشرين.

لنحول الجيش الى مؤسسة لإعمار الوطن

د. صادق البلادي

تجبرنا الاحداث والمتغيرات التي عشناها قطرياً وعربياً واقليمياً وعالمياً على اعادة النظر في كل المسلمات والثوابت التي كانت تبدو رواسخ لا تزعزعها العواصف للابد، فليس من ثبات ودوام الا للتغير، سيرورة دائمة بين صيرورة وفناء. المنظومة الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفييتي العظيم صارت هباءاً منثورا، دكتاتورية البروليتاريا التي كانت جوهر الحركة الشيوعية جرى التخلي عنها، ولكن ليس غريباً تمسك بعض من تخلى عن الجوهر ان يظل متشبثاً ببعض توابعها كالمركزية الديمقراطية ففيها له نفع تنظيمي. خائن للقضية العربية من كان يجازف في التفكير علناً في ضرر خطف الطائرات في النضال ضد العدو الصهيوني فضلاً عن تخوين من يعادي الصهيونية دون ان يعادي اليهود، بينما عملية التطبيع مع العدو الصهيوني جارية بتسارع ولا مفر منها اليوم. الجيش العراقي سيحارب لو وطأت قدم سوفيتية ارض السعودية، هكذا نطق صدام يوماً لكنه اوصل الجندي العراقي ليس فقط للفرار امام الجندي الامريكي القادم للعراق عبر الارض السعودية بل ولتقبيل حذاء جندي امريكي و«اقدامه تدوس في تراب تقدسون». مدير استخبارات في نظام صدام تقبل به معارضة الخارج شخصية قيادية فيها.. الحرة كانت تموت ولا ترضع بثدييها واليوم تعيل اطفالها وعجزة اهل دارها ببيع شرفها وعفاف بناتها. هكذا هي الدنيا ان قضى الامر صار عاليها اسفلها وسافلها عاليها. غير ان هناك بعض الاحكام فيما يخص الجيش لم تتغير. لا اعني احكام العسكريين وما يضفونه على صنفهم من هالات فهم مثل غيرهم يحوون النار لقرصتهم، بل احكام يرددها مدنيون دون تمحيص، مثل الجيش جزء من الشعب، الجندي

هو مواطن اولاً، مهمة الجيش الدفاع عن الوطن، ضرورة بناء جيش قوي للدفاع عن الوطن.

الجيش مؤسسة لحفظ أمن الحكام

تأسس الجيش العراقي في ظل الانتداب البريطاني عام ١٩٢١ بفوج سمي «فوج موسى الكاظم» ولعل ذلك كان تعويضا اسمياً للشيعة لعدم وجود ضباط شيعة في الفوج. ولا يعقل ان يكون الانكليز قد اسسوا الجيش للقيام بمهمة وطنية، مهمة تحرير العراق من سلطة الاحتلال البريطاني القائم بأسم الانتداب. كان الضباط الموجودون آنذاك بقايا ضباط الثورة العربية الذين لم يبق لهم مكان في دوائر حكم الانتداب، والجنود متطوعين، اكثرهم طلبا للرزق. ثم فرضت الخدمة الاجبارية زعماً بضرورة مشاركة الجميع بفريضة الدفاع عن الوطن. فخزينة الدولة العراقية يومذاك ان لم تكن قادرة على توسيع جيشها الا عن طريق اكراه الشباب للخدمة في الجيش بعد ان لم تستطع توفير العدد اللازم عن طريق التضليل باسم خدمة الوطن. ففي مفاوضات ياسين الهاشمي، رئيس الوزراء، في آذار ١٩٢٥، مع الجانب البريطاني اظهر رغبة الحكومة العراقية في تطبيق التجنيد الاجباري لتفادي الاعباء المالية وبناء جيش كفوء متكامل. وقال في المذكرة التي اعدها بوصفه وزيراً للمالية في وزارة ناجي السويدي عام ١٩٢٩: «ان الجيش في حالته الحاضرة عاجز عن القيام بمهمة درء الاعتداء الخارجي ونفقاته باهضة، فبناء عليه يقتضي جعل الجيش على قاعدة التجنيد الاجباري». وعملت وزارة عبد المحسن السعدون الرابعة على سن قانون التجنيد الاجباري، بأسم مضلل، (قانون الدفاع الوطني)، وكان من اجل «الدفاع ضد التجاوز الخارجي وحفظ الأمن الداخلي» كما ورد نصاً في مشروع القانون.

حشيت ادمغتنا منذ الصغر بأن الجيش سياج الوطن الغالي يذود عن حياضه ضد المعتدي الاجنبي الغاشم. الجيش العراقي له من العمر خمس وسبعون سنة. فضد أي معتد اجنبي اثيم قاتل دفاعاً عن تربة الوطن؟ اول مرة كانت في مايس ١٩٤١ بالاصطدام مع قوات الانكليز في الحبانية والشعيبة مدة ثلاثين يوماً فلم يصمد الجيش في القتال وفر قادته الى ايران لكنهم سلموا لحكومة نوري السعيد فاعدمت العسكريين لاشتراكهم في تلك الحركة. صار لحركة مايس موضوعياً دور وطني في النضال ضد السيطرة البريطانية رغم ان الحركة قد تكون في اطار الصراع على السلطة التي

احتكرتها مجموعة نوري السعيد، وهو ضابط ايضاً. وكانت مجموعته قد ابعدت قبيل ذلك رشيد عالي الكيلاني الذي كان رئيساً لمجلس النواب فالتف حوله «العقداء الاربعة». وفي عام ١٩٤٨ زجت الحكومة بالجيش العراقي في الحرب الفلسطينية الاولى. ورغم النوايا الصادقة لضباط وجنود الجيش العراقي الا ان ايديهم كانت مغلولة، ومنهم تعلم الفلسطينيون المفردة العراقية (ماكو: ماكو اوامر) وفي معارك ايلول الاسود لم يتمرد الضباط العراقيون بل نفذوا الاوامر بالانسحاب. وهكذا مثلما تضرر الفلسطينيون من: (ماكو) اوامر عام ١٩٤٨، تضرروا عام ١٩٦٨ من (اكو) اوامر.

لم يقع على العراق حتى الثمانينات اعتداء اجنبي ليثبت الجيش قدرته للذود عن حياض الوطن. لكنه ابلى (بلاء حسناً) في الدور الذي اعد له اساساً ألا وهو مهمة قمع الحركات الداخلية المعارضة للحكومات القائمة إن عجزت قوات الشرطة عن ذلك. فكان الضرب المتكرر للحركة الكردية وللتمردات في الفرات الاوسط وضرب الآثوريين. ففي انتفاضة سوق الشيوخ تموز عام ١٩٣٥ اضطرت الحكومة الى اشراك الجيش فأرسلت اربعة افواج لاخمادها.

ورغم توجيه القوى الوطنية النداء الى «الجنود الشجعان: لا تنصاعوا الى خداع الحكومة واوامرها وقادتها... انهم يخدعونكم ويدفعونكم لمقاتلة اخوانكم وآبائكم وابناء وطنكم... التحقوا بصفوف الثورة» الا ان الفلاحين ذوي البزة العسكرية وقفوا ضد اخوتهم من فلاحي الفرات الاوسط، فبأمر من وزير الداخلية وبأشراف رئيس اركان الجيش بكر صدقي «قام الجيش العراقي بحملة شعواء احرقت البيوت وقطعت الاشجار. وابعد رؤساء العشائر المشتركين وفرض الغرامات النقدية على الثوار وجردهم من السلاح... وألقي القبض على جميع الموظفين والاهلين الذين لهم علاقة بالثورة وسيقوا الى المجلس العرفي العسكري» كما ورد في «تاريخ الوزارات العراقية» للاستاذ عبد الرزاق الحسني (ج٤، ص٢٢٥). قد يكون فيما كتبه الاستاذ الحسني هنا اشارة خفية الى تناقض هذا السلوك مع ما يفترض من سلوك جيش مسلم، فهو قد يذكر هنا بوصية الخليفة الاول ابي بكر الى جيش اسامة بن زيد: «لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلة ولا تقطعوا شجرة مثمرة».

وهكذا كان الجيش زمن الحكم الملكي اداة قمع المعارضة عندما يشتد ساعدها، مثلا بعد وثبة كانون ١٩٤٨ وبعد انتفاضتي تشرين ٥٢ و٥٦ اذ اعلنت الاحكام العرفية وراحت طواحين مجالسها العرفية العسكرية ترسل

المناضلين الى السجون افواجاً افواجاً. كما كان اغلبية رجال الحكم الملكي ضباطاً في الجيش العثماني. وفي جيش الملك فيصل خلعوا البزة العسكرية لا ذهنية العسكر، ذهنية الخنوع لذي الرتبة الاعلى، ولو بخيط واحد فقط، باسم الضبط العسكري، والتفرعن على ذي الرتبة الادنى، واحتقار المدني. كانت مقدرات العراق طيلة سنوات الحكم الملكي بيد العسكر من ضباط الجيش (العصملّي) سابقاً. فنوري السعيد وجعفر العسكري وتحسين العسكري وجميل المدفعي وطه الهاشمي وياسين الهاشمي ومولود مخلص وعلي جودت الايوبي ضباط سابقون. يشير الدكتور عبد الأمير علاوي (في ندوة «العراق والمستقبل الديمقراطي» في ديوان الكوفة في لندن يوم ٢٩/٤/ ١٩٩٥) الى ما قاد اليه توسيع الجيش: «ان الجيش كان يتحين الفرص لفرض نفوذه بعد ان ازداد عدده ونما سلطانه فانتهز فرصة ثورة الآثوريين عام ١٩٣٣ لقمعها بكل قسوة.. وكان ذلك نقطة تحول في تاريخ العراق وتسلط الجيش على الحكم وغياب الدستور والاستهتار بالقوانين وتزييف الديمقراطية» وعدد الدكتور علاوي المناسبات التي تدخل فيها الجيش في السياسة بعد ذلك في سنوات ٣٤، ٣٥ (الفرات الأوسط)، ٣٦ (انقلاب بكر صدقي)، ٤١ (حركة رشيد عالي الكيلاني) دون ان يشير الى استخدامه ضد الانتفاضات الوطنية الأخرى ابان الحكم الملكي. وجمهورية ١٤ تموز ١٩٥٨ قامت بانقلاب عسكري ساندته جبهة الاتحاد الوطني ولكنها بقيت دكتاتورية عسكرية فردية. وقام انقلاب ٨ شباط ٦٣ ايضاً بالاعتماد على قطعات الجيش وشارك في التحضر له رئيس مجلس السيادة ايام قاسم الفريق الأول نجيب الربيعي. وهكذا انتقل الحكم بانقلاب شباط ٦٣ الى ثلة عسكرية أخرى (عبد السلام وعبد الرحمن عارف واحمد حسن البكر وطاهر يحيى وناجي طالب). وفي ١٧ تموز ١٩٦٨ قام آمر حرس القصر الجمهوري بخيانة سيده فسلم مفاتيح القصر لثلة أخرى من الانقلابيين العسكريين فتشكل «مجلس قيادة الثورة» من العساكر: احمد حسن البكر، صالح مهدي عماش، حردان التكريتي، حماد شهاب، سعدون غيدان. ومعروف ما قام به «الجيش العقائدي» ضد الحركة الكردية التي لم يشفع لها وقوفها لجانب الانقلاب ضد حكومة قاسم في البداية. فشنت الحرب ضد الاكراد. واعطى صدام نصف شط العرب واراضٍ عراقية الى شاه ايران ليتخلى عن مساندة الحركة الكردية. اشعل الحرب ضد الجارة ايران وخلالها قصف مدينة حلبجة بالغازات السامة ونفذ جريمة «الانفال». وتخلى عن اراضٍ عراقية للسعودية وسمح للاتراك باستباحة الحدود العراقية. ودمرت البصرة وضربت النجف

وكربلاء دون احترام لحرمة العتبات المقدسة، وجففت الاهوار. كل هذه الاعمال وغيرها قبل بها الجيش العراقي ونفذها، وما كان له الا التنفيذ فهو قد اوجد ودرب وروض افراده من اجل تنفيذ الاوامر خير اداء.
منذ تأسيس الدولة العراقية وحتى ١٤ تموز ١٩٥٨ كان الحكم اساساً بين عسكريين خلعوا الخاكي وجعلوا الجيش اداة ضغط لتداول السلطة فيما بينهم واداة قمع ضد القوة الوطنية، باسم حماية الامن الداخلي. وبعد ١٤ تموز قاد الدولة عسكريون تدرجوا في سلك الجيش من عبد الكريم قاسم الى العارفين فالبكر ثم تولاها رسمياً «الفريق الركن» فيما بعد «المهيب الركن» ابو قادسية صدام وأم المهالك. ومنذ القادسية وبدلة الخاكي تغطي شاشة التلفزيون والصفحات الاولى لصحف النظام. حلم كل عسكري بحكم المهنة، وحلم كل مهووس بجنون العظمة هو «تضخيم الجيش وتكثير العتاد وان تكون عدته وعدده يتناسبان وما للبلاد من ماض عسكري وما لها من طموح الى المجد... وان تسود البلاد بدلات الخاكي وتضبط بقرقعة السلاح... «تطميناً لرغائب الأمة» هذا كان طموح ياسين الهاشمي كما عبر عنه في مذكرة بتاريخ ١٣ تموز ١٩٣٤. ثم تحقق حلم الهاشمي على يد صدام. اذا كان الهاشمي حقق فرحته برؤية فتيان العراق يحملون رماح الكشافة فصدام جعل جيش العراق يعتبر رابع جيش في العالم. المدفع العملاق كلف مليارين من الدولارات قبل ان يكمل صنعه ثم رضخ صدام لتدميره وفق قرارات الامم المتحدة. صواريخ الحسين والعباس، الاسلحة الجرثومية والكيمياوية، القنبلة الذرية التي باتت قاب قوسين أو ادنى من التصنيع، مليون شخص يلبسون الخاكي الرسمي، عشرات المليارات المصروفة على شراء الاسلحة، وما حققته من الملايين عمولات ورشاوي في المانيا وحدها، دولة القانون، التي يزدهر فيها اقتصاد السوق الحر (قل اقتصاد السوق الحر ولا تقل الرأسمالية!) والتي احتلت عام ١٩٩٤ المرتبة الثانية عالمياً في تصدير الاسلحة، ففيها تعتبر الرشاوي المدفوعة عل شكل عمولات للمتنفذين في الدولة المستوردة من تكاليف الشركات المجهزة.
هناك اعداد ليست بالقليلة في صفوف الجيش، ضباطاً وجنوداً، يتمتعون بالروح الوطنية والاخلاص للشعب والاستعداد للتضحية في سبيل الوطن. لكنه يبقى اداة رئيسية لتنفيذ المهمة التي اسس من اجلها، مهمة الحفاظ على النظام القائم وقمع الحركات الشعبية المعارضة للنظام (انظر المقابلة مع ثابت حبيب العاني في رسالة العراق عن قوة نفوذ الحزب الشيوعي في الجيش اثناء حكم قاسم ومع هذا صار الجيش نفسه اداة ضرب حكم قاسم

وما لحقه من تصفيات جسدية للشيوعيين).
فطابع الجيش لا يتحدد بنوايا وانحدار افراده مهما خلصت وانما يبقى موضوعياً اداة قمع لقوى الشعب ووسيلة لحسم الصراع على السلطة بين افراد الفئة الحاكمة. وهدفاً لقوى المعارضة لتحييده على الاقل من اجل الوصول لأخذ الدور في الجلوس على تخت الحكم من اجل اخذ النصيب في الاستحواذ على فضلة الانتاج بتعبير العالم الكبير علي الوردي. والرفيق المرحوم زكي خيري كان على كل الصواب في تشخيصه للجيش بأنه: «تأسس وفقاً لسياسة الاستعمار البريطاني واهدافه في استعماله كقوة بوليسية لقمع حركة الشعب العراقي التحررية... وتغدق الأموال والامتيازات على الضباط فتحولت الفئة العليا منهم الى برجوازية بيروقراطية من حيث نمط حياتها وايديولوجيتها والتحمت مصالحها مع مصالح الدولة... وعمد النظام الملكي الى ترسيخ الطائفية في الجيش العراقي فلم يفسح المجال للانتساب الى كلية الاركان والرتب العليا الا لعدد قليل من الشيعة فضلاً عن ترسيخه التربية الشوفينية لاستعمال الجيش لقمع تطلعات الشعب الكردي في التمتع بحقوقه القومية المشروعة... وجهد النظام الملكي في تحويل الجنود الى ادوات للطاعة العمياء بيد ضباطها لضرب تحركات الشعب وتطلعات جماهيره الكادحة... وتقاوم بوحشية تأثيرات الحركة الثورية على الجيش وتقمع أي بوادر للوعي الوطني والطبقي بالمحاكم العسكرية الصارمة والتوجيه الآيديولوجي المستمر الذي يعمل على تمويه جميع التناقضات الطبقية والتأكيد على ان الجيش منقذ الوطن.. ان كل الانقلابات المتوالية اعتمدت على نفس المؤسسة العسكرية دون ان تحدث فيها أي تغيير جذري بل عمدت على تقويتها وتعزيز اتجاهها المعادي للشعب... والجيش العراقي كمؤسسة كان ولا يزال اداة قمع بيد اعداء الشعب الكادح باستثناء فترات تفكك فيها الضبط العسكري الوظيفي التقليدي... بقي الجيش (عهد عبد الكريم قاسم) كجهاز اميناً على تقاليده العسكرية الرجعية المعادية للشعب الكادح وللديمقراطية والشيوعية وبقي اداة صماء بيد كبار الضباط والطبقات الحاكمة رغم ان مزاج جماهير الجنود والكثير من ضباط الصف وفريق من صغار الضباط كان معادياً للرجعية... فالجيش العراقي القائم هو دعامة الانظمة الدكتاتورية والطبقات المالكة في العراق. «دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي». ولعل شهادة الضابط المتقاعد محمد حسن الطريحي احد الذين خبروا المؤسسة العسكرية من داخلها ابلغ شهادة، فهو قد شارك في قمع حركات سوق الشيوخ عام ١٩٣٥، وشارك في انقلاب بكر صدقي

عام ١٩٣٦، وكان من جماعة الاهالي، واشترك في حركة الكيلاني عام ١٩٤١ حيث احيل بعدها على التقاعد، لكنه بقي على صلة بجماعة الأهالي. فعن اشتراكه في ضرب الجيش لحركة (انتفاضة) سوق الشيوخ يذكر انه لما علم ان اسمه ورد في قائمة بأسماء الضباط الذين ساهموا في قمع الحركة لمنحهم نوط الشجاعة ونوط الخدمة ذهب الى الضابط المسؤول وقال له (كما جاء في مذكراته التي نشرتها مجلة الموسم، الصادرة عن اكاديمية الكوفة في هولندا في اعدادها ١٤، ١٥، ١٦): «طلبت شطب اسمي من القائمة وقلت انني لم اقم بأي عمل من اعمال الشجاعة التي استحق عليها هذا النوط، كما انه لا يشرفني تعليقه على صدري في قتال ابناء عمومتي وخؤولتي لاغراض سياسية محلية بحتة، ولو كان هذا النوط ممنوحاً لي في قتال اعداء الأمة والوطن وهم المستعمرون والطامعون في هذا البلد لكنت أتشرف به، وحتى نوط الخدمة لا اعتبره خدمة للوطن بل خدمة لحفنة من الساسة الذين اشتروا الوطن وباعوه» (ص٢١٣ عدد ١٤).

ولكنه رغم موقفه الوطني الصادق ورغم كونه من جمعية الاصلاح الشعبي، قام بتنفيذ الاوامر الصادرة اليه وصوب نيران مدافعه بدقة الى اهدافها امتثالاً للضبط العسكري الذي هو لدى العسكري فوق كل شيء ساعة الساعة. ويكتب عن بكر صدقي قائد انقلاب عام ١٩٣٦، والذي عرفه عن كثب اذ كان الطريحي من اعضاء جمعية الاصلاح الشعبي ومن جماعة الاهالي وطلب من وزارة الدفاع اجازة لمدة اربعة اشهر ليتفرغ للعمل السياسي بعد نجاح الانقلاب، يكتب قائلاً: «والحقيقة ان بكر صدقي كان كل شيء فهو الحاكم الحقيقي للبلاد ويسير الامور على طريقته العسكرية كما يفعل الضباط عندما يستلمون السلطة، وقد عطل الوزارة وشل عملها وصار دكتاتوراً لا يطاق» (الموسم ص٣٩ عدد ١٥). ويؤكد في حديث له مع كامل الجادرجي يوم كان في السجن قبيل ثورة ١٤ تموز: «انا لست من مؤيدي تدخل الجيش في السياسة لانه يصبح حزبياً سياسياً مسلحاً ومعنى ذلك سيطرة الدكتاتورية العسكرية والقضاء النهائي على الديمقراطية» (الموسم ص٧١ عدد ١٦).

هكذا كان الجيش وسيبقى يؤدي نفس المهمة حتى وان تغيرت الفئات الحاكمة، يقدم الامتيازات لفئة من الضباط وينقذ اعداداً كثيرة من البطالة ويؤدي مقابل ذلك واجبه في الدفاع عن سلطة الفئة الحاكمة، لا الدفاع عن الوطن كما يوهمون الناس المستضعفين في الارض ويضللونهم فمن اين للمستضعف وطن؟ لماذا لا يعرف المستضعفون والكادحون ولا يستوعبون

قول الامام علي بن أبي طالب «الفقر في لوطن غربة»؟ ومن اين لهم ذلك ووسائل التضليل والتمويه، المسماة وسائل التوجيه والاعلام، بيد الحاكمين يعمل لهم فيها مثقفون باعوا انفسهم ليشتروا متاع الدنيا؟ فالتضليل متواصل للمرء منذ التنويمة الاولى للطفل تهدهده الأم الحنون وترضعه «حب الوطن» وان يموت في سبيل الحفاظ على ما استحوذ عليه سراة القوم والمسرفون من كده وتعب الآخرين، الى المدرسة ومناهجها. كنت مثل غيري اقرأ في المدرسة دون ان ادرك بعد ما علي حفظه. لم اكن قد رأيت الملك بعد فلم يكن هناك تلفزيون ولم تكن الصحافة متقدمة سنوات الحرب العالمية الثانية.

يشير الرفيق زكي خيري في الكتاب نفسه الى ان مسألة تكوين جيش يدافع عن الاستقلال الوطني اصبحت من النقاط الاساسية في النضال التحرري ضد الهيمنة الامبريالية والى سعي حركة الضباط الاحرار لجعل الجيش اداة لحماية الشعب وحقوقه العادلة. لقد حققت ثورة ١٤ تموز تحرير جيش العراق من التبعية الاستعمارية وتنوعت مصادر تسليحه واوصله صدام للمرتبة الرابعة بين جيوش العالم وللمرتبة الثانية بين مستوردي الاسلحة ولربما المرتبة الاولى في العالم في نسبة النفقات العسكرية من اجمالي الدخل الوطني، الامر الذي صار مفخرة القوميين العرب سواء منهم من ارتدى عباءة الاسلام أو حمل شعارات اليمين او تلفع برأية اليسار الحمراء فتناسوا دكتاتورية صدام وصدقوا كذبة أن تحرير القدس يمر عبر تحرير عبدان وان غزو الكويت اشارة القضاء على اسرائيل، لكن الواقع بين أن الجيش، رغم المشاعر الوطنية لكثير من منتسبي الجيش لم يحقق، كمؤسسة، لا الدفاع عن الوطن ولا تحرير فلسطين ولم يصبح اداة لحماية الشعب وحقوقه العادلة رغم تحرره من التبعية للاستعمار ورغم ضخامة تسلحه.

ومع ذلك تسعى اطراف المعارضة بشتى فصائلها الى طرح مهمة جعل الجيش في خدمة الشعب لا لخدمة اطماع الساسة. دخول جمل خرم ابرة اسهل من دخول غني الى الجنة، ومع هذا فدخول الاغنياء للجنة اسهل من خلق جيش يحمي الشعب ضد الطغاة والبغاة: ان حلم تحقيق الشيوعية اقرب للمنال من طاوباوية تحويل الجيش لحماية الشعب ولكن هذا لا يعني ان من الممكن الاطاحة بالنظام دون العمل لكسب منتسبي الجيش للتخلي عن النظام الآيل للسقوط، ومن اجل حقن دماء الآلاف من ابناء الشعب مدنيين وعسكريين، لربما يجب التفكير حتى بعقد صفقة تضمن لصدام حياته

ليخرج من العراق دون اغراقه بمزيد من الدماء. فضمان عدم اراقة دماء جديدة وعدم التسبب في دمار آخر افضل بكثير من التفكير بأطفاء شهوة الثأر والانتقام للدماء التي أغرقت البلاد نتيجة سياسة صدام.

الجيش اداة اتلاف الثروة الوطنية

الانفاق العسكري تبديد رهيب للثروة الوطنية، فقد بلغ ارقاماً خيالية منذ كان الدينار ديناراً وقبل ان يهوي الى الحضيض. فقد بلغ الانفاق العسكري (كما جاء في مقالة لنضال الليثي في جريدة الحياة ليوم ٧ ايلول ١٩٩٥) في اعوام ٨١، ٨٢، ٨٣ على التوالي ٦ر٢٤ – ١ر٢٥ – ٣ر٢٥ مليار دولار. بينما كانت ايرادات النفط للاعوام الثلاث المذكورة ٤ر١٠ و١ر١٠ و٨ر٧ مليار دولار فقط. الامر الذي يعني ان الانفاق العسكري تجاوز ايرادات النفط عدة اضعاف، اذ وصلت نسبة الانفاق العسكري الى ايرادات النفط خلال الاعوام المذكورة ما يعادل ١ر٢٣٦ و٥ر٢٤٨ و٤ر٣٢٤ بالمائة. ولا بد ان تكون هذه الارقام دون الحقيقية فعلاً لما تحاط بها من سرية، خاصة في سنوات الحرب. ونشرت الصحف مؤخراً عن صفقة لشراء ٤٠٠ دبابة من روسيا بمبلغ قدر بين ٢ الى ٣ مليارات دولار تتم بعد رفع الحصار. وكما اسلفنا فان صنع المدفع العملاق كلف قبل ان يكمل، ملياري دولار. وضخامة الانفاق العسكري ليس حكراً على زمن صدام وحده بل ساد في كل عهود الدولة العراقية. ففي تقرير لياسين الهاشمي عن الوضع الاقتصادي وضعه عام ١٩٢٨ عندما كان وزيراً للمالية ذكر ان ما استورده العراق من الرز الهندي بلغ ٥٢٩ ألف روبية ومن الطحين ٢٢٧ ألف روبية واعتبر خروج هذا المبلغ الجسيم خسارة لا مسوغ لها، لكنه لا يتحدث بنفس المنطق عن مصروفات الجيش، فهو يذكر ان مصروفات البسة الجيش وحدها بلغت ٩٨٣ ألف روبية، ومصروفات ألبسة الشرطة ٥٩١ ألف روبية، ومصروفات شرطة السجون ٦٥ ألف روبية. ورغم ان استيراد ملابس الخاكي وحدها تجاوزت ضعف المبلغ «الجسيم» الذي انفق على استيراد المواد الغذائية الاساسية للناس يعلن الهاشمي: «ان المواد الاولية للاقمشة متوفرة في البلاد، فتشجيع طفيف من الحكومة يمكن بواسطته الحصول على ملابس الجيش من الاقمشة الوطنية، وبالتالي يمكن ادخار هذه المبالغ في البلاد». ومن ميزانية عام ١٩٣٥ التي بلغت ٤٧٢٨٧٨٠ دينار خصص للجيش ٢٥٩٦٧٢٠ ديناراً فيما بلغت ميزانية الري ٩٧٦٥٠٠ ديناراً ومخصصات الخدمات

الاجتماعية والصحة ٧٤٦٠٠٠ ديناراً، أي ان حصة الجيش تقارب ٥٥٪.
وكثير من مشاريع مجلس الاعمار ابان العهد الملكي كان مخصصاً لاغراض عسكرية، ويشير الطريحي في مذكراته عن اصدار عبد الكريم قاسم بعد ثورة تموز ١٩٥٨ لقانون اعيد بموجبه الضباط المحالون على التقاعد لاسباب وطنية الى الجيش ومنحهم رتبتين وعين بعضهم في وظائف مدنية فصار الراتب التقاعدي لاحدهم نتيجة هذا القانون ٢٢٠ ديناراً بعد ان كان ١٨ر٥ ديناراً. ولا بد ان عدد المتقاعدين العسكريين وخاصة بفضل سياسة «القائد الضرورة» يشكل جيشاً يفوق جيوش بعض الدول عدداً ولربما من حيث النفقات ايضاً.

ان الجيش، وكما اثبت هذا تاريخ الجيش العراقي ايضا، هو مؤسسة قمعية مهمتها - بغض النظر عن النوايا الشخصية الطيبة والخيرة للكثير من منتسبيه - هي القيام بحماية سلطة الحاكمين الذين ينهبون اموال البلاد بصورة «شرعية»: الرواتب الضخمة والمخصصات والميزانيات الخاصة، السرية منها والعلنية، وبصورة غير شرعية: الاختلاسات والرشاوى و«الهدايا» وفرض الحصص والاتاوات على المقاولين، والقيام بعمليات غزو خارجية اشباعاً لرغبة الحاكمين وتحقيقاً لاطماعهم. ومن اجل ضمان قيام الجيش بهذه المهمة يصرف عليه، تسليحاً ونفقات، مبالغ طائلة. وفي الفترات التي لا يؤدي فيها مهماته الفعلية في قتل الناس بألعاب باهضة الكلفة تسمى تمارين ومناورات وفرضيات. وغالباً ما تستبدل هذه اللعب من طيارات ومدافع ودبابات وكثير غيرها من المعدات العسكرية الأخرى بأسم التحديث.

عراق بعد صدام والجيش

أياً كانت الحسابات والتقديرات والسيناريوات فان صدام زائل لا محالة. لكن ذكره مقروناً باللعنات سيبقى شاخصاً لفترة طويلة، على الاقل حتى ازالة آثار الدمار المادي الذي حل بالعراق نتيجة حكمه البشع. ويقدر الاقتصاديون ان العراق بحاجة الى عشرات السنين، كي يعود باقتصاده الى مستوى عام ١٩٦٠. تبلغ قيمة الخسائر التي لحقت الاقتصاد العراقي، حسب تقديرات الدكتور عباس النصراوي، اكثر من ٦٠٠ مليار دولار، أي ما يزيد ستين مرة على القيمة الحقيقية للناتج المحلي الاجمالي لعام ١٩٩٣، وهذه تشمل قيمة ما دمرته حربا الخليج، وتعويضات الحربين، والديون الخارجية. ويجب ان تضاف ايضاً نفقات لجان التفتيش للأمم المتحدة التي

ستبقى لفترة طويلة تراقب تقيد العراق بتنفيذ القرار الخاص بتدمير اسلحة الدمار الشامل من نووية وجرثومية وكيمياوية. ويرى د. النصراوي «ان مستقبل العراق الاقتصاد ي سيكون قاتماً حقاً خلال العقود القادمة ما لم يجر ارجاء، اعادة جدولة، تقليص آو شطب المطالب المالية الخارجية آي تعويضات الحرب والديون الاجنبية» والامر الاقرب للمنطق وواقع السياسة يقول ان مصلحة دول الجوار وكذلك مصلحة امريكا هي في ابقاء العراق ضعيفاً اقتصادياً. واطالة وضعه القائم.
ان جسامة الجهود والمواد اللازمة لاعمار العراق وتسديد الاستحقاقات المفروضة عليه تتطلب وضع اوليات تضمن توفير الحد الادنى من الضرورات المعاشية والصحية والتربوية ومكافحة الفلتان الامني وتزايد جرائم السلب والنهب والقتل والاختلاس المستشرية والمتزايدة باستمرار. حسب تقديرات الامم المتحدة يتهدد الموت جوعاً حيات مليون عراقي، واكثر من ٤ ملايين يعانون من سوء التغذية وتفتك الامراض بعشرات بل بمئات الآلاف من الناس وتفشي اوبئة نتيجة الدمار الذي حل بالمؤسسا ت الصحية امر متوقع في كل حين. ومن غير الممكن ابداً ضمان توفير هذه الاوليات الاساسية اللآزمة لحياة الناس مع استمرار اهدار الموارد على ادامة جيش في العراق. ان كل دولار واحد يصرف على طلقة واحدة هو سلب وجبة ارضاع من رضيع مشرف على الموت جوعاً، هو قتل متعمد، والموافقة على هذا الاهدار هو مشاركة في القتل العمد. تعمير جزء صغير من منشأة عسكرية واحدة هو تأجيل تعمير غرفة عمليات في مستشفى، كسوة امير لواء واحد تكفي (اكساء عشرات اطفال الاهوار الذين تشردوا نتيجة تجفيف الاهوار أو اطفال كردستان الذين يتمتهم جريمة الانفال، جزء طفيف من صفقة شراء الدبابات التي عقدها نظام صدام مع روسيا تكفي لاصلاح ما خربته الحرب من منشآت النفط التي بدونها لا يمكن للعراق ان ينهض ثانية. ولكن من غير المنطقي'حرمان الجيش من مستلزمات وجوده من عدة وعتاد ورجال دون التفكير بمسألة وجوده اساساً، وما يكلف هذا من نفقات يحتاجها البلد اشد الحاجة لتدبير مستلزمات الحفاظ على الملايين من خطر الموت جوعاً أو مرضاً وتأمين حد ادنى من حياة تليق بالانسان، حياة بدون توفرها يصبح كل حديث عن حقوق الانسان لغوا باطلاً ورداءً يستر به الحاكمون الجدد مواصلة نهب ثروات الشعب لمصلحتهم ومصلحة ذويهم وانصارهم.
ان التوجه الجاد والفعلي لاعادة اعمار عراق ما بعد صدام يجب ان يكون

بالضرورة على حساب الجيش. فلا اهدار دولار واحد على شأن عسكري وطفل واحد من اطفال العراق يتهدده الموت جوعاً أو مرضاً. ولأي سبب ينبغي اعادة تسليح الجيش والابقاء عليه؟ اكتب على اهل العراق الحرمان والهلاك من اجل حماية التيجان؟ وهذه هي مهمة الجيش الفعلية كما راينا. أم كتب عليهم التصفيق لثياب الملك الجديدة المسماة الدفاع عن الوطن؟ هل ستر النسيان اختراق طائرة اسرائيلية اجواء العراق وقصفها المفاعل الذري؟ لعل ما بقي في الذاكرة فقط ما ورد في البلاغ العسكري العراقي من ان طائراتنا الظافرة اجبرت طائرة العدو الصهيوني على الفرار. كأنه كان على الطائرة الاسرائيلية ان تبقى معلقة في سماء العراق بعد قصف المفاعل وليس ان تفعل ما تفعله طائراتنا الظافرة: العودة سالمة لقواعدها بعد انجاز مهمتها! ولم يستطع الجيش في حرب الخليج الاولى لا استعادة ما وهبه صدام للشاه من ارض العراق ومياهه، ولا الاحتفاظ بما اسماه الحقوق المضافة. وفي حرب الخليج الثانية لم يستطع حماية العراق من التدمير الذي ارجع العراق قروناً للوراء، وذلك رغم كل مئات المليارات من الدولارات التي صرفت عليه وجعلت عرب المرابد يتفاخرون به كرابع جيش في العالم. وما كان نفع ذلك؟ يقول المثل العراقي: (ان ابو العورة يبين عند العبور). وقد انكشفت العورة، لكننا لا نريد ان نقر بما رأته اعيننا بل نريد تصديق ما ملئت به آذاننا من اوهام واحلام عن الجيش.

في مقابلة الدكتور النصراوي مع الثقافة الجديدة المنشورة في عدد ٢٦٠ ايلول ١٩٩٤ «الوضع الصحي والمعاشي والتربوي ينبغي ان تكون له الاولوية بعد الحرمان الطويل» ويدعو باستحياء ربما بنوع من الوجل، اذ ان ما يدعو اليه مس بواحد من قدس الاقداس، بواحد من الاغلاط التي صيرتها كثرة الترديد واحدة من الحقائق، انه يدعو الى امكان اهمال: «بعض المنشآت المهدمة مثل المنشآت العسكرية التي لا حاجة اليها في عراق مسالم». لكنه وربما لبعض هذا الوجل لا يتعمق أو لا يفصح عما يعنيه مثل هذا الرأي في آخر المطاف ألا وهو: حل الجيش. ان اسلحة الدمار الشامل لا يحتاجها عراق مسالم بل هي محرمة عليه، وسيخضع العراق لسنين طويلة للرقابة في هذا الخصوص. ما هي الاصناف من الاسلحة التي يحتاجها العراق لاعادة تعميره؟ أيحتاج لمجموعة من صواريخ الحسين والعباس؟ أيحتاج لقوة جوية محدد مجالها الجوي؟ أيحتاج الى فرق الدبابات؟ أيحتاج الى صنف المدفعية وقد دمر المدفع العملاق قبل ان يصل المرحلة التجريبية؟ ان كانت ثمة مؤسسات في الجيش يحتاجها العراق المكتوب عليه

ان يكون مسالماً فهي فقط تلك التي لها علاقة بالشؤون المدنية وتحقيق الأمن الداخلي ومراقبة التهريب. ولهذه المهمات توجد حاجة للمنشآت الطبية العسكرية لتلحق بوزارة الصحة، وصنف الامور الهندسية يلحق بهيأة للاعمار، ودوائر التجنيد تلحق بهيأة الاعمار وتقوم بسوق «المجندين» للخدمة المدنية الالزامية في هيأة الاعمار الوطني، وبهذا توفر وتكثف الجهود والقدرات من اجل الاعمار ولا تبذر الاموال على حديد يصدأ أو يصهر قبل ادائه مهمته أو يؤدي مهمته في قتل ابناء الوطن كما جرى في كردستانه وحلبجة شاهد يجب أن لا ينسى، وكما جرى اثناء انتفاضة آذار/شعبان ٩١ وفيما بعد في الاهوار. صعب طرح مثل هذا الرأي وركام القرون الخوالي كله يقيد تفكيرنا ويجبرنا على تصديق ضرورة وجود جيش من اجل الوطن، وكذلك واقع «النظام العالمي الجديد» ذو القطب الواحد الذي يدين للقوة العسكرية لا للحق. ورغم هذا لا بد من الجهر بأن من غير الممكن اعادة تعمير العراق واعادة بناء الجيش في آن واحد. وهل يمكن مسك رمانتين موقوتتين في يد واحدة مشلولة؟ ان تحقيق ضرورة حل الجيش العسكري واقامة هيأة اعمار الوطن على اساس الخدمة المدينة الالزامية تحتاج الى توافر جهود كل الحريصين على مستقبل الوطن من مفكرين وسياسيين من عسكريين أيضاً يضعون مصلحة العراق فوق المصلحة الشخصية. اما مسألة حماية أمن العراق من عدوان خارجي فينبغي العمل من اجل ان تكون ضمن نظام أمن شرقأوسطي وخليجي ويتكفل مجلس الأمن الذي فرض القيود على عراق الغد ضمانه. آن العراق، بتقديرات الدكتور فاضل الجلبي، سيستدين ليأكل. أفليس من الكفر والحرام ترك فرد جائع واحد يموت بسبب انفاق ما يكفي لقوته على عتاد عسكري ليصدأ ويستبدل بأحدث منه بعد حين.

لنتذكر رائعة السياب «الاسلحة والاطفال» فهو لم يخصص الاسلحة الامبريالية والرجعية فقط، بل الاسلحة عموماً:

لمن المدافع والرصاص
وبأي قلب في غد
ستغوص اطراف الرماح .
الاجلنا؟
انا نطالب بالسلام.

المانيا ١٩٩٥/٩/٢٠

ملاحظات حول الجيش والديمقراطية

لطفي حاتم

تحتل المؤسسة العسكرية مركزاً مقرراً في السلطة السياسية، وفي تحديد وجهة التطورات الاجتماعية، في العديد من البلدان. ولهذا تولي الحركات الشعبية اهتماماً متزايداً بها، وبالتطورات الحاصلة في توجهاتها السياسية، وبنيتها المراتبية والتكنيكية. ويتنامى الاهتمام بوظيفتها ودورها في عصر الهيمنة وغلبة القطب الواحد في العلاقات الدولية. في محاولة لرصد التغيرات الجارية في جيوش بعض البلدان العربية عمدت الى اثارة الملاحظات التالية:

من المعروف ان اغلبية الجيوش العربية نشأت بفعل عوامل خارجية، حيث ارتبط نشوؤها بظهور الدولة الوطنية - كجهاز ملازم لها - برعاية ودعم من الدول الكولونيالية، وتبعاً لذلك، اكتسبت الجيوش المشار اليها خصائص جيوش الدولة الاستعمارية، من حيث نمط بنائها - المراتبية، والانضباط الشديد، والتدرج المهني - أو تركيبها النفسي - التعالي والغطرسة لدى اغلبية كادرها القيادي، والخضوع والقهر لقاعدتها الاجتماعية.

ورغم انعزالية وقسوة حياة الثكنة العسكرية، الا انها لم تكن بمعزل عن التطورات السياسية، حيث تأثر منتسبوها وبدرجات متفاوتة بالصراعات الوطنية والقومية. واتخذت تلك التأثيرات اشكالاً متنوعة، بدءاً بالتمردات المنعزلة وانتهاءً بالانقلابات العسكرية المرتبطة بالحركة الوطنية والديمقراطية.

وفي تطور لاحق، وبفعل تدخله في الحياة السياسية، ظهر الجيش كحامل للتغييرات الاقتصادية والاجتماعية، التي اتسمت بازدواجيتها المعبرة عن

مصالح فئات اجتماعية متنافرة، مما ولّد الوهم بحيادية الجيش ازاء الصراعات الاجتماعية والتحالفات الدولية.
ورغم سعة التأييد الذي حظيت به المؤسسة العسكرية من فئات اجتماعية متباينة، وشعارات التعويم الطبقي لسلطتها السياسية، الا ان ذلك لا يخفي حقيقة الانتماءات الطبقية لشبكة الطاقم القيادي ومزاجه الموالي لهذه الشريحة الاجتماعية أو تلك. خلاصة القول ان أهم خصائص توطد الدولة الوطنية تجلت في ظهور الجيش كقوة سياسية حاملة لتحولات اقتصادية – اجتماعية سائبة التطور، وبذات الوقت قوة لاديمقراطية اشاعت انضباط الثكنة العسكرية على كامل الحياة السياسية، في البلاد التي قيض لها استلام سلطة الدولة فيها.

تعديل الوظيفة الطبقية

لقد أدت التطورات التالية الى تقليص كبير في ثنائية السياسة الاقتصادية التي انتهجتها سلطة العساكر – التي اتسمت برعاية مصالح طبقية مختلفة – بمقدار نمو وتطور الشرائح الاجتماعية الجديدة وتأثيرها على سياسة سلطة الدولة، حيث تمكنت البرجوازية البيروقراطية من اغراء العديد من ضباط الجيش، ودفعهم للمشاركة بالأنشطة الاقتصادية المختلفة، مما وفر الارضية لاحقاً لنشوء تحالف متميز السمات بين الشرائح البيروقراطية المدنية والعسكرية، وتنامي قوتها السياسية والاقتصادية المرتكزة على احتكار الدولة للثروات الوطنية. وبهذه المرحلة من التطور تكتمل الهوية الطبقية للجيش باعتباره الدعامة الاجتماعية المنظمة والمسلحة لسلطة التحالف الطبقي السائد. وهنا لا بد من التنبيه الى ان العوامل الداخلية ليست هي وحدها التي ساعدت على سرعة التزاوج بين الفئات البيروقراطية المختلفة، بل كذلك العوامل الخارجية التي وفرت بدورها المناخ الملائم للكادر العسكري للاثراء من خلال سياسة توريد وتصنيع الاسلحة وارتباطاتها المتشعبة باحتكارات السلاح الدولية(١).
ولغرض تحديد الخصائص السياسية التي انتجتها مرحلة التزاوج لا بد من تحديد مواقع اطراف التحالف البيروقراطي في سلطة الدولة وتأثيرات ذلك على التوجهات السياسية والاقتصادية والدفاعية اللاحقة لهذا البلد أو ذاك.
لقد افرزت التجربة الماضية نموذجين على الأقل، في كيفية نشوء وتطور مواقع الهيمنة لهذه الشريحة البيروقراطية أو تلك، حيث تبلور النموذج الأول

في تغليب النزعة العسكرية على كامل التحالف البيروقراطي وذلك يعود الى عجز شرائح البرجوازية البيروقراطية المدنية عن بسط هيمنتها السياسية، بسبب طبيعة نشوئها الذي اقترن برعاية وحراسة الحراب العسكرية.
ولفحص هذه النمط على أرض الواقع نشير الى تجربة العراق، حيث تؤكد الوقائع خاصة بعد انقلاب ١٩٦٨ الى ان قيادة سلطة الدولة الارهابية، وبسبب ايمانها بالنزعة الانقلابية عمدت الى تفكيك، وتركيب الطاقم القيادي للمؤسسة العسكرية، واعادة بناء حلقاتها الوسطى بما يتماشى واعدادها كمؤسسة عقائدية. لقد اتخذت عمليات التفكيك والتركيب اشكالاً متعددة، بدءاً بعمليات التطهير الشاملة التي اقترنت بمكافآت مالية، ورواتب تقاعدية عالية (٢) مروراً بالعمل على ربط شبكة الكادر الوسطي بامتيازات واجواء الطاقم القيادي، وانتهاء بخرق قوانين الجيش في التعيين والتدرج المراتبي.
وتزامنت الاجراءات المشار اليها مع انشطة أخرى تمثلت في عسكرة منظمات الحزب الجماهيرية ودمج اغلبها في اجهزة الدولة المختلفة، الامر الذي اكسب بيروقراطية الدولة سلوكاً بوليسياً سرعان ما جرى رفعه الى سياسة رسمية للدولة، متجلية بإرهاب وحشي على النطاق الوطني ونزعة حربية على الصعيد الاقليمي.
اما النموذج الثاني فقد اتضحت علائمه في التجربة المصرية حيث البرجوازية الكبيرة واعتماداً على خبرتها التاريخية، اكتسبت هامشاً من المناورة - حتى بعد تأميم ملكيتها - في تعاملها مع الشرائح البيروقراطية الجديدة النامية في احضان الدولة، حيث نسجت معها علاقات واسعة وبالأخص مع تلك الفئات التي احتلت المواقع المفتاحية في سلطة الدولة، وجرتها الى المشاركة في الانشطة التجارية والصناعية. وقد وفّر هذا التحالف الهادئ للبرجوازية الكبيرة فرصة التأثير على الخطط السياسية والاقتصادية اللاحقة.
ان التحالف البيروقراطي مع البرجوازية الكبيرة في مصر، والذي برزت فيه الاخيرة كشريحة سائدة اقتصادياً، واثقة من بسط سيادتها السياسية - خاصة بعد تفكيك القطاع الحكومي وبيعه - يقدم تفسيراً مقنعاً لأسباب التخلص السريع من آثار الحقبة الناصرية ذات الألوان الاشتراكية واعتماد سياسة الابواب المفتوحة(٣).
بعد هذا العرض السريع لتزاوج فئات البرجوازية البيروقراطية واندماجها يطالعنا سؤال عن دور ووظيفة الجيش بعد انهيار عالم الثنائية واشتداد اشكال التبعية العسكرية؟ ولأجل ترصين الاجابة على السؤال المذكور، لا بد

من ملاحقة التوجهات الاستراتيجية للولايات المتحدة الامريكية في المنطقة ارتباطاً بظهور التعارضات بين الكتل الاقتصادية الدولية المختلفة(٤)، حيث توضح خبرة السنين الماضية ان مستلزمات الصمود امام منافسة الآخرين، وازالة الركود الاقتصادي وتخفيف نسب البطالة يتطلب من الولايات المتحدة الامريكية تطوير فرص استثماراتها وتشديد وتيرة استغلالها لثروات بلدان المنطقة العربية. ويعمل مفكرو البيت الابيض على استنباط اساليب جديدة لحل العقد الناتجة عن التوترات الاجتماعية، ليس في بلادهم وحسب، بل وفي تلك البلدان التابعة ذات المصالح الحيوية لأمنهم الوطني، ولذا يجري التفكير ومنذ زمن بعيد بتشكيل قيادات عسكرية موحدة، تكون عتبة لتأسيس جيوش فوق وطنية، خاصة بعد تطور العملية السلمية مع اسرائيل وانحسار الخيارات العسكرية العربية ضدها وتستمد هذه الميول واقعيتها من جملة عوامل اهمها:

اولاً: طبيعة التحالف الثلاثي القائم بين - الاحتكارات الامريكية والارستقراطية المالية الخليجية من جهة، وبين برجوازية الدولة البيروقراطية في بعض البلدان العربية من جهة أخرى. وتبرز قوة التحالف الثلاثي في جوانبه الاقتصادية والعسكرية التي ترتقي الى مستوى معاهدات دفاعية مشتركة.

ثانياً: السمات الفكرية والنفسية للارستقراطية المالية الحاكمة وللبرجوازية البيروقراطية المتمثلة في اغترابها عن المصالح الوطنية، توفر بدورها المناخ الآيديولوجي الملائم لتقليص الهموم الوطنية والقومية لدى الجيش وتقوي النزعات الكسموبوليتية في قيادته.

ثالثاً: تساهم التكنولوجيا العسكرية المتطورة في احداث تغيرات بنيوية في تركيب المؤسسة العسكرية، حيث يتزايد الاعتماد على الاصناف الحاسمة في الصراعات المحلية والاقليمية الامر الذي اضعف من فعالية الاصناف التقليدية - وما يجره ذلك من تقليص القاعدة الاجتماعية للجيش - وساعد على خلق الشروط المادية لنشوء قيادات فوق وطنية - خاصة في ادارة الازمات والمناورات - يحتل المواقع المقررة فيها جنرالات الولايات المتحدة وجمهرة الضباط المشرفين على ادارة واستخدام التكنولوجيا العسكرية المتطورة(٥).

ان تأشيرنا للميول الرامية الى تكوين جيوش فوق وطنية(٦) يدفعنا الى التساؤل ايضاً عن دور وحجم الوظيفة الداخلية للجيش ارتباطاً بتزايد القوى الاجتماعية المطالبة بالديمقراطية كشكل للحكم، ومعاقاة الحياة السياسية

من العسكرة والارهاب، ولهذا وانطلاقاً من احتدام التوترات الاجتماعية والسياسية من جهة، وعمق التناقضات بين المصالح الوطنية وبين مصالح الدول الرأسمالية المتطورة من جهة أخرى، فقد تبلورت في الآونة الاخيرة مشاريع ثلاثة بشأن طبيعة وشكل الحكم ومواقع المؤسسة العسكرية فيه.

يرتبط المشروع الأول بنظرية « التبعية المتبادلة» الهادفة الى تطوير التعاون بين الاحتكارات الامريكية من جهة والاسر الخليجية الحاكمة وبرجوازية الدولة البيروقراطية من جهة أخرى ورفعه الى تحالف استراتيجي يتماشى وسياسة الهيمنة على المنطقة وثرواتها الوطنية.

وتتبدى تفاصيل النظرية المذكورة في جانبها السياسي في ممارسة الضغط برفق على الحلفاء الاقليميين، وحثهم على انتهاج سياسة الترميم وديمقراطية التنفيس مع الابقاء على الجيش بعد تغريبه كقوة قمعية في مواجهة الحركات الشعبية(٧).

ويجد المشروع الثاني تعبيره بالدعوات الناشطة لممثلي البرجوازية الوطنية المطالبة بارساء الحكم على اسس ديمقراطية «موجهة» والكف عن سياسة العسكرة التي باتت تهدد المجتمع بانفجارات عديدة. وتدعو الاوساط المشار اليها الى تقاسم السلطة مع الضباط الوطنيين، حيث انها لا ترغب في حدوث هزات اجتماعية مثيرة للصراع، لذلك فانها تعمل على احداث تغييرات في شكل الحكم بمساعدة ملموسة من المؤسسة العسكرية – تتبدى هذه الميول بوضوح في العراق. ويبدو ان اشتداد دعوة ممثلي البرجوازية الوطنية الى الديمقراطية من فوق، تستند الى تضافر عوامل عديدة يتصدرها انهيار النموذج الاشتراكي من جانب، وخشيتها من النتائج المأساوية لمنظومة «التبعية المتبادلة» من جانب آخر.

ويظهر المشروع الثالث في الديمقراطية الوطنية، التي تطالب بقيام سلطة ديمقراطية تداولية، تعيد صياغة شكل الدولة بما يتناسب وموازنة المصالح القومية والوطنية. ويستند استقرار البلد وتطوره على حماية الجيش للمؤسسات الدستورية بعد اشاعة الديمقراطية في صفوفه كضمانة سياسية لمحاصرة النزعة الانقلابية.

ان نجاح معركة الحريات الديمقراطية، وكبح ميول التغريب والهيمنة على الجيوش العربية يتطلب انشاء حلف اجتماعي- سياسي متنوع الألوان السياسية والطبقية، الأمر الذي يدعو القوى الديمقراطية الى تطوير دعمها للاتجاهات الوطنية، والمشاعر الديمقراطية لدى البرجوازية الوطنية وعناصر التحالف البيروقراطي الراغبة في مغادرة معسكر الارهاب والتبعية والتغريب،

حيث يشكل هذا الدعم عتبة ضرورية لتطوير حركة شعبية ديمقراطية متعددة الروافد تمهد الطريق الى انشاء حكومة وطنية - خاصة في الدول الإرهابية - انتقالية يكون الجيش فيها ضمانة مادية وأمنية لعملية العبور الى دولة القانون ومؤسساتها الديمقراطية.

الهوامش

(١) في عام ١٩٧٥ انشئت المنظمة العربية للتصنيع الحربي برأسمال قدره ٤ ١مليار دولار. وضمت مصر، السعودية، قطر، الكويت، الإمارات العربية. وتصدر مصر سلاحاً بمبلغ ٢,٥ مليار دولار سنوياً يتوجه اغلبه الى دول الخليج. انظر د. صالح ياسر، العام والخاص في نزعات العسكرة في العالم العربي - النهج عدد ١٦-١٩٨٧.

(٢) عمليات الاقصاء والتبدلات جارية لحد الآن، وتشير المعلومات ان النظام الدكتاتوري دعا الكوادر العسكرية - المزاحة في فترات مختلفة - ذات النشاط الاقتصادي الى العودة للمؤسسة العسكرية بهدف توسيع قاعدة دعمه الاجتماعي.

(٣) تجلت هيمنتها السياسية في مطالبتها بالحياة البرلمانية، والتعددية الحزبية، بعد ان حررت الجيش من التزاماته القومية خصوصاً بعد توقيع معاهدة الصلح المتفرد مع اسرائيل.

(٤) الاحتكاكات بين الكتل الاقتصادية عديدة منها: التعارضات الامريكية - الاوروبية في منظمة الجات، والتعارضات بين امريكا واليابان حول الضرائب المفروضة على السلع الامريكية المصدرة الى اليابان.

(٥) في الحرب الخليجية الثانية ظهرت ولأول مرة قيادة عسكرية فوق وطنية، خططت، وقادت العمليات الميدانية لدحر القوات العسكرية العراقية الغازية.

(٦) ستهمل النتائج المترتبة على تشكيل مثل هذه القيادات والمتمثلة في انتهاك سرية الجيوش والتحكم في تسليحها وتحديد وظائفها الدفاعية وصولاً الى التدخل في الشؤون الداخلية.

(٧) لقد دلل قمع الانتفاضة الشعبية في العراق بعد عاصفة الصحراء على خشية الادارة الامريكية من تفكك المؤسسة العسكرية العراقية على غرار ما حدث للجيش الايراني أبان الثورة الاسلامية.

١٩٩٣/٥/٢٥

تجارة الموت

يؤكد آخر تقرير اصدره «المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية» في لندن ان الجيش العراقي يضم حالياً ٣٨٢ ألف رجل و٦٥٠ ألفاً من الاحتياط اضافة الى ٢٠ ألفاً من قوات حرس الحدود. ويملك الجيش البري نحو ٢٢٠٠ دبابة ومدرعة و٢٠٠٠ ناقلة جنود و١٥٠٠ قطعة مدفعية متنقلة و٢٥٠ قاذفة صواريخ. أما سلاح الجو فيضم ٦ قاذفات و١٣٠ طائرة قاصفة و١٨٠ مقاتلة و٥٠٠ طائرة هليوكوبتر، اضافة الى عدد غير معلوم من صواريخ ارض-جو وجو-جو.

غداة انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ كان تعداد الجيش ٨٢ ألفاً، أي ١٠ عسكريين لكل ألف من السكان. وعشية اشعال الحرب مع ايران ١٩٨٠ كان تعداده قد بلغ ٤٣٠ ألفاً، أي ٣٢٫٥ عسكرياً لكل ألف من السكان. وظل حجم الجيش يتضخم خلال الحرب حتى بلغ عام ١٩٨٧ حوالي المليون، أي ٦٠ عسكريا لكل ألف من السكان (عن فالح عبد الجبار: الدولة، المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في العراق – الجدولين ٣ و٤). فلولا التضخم الهائل للقوات المسلحة، ولولا كثرة ما تدفق اليها من مختلف انواع الاسلحة، ولولا ما انفقه النظام من المليارات على اقتناء المعدات والمواد اللازمة لانتاج الاسلحة، بما فيها اسلحة الدمار الشامل، هل كان سيجرؤ على اشعال نيران حرب الخليج الأولى التي تواصل حريقها المدمر طيلة ثمانية اعوام؟ وهل كان سيجد الجرأة لزج العراق، مجدداً، في مغامرة غزو الكويت؟

ان تجار الموت الذين مدّوا اعتى نظام بالسلاح الوفير والتسهيلات المالية يشاركونه في المسؤولية عن تبديد دماء وعافية مئات الألوف من العراقيين، وتشريد ملايين آخرين داخل وخارج وطنهم، ثم انثنوا ليدمروا الاقتصاد الوطني مع كميات هائلة من السلاح المستورد منهم، بعد ان اثقلوه بالمديونية، لكنهم تواطأوا مع النظام حين انتفض الناس عليه لما تهاوى جدار الخوف بعد هزيمته النكراء في «أم المعارك».

فمن هم تجار الموت هؤلاء؟ ان قصتهم مع العراق يروي اهم معطياتها وحبائلها فصل عنوانه Merchants of Death في كتاب صدر اواخر عام ١٩٩١ في لندن عنوانه Unholy Babylon (بابل الشريرة) لعادل درويش وكَريكَوري الكسندر. والكتاب يتناول ممهدات حرب الخليج الثانية ومجرياتها. ونستعرض فيما يلي بايجاز اهم وقائع قصة هذه التجارة التي يتحمل اغلب العراقيين عواقبها، فقراً وسقماً وغداً مجهولاً، في ظل العقوبات الدولية منذ خمسة اعوام.

* * * *

هاجمت القوات المسلحة الاراضي الايرانية وفي حوزة العراق ما يقدر بحوالي ٣٥ مليار دولار من الاحتياطي النقدي. وكان في روع قادة النظام ان النصر مضمون بانهيار الجمهورية الاسلامية من داخلها خلال بضعة ايام او اسابيع. ولكن المقاومة الايرانية سرعان ما كبحت اندفاع الجيش المهاجم الذي راح يقاسي الهزيمة تلو الهزيمة حتى انتقل الى الدفاع داخل الارضي العراقية. وقد تبدد احتياطي العراق النقدي ولجأ الى القروض الخارجية لتمويل ماكنة الحرب. أما مجموع النفقات العسكرية خلال عقد الثمانينات فتراوحت تقديراته بين ٨٠ و١٠٥ مليار دولار، في حين بلغت مثل هذه النفقات ٥ر٦٩ مليار دولار في بريطانيا ٦ر٦٨ مليار دولار في فرنسا للفترة نفسها.

وخلال تلك الحرب صدر الاتحاد السوفييتي للعراق اسلحة من شتى الاصناف بلغت قيمتها زهاء عشرة مليارات دولار، وذلك رغم ان النظام تحول تدريجياً الى شراء السلاح من مصادر أخرى لاعتبارات سياسية وتكنولوجية ومالية. واخذ، كلما امكن، يتعامل مع منتجي السلاح مباشرة لان اغلب الدول تهمها المصالح التجارية قبل غيرها من الاعتبارات بشأن تصدير السلاح. ولغرض تسهيل هذا الاتصال استعان برجال اعمال عراقيين مقيمين في الخارج وكذلك بتجار سلاح من مصر والاردن والسعودية. وفضلا عن توسيع شبكة الحصول على السلاح في الغرب عمدت بغداد الى تأمين

مصادر للسلاح في الصين وكوريا الشمالية وغيرها من البلدان الاشتراكية، خاصة وان سلاحها هو، في الغالب، نسخة من السلاح السوفييتي المستخدم في العراق. وكانت الصين تزود العراق وايران بالسلاح، بما فيه صواريخ سيلكورم.

فرنسا

اخذت فرنسا تبيع السلاح الى العراق منذ ١٩٦٧ وواصلت مدّه بالسلاح المتطور حتى اوائل عام ١٩٩٠. ومن اهم صادراتها للعراق طائرات مقاتلة من صنف الميراج وطائرات الهليكوبتر والصواريخ المضادة للدبابات، وصواريخ ايكسوسيت ضد البواخر، فضلاً عن المدرعات والدبابات. وتتمتع شركات السلاح بدعم كامل من الحكومة الفرنسية التي اعتبرت العراق زبوناً هاماً يستحق معاملة تفضيلية. وبغية الحصول على صفقات السلاح تغاضت عن نشاط المخابرات العراقية الرامي الى تصيد نشطاء المعارضة وتدبير عمليات موجهة ضد سورية. وتولى سبعاوي ابراهيم الاشراف على ادارة شبكة المخابرات التي ضمت سعد صالح الجبوري وكاظم الربيعي ونزار حمدون وفاضل جواد كاظم وصفاء الحبوبي. وكان من ابرز مهام المخابرات العراقية تزويد اعداء سورية في لبنان بالسلاح والمال.

في ايار عام ١٩٨٣ صادق الرئيس ميتران على اتفاقية سرية تقضي بتأجير خمس طائرات (سوبر انتندانت) للعراق. كما اوفد ثلاثين من الطيارين والخبراء الفرنسيين للادامة والتشغيل. واستضاف الطيارين والفنيين العراقيين للتدريب المكثف. وطيلة عامين لعبت تلك الطائرات وصواريخها من نوع اكسوسيت دوراً حاسماً من حيث نتائج الحرب، اذ صعدت «حرب الناقلات». وقد اصاب احد تلك الصواريخ البارجة الامريكية ستارك عام ١٩٨٧ الامر الذي ساعد على التدخل الامريكي المباشر في الحرب، وهو ما كانت بغداد تصبو اليه.

عام ١٩٨٩ تفاوضت حكومتا فرنسا والعراق حول صفقة جديدة تشمل خمسين من طائرات (ميراج ألفا) للتدريب والهجوم الارضي، ولكن العراق كان مديناً لفرنسا بأكثر من ٢٥ مليار فرنك نصفها تقريباً عن مشتريات السلاح، وكان القرض بكفالة المؤسسة الحكومية لضمان الصادرات. الا ان الجانب العراقي بات عاجزاً عن تسديد الاقساط المستحقة مما عرقل اتمام الصفقة. لكن الطرفين اتفقا في خريف ذلك العام على اعادة جدولة الديون والبدء بأرسال الطائرات. وقد لعب وزير الدفاع الفرنسي آنذاك جان - بيير

شيفنمو دوراً اساسياً في تذليل الخلافات بين الطرفين بحيث وافقت فرنسا كذلك على تجميع طائرات الميراج في معامل الاسكندرية. ومن الطريف ان الجهات الفرنسية كانت قد هيأت اتفاقية اعادة جدولة ديون العراق بغية توقيعها في ٢ آب ١٩٩٠، وهو يوم اجتياح الكويت.

رغم المخاوف من عدم تسديد اقساط القرض استمر تدفق المعدات والتكنولوجيا الفرنسية الى العراق، مما ساعد على تطوير طائرة «الاواكس العراقية» المسماة عدنان-٢ على اساس طائرة اليوشن سوفيتية جهزت برادار تومسون، وكذلك تقديم الخبرة في ادامتها وتشغيلها. كما ساعد الفنيون الفرنسيون في تطوير عدد من صواريخ سكود المستوردة من الاتحاد السوفييتي لضرب المدن الايرانية وتدمير جزيرتي خَرج ولاراك بغية الحيلولة دون تصدير النفط الايراني، وذلك رغم الحظر على تصدير مثل هذه المعدات الذي قررته الدول الغربية المتقدمة واليابان.

المانيا الغربية

رغم صرامة القوانين الخاصة بتصدير السلاح، ساهمت من عام ١٩٨٢ حتى ١٩٩٠، ست وثمانون شركة المانية غربية في مدّ العراق بالمعدات العسكرية وفي بناء المصانع المنتجة للسلاح، ومنه السلاح الكيمياوي. وقامت شركة المانية ببناء ثلاثة ملاجئ من الغارات الجوية والاسلحة الكيمياوية في مناطق اليرموك والبدر وسعد، فضلاً عن ملجأ مماثل تحت القصر الجمهوري. ودلت التحقيقات التي اجريت لاحقاً ان بعض الشركات كانت تزوّد العراق بالمعدات والسلاح من خلال بلدان أخرى. فعن طريق البرغواي، مثلاً، صدرت شركة راينميتال الالمانية مصنعاً لتعبئة قذائف مدفعية من عيار ١٥٥ملم الى العراق، ثم جرى نقل اجزاء المصنع الى جنوب افريقيا حيث تم تجميعها في مجمع (ارمسكور) الحكومي. وتبين ان ذلك المجمع كان يمد العراق بقذائف من عيار ١٥٥ملم لمدافع هاويتزر التي قدمتها السعودية للعراق، وهذه المدافع انتاج مشترك بريطاني-الماني-ايطالي. وقامت شركة ميسرشمت بتزويد العراق بتكنولوجيا «الوقود الهوائي» للصواريخ وذلك عن طريق شركات في بلدان أخرى. وصدّرت الشركة نفسها ٢٣ طائرة هليكوبتر قامت بتجميعها شركة (كاسا) في اسبانيا. وتملك الشركة الالمانية ذاتها بالمشاركة مع شركة (ايروسبيسيال) الفرنسية ٥٠٪ من شركة (يورومسايل) التي زودت العراق بصواريخ (هوت) المضادة للدبابات.

ايطاليا
كانت ايطاليا مصدراً هاماً لمدّ العراق بالسلاح في بداية حرب الخليج الاولى، ولعبت دوراً هاماً في تحديث اسطوله الحربي الصغير. فعام ١٩٨١ اتفق مع شركة فينسانتيري على بناء سفينة امدادات، وميناء عائم واربع بوارج وستة طرادات. فبلغ مجموع اثمانها ٢.٨٦ مليار دولار. وتم تسليم سفينة الامدادات والميناء العائم عام ١٩٨٦ قبيل الحظر الذي فرض على تصدير السلاح للعراق من جانب الحكومة الايطالية وذلك بسبب مشاكل تسديد ثمن الصفقة، ولكنها لم تصل العراق بل بقيت في ميناء الاسكندرية بمصر. ثم جرى تسليم طرادين الى ملاحين عراقيين لكنهما لم يقلحا في مغادرة ميناء لاسبازيا، حيث احتجزا. اما البوارج الاربع والطرادات الاربعة الأخرى فبقيت هي الأخرى محتجزة في الميناء الايطالي ذاته. ثم بدأ عام ١٩٨٨ نزاع بين الطرفين حيث شكت بغداد من الاخلال بالعقد من حيث المواصفات وموعد التسليم، وطالبت بالتعويضات وبحق استخدام التكنولوجيا التي طورتها الشركة، والحصول مجاناً على زورق الاغارة السريع الذي طورته، وتسليم عشر طائرات هليوكوبتر بحرية سبق التعاقد عليها عامي ١٩٨٣ و١٩٨٦، وتسليم تكنولوجيا القيادة والسيطرة من شركة سيلينيا الحكومية. واستمرت المفاوضات حتى غزو الكويت.
وطوال حرب الخليج الاولى تدفقت من ايطاليا الى العراق الطائرات، والسلاح والمعدات. فصدرت شركة اوغستا اكثر من ١١٠ طائرات الهليوكوبتر، بما فيها اثنتان ضد الغواصات، وذلك خلال الفترة بين ١٩٨٠-١٩٨٨. وخلال الفترة ذاتها ابتاع العراق منظومات لاطلاق صواريخ سام مع ٢٢٤ صاروخ ارض-جو، وستين صاروخاً ضد البواخر مع عشر منظومات لاطلاقها، بالاضافة الى الغام مضادة للدبابات والجنود، ودروع خفيفة ومئة جهاز للاستطلاع من نوع (ميراتش) الذي تطلقه الهليوكوبتر. كما ساعدت شركات ايطالية في نصب معامل عراقية لانتاج العتاد. واستمر تدريب الطيارين العراقيين في قاعدة (فيلانوفا دي البينا) حتى نيسان ١٩٨٧ حين كشفت اجهزة الاعلام الايطالية أمر هذا التدريب.

بريطانيا
ما زالت التحقيقات جارية لكشف دور الوزارات والشركات البريطانية في تمرير صفقات ذات طابع عسكري مع حكام بغداد رغم الحظر الرسمي على تصدير السلاح الى طرفي الحرب خلال الثمانينات. فعام ١٩٨١ أبرمت

شركات بريطانية عقوداً لتصدير ما قيمته ٥ ٣١٢ مليون باون من «المعدات الدفاعية غير المميتة» حسب زعم الشركات والدوائر المعنية. ومنها البسة للوقاية من الاسلحة الذرية والبايولوجية والكيماوية. وعام ١٩٨٢ صدرت الى العراق ألف سيارة لاندروفر مكيفة للاستعمال العسكري وكذلك ستين عربة مجهزة بمعدات الاتصالات اللاسلكية، وخمسين عربة من نوع (رينجروفر). كما اشترى العراق كمية كبيرة من اجهزة الرادار الخاصة باستكشاف مواقع المدافع. وظلت شركة ثورن حتى اوائل ١٩٩٠ تنظم دورات تدريبية لعسكريين عراقيين. وفي الواقع استمر تدريب الضباط العراقيين في بريطانيا طوال الحرب. اما تدريب الضباط الايرانيين فتوقف في نهاية ١٩٨٢. عام ١٩٨٧ عثرت الكمارك الايطالية على شحنة من الرشاشات الخفيفة وقطع غيار الاسلحة وذلك في باخرة مسجلة في الامارات. خمسة من بحارتها عراقيون. وقد ابحرت من ميناء ليفربول زعماً انها متجهة الى ميناء دبي، لكن الشحنة كانت موجهة للبصرة. وبعد ثلاث سنوات طوحت الرياح العاصفة من على ظهر الباخرة نفسها حاويات من سيانيد البوتاسيوم على ساحل سسكس البريطاني. ودلت التحريات الرسمية ان الباخرة كانت تحمل ايضا كمية من مادة صمغية سامة مع ١٦٠ غالون من مادة كيمياوية غير محددة التركيب. وقد حملت شحنتها في ميناء شيرنس وادّعى قبطانها ان وجهتها السعودية، ولكن رحلات الباخرة المتكررة الى الخليج اثارت الشبه بأنها تحمل مواد لانتاج الاسلحة الكيماوية في العراق.

الولايات المتحدة الامريكية

خلال الستينات اشترى العراق اسلحة من امريكا قيمتها ١٢٤٨٦ مليون دولار. وحين واجهت القوات العراقية صعوبات مفاجئة اواخر ١٩٨١ على الجبهة الايرانية، تعالت الاصوات الامريكية الداعية الى استئناف العلاقات مع العراق بعد ان قطعها عقب حرب حزيران ١٩٦٧. وظل اللوبي العراقي يتنامى في امريكا حتى استؤنفت العلاقات خريف ١٩٨٤ استجابة للرغبة العراقية منذ اندلاع الحرب مع ايران. لكن امريكا كانت قد وافقت عام ١٩٨٢ على تصدير ٦٠ طائرة هليوكوبتر من نوع هوغزسي ٣٠٠ على اساس استخدامها من قبل وزارة النقل والمواصلات. وفي ١٩٨٥ عقدت صفقة اخرى بقيمة ٤ ٢٧ مليون دولار مع شركة ماكدونل دوغلاس لتزويد العراق بـ٢٦ طائرة هليوكوبتر من نوع ٥٣٠ أف، وفي السنة التالية تعاقد العراق مع شركة بيل لشراء ١٧ طائرة هليوكوبتر من نوع ٢١٤ إس ت، كجزء من صفقة

تشمل ٤٥ طائرة. وكانت تلك الطائرات بحاجة الى تحوير بسيط لتحويلها من الاستخدام المدني الى الاستخدام العسكري، ثم شاهد صحفيون امريكان عدداً من طائرات بيل قيد الاستخدام العسكري في مطارات كركوك واربيل والموصل. وقد تولى التعاقد على طائرات الهليوكوبتر تاجر سلاح لبناني اسمه سركيس سوغاناليان يعمل وكيلاً للعراق يعاونه في ذلك الكولونيل برينان الذي كان مستشاراً عسكرياً للرئيس الامريكي السابق نيكسون. وقد حصل مع شريكه جون ميتشل، المدعي العام في عهد نيكسون، على عمولة مقدارها ٤٥٨ ألف دولار من الوكيل العراقي لقاء صفقة عام ١٩٨٥ وحدها. لكن تلك الشراكة ما لبثت ان انهارت حين اقيمت الدعوى على سوغانيايان لانه رفض ان يدفع لشريكيه ٨.٧ مليون دولار وهي حصتهما من العمولة على صفقة قيمتها ١٨١ مليون دولار لتجهيز الجيش العراقي ببدلات عسكرية مصنوعة في رومانيا. وقيل ان الرئيس السابق نيكسون قد حث الرئيس الروماني شاوشيسكو على ابرامها، كما قيل ان نائب الرئيس السابق سبيرو اغنيو قد لعب دوراً في الوساطة.

بلدان عربية

لقد تصدر النظام الحملة على الرئيس السادات عندما زار القدس ثم وقع اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨، لكن النظام ما لبث ان لجأ الى مساعدة السادات حين رفض الاتحاد السوفييتي تزويد العراق بالسلاح خلال السنوات الاولى من الحرب. فمدته مصر بالخبرة والتقنية لبرامج تطوير اسلحته الصاروخية والكيماوية والنووية وامست من اكبر موردي السلاح له، وذلك رغم بقاء العلاقات الدبلوماسية مقطوعة حتى ١٩٨٧. فقدرت مبيعات السلاح المصرية للعراق عام ١٩٨١ بحوالي ٧٠٠ مليون دولار، ثم صعدت الى ١٥٠٠ مليون دولار في العام التالي. وقدر مجموعها طوال الحرب بحوالي ١١ مليار دولار. ومن الاسلحة التي باعتها مصر للعراق (بين ١٩٨٠-١٩٨٩) ٢٥٠ دبابة ت-٥٥ و٥٥٠ قاذفة صواريخ، و٢٠٠ مدفع هاويتزر عيار ١٢٢ملم، و٩٦ مدفع م-٤٦، و١٠٠ قطعة من السلاح الموجه المضاد للدبابات، وعدد كبير من صواريخ ارض-جو ودبابات من صنع روماني. اما الطائرات فبلغ عددها ٢٢٠ طائرة.

وعمل خبراء وفنيون مصريون في تدريب القوات العراقية وادامة المعدات المتطورة وتصليح الطائرات. ولعب الطيارون وفنيو الرادار المصريون دوراً رئيسياً في تدمير المعنويات الايرانية خلال الفترة التي بدأت في كانون

الثاني ١٩٨٧، وذلك بالمشاركة في الغارات الجوية. وقامت الطائرات الحاملة لخزانات الوقود بامداد الطائرات العراقية وهي في الجو لكي تقصف المنشآت الايرانية على الساحل الشرقي البعيد وكذلك على ساحل بحر قزوين، فيما عمل الفنيون المصريون على تعطيل الرادارات الايرانية.
وتدفقت اموال السعودية الى النظام العراقي طيلة سنوات الحرب، لانها شأن امريكا وبريطانيا وفرنسا، كانت تعتبره قلعة بوجه التوسع الايراني. وساهمت الكويت بتمويل الجهد الحربي. وفتحت السعودية والكويت اراضيهما لمرور الاسلحة التي تدفقت على العراق. وكان الاردن يساهم بقسط وافر في تيسير وصول السلاح الى العراق من خلال ميناء العقبة. وقد زود النظام باسلحة من بينها ثلاثون مدفع هاويتزر من عيار ١٥٥ملم و١٠٠ مدفع هاويتزر ١٥٥مم ذاتي الانطلاق وخمسون دبابة و٢٠٠ مدفع هاويتزر ١٥٥ملم طويل المدى و٢٠ طائرة ف-٦.

امريكا الجنوبية

ظل العراق حتى ١٩٩٠ اكبر زبائن البرازيل في السلاح بحيث قدرت قيمة مشترياته منها بحوالي ثلاثة مليارات دولار، وشملت حتى عام ١٩٨٥ توريد ٥٠٠ ناقلة جنود مصفحة، و١٠٢٦ مصفحة من نوع كاسكافيل و٣٠٠ سيارة استطلاع. واوفد خمسون فنياً برازيلياً للادامة. وعام ١٩٨٦ تباحث وفد عراقي لشراء ٣٠٠ دبابة و٣٠٠ مصفحة كاسكافيل أخرى وعدد كبير من قاذفات الصواريخ متعددة المراحل بعتاد من الصواريخ التي يتراوح مداها بين ٣٠-٦٠ كلم. وكان الجانب العراقي قد اشترى ٧٨ قاذفة صواريخ متعددة المراحل مع عدد غير معلوم من الصواريخ. يضاف الى ذلك ١٣ جهاز رادار لتوجيه القذائف و٩٦٠ صاروخ اس اس-٦٠ و١٠٠ مدفع مضاد للدبابات. (كان وسيط الصفقات خوزيه ريبيرو ينتقل بين البلدين في طائرته الخاصة البوينغ ٧٠٧). وعام ١٩٨٨ تباحث وفد عراقي مع شركة (امبراير) للحصول على ترخيص لتجميع طائرات (توكانو) الخاصة للتدريب. وفي العام التالي تفاوض الطرفان على صفقة جديدة تشمل صواريخ جو-جو وصواريخ مع قاذفاتها ومصفحات لنقل الجنود.
ونظراً لتوقف الامريكان والمصريين في نهاية الحرب عن دعم العراق بالرصد الجوي فأنه لجأ الى وكالة الفضاء البرازيلية من اجل صنع اقمار للرصد بوسعها ان تغطي اسرائيل وسورية وايران وجبال كردستان حيث ينشط الثوار، وذلك من على ارتفاع ٧٠٠كم وبوزن مقداره ١٥٠ كلغم على

اساس تجهيزه بكاميرا فرنسية الصنع. وقدرت تكاليف المشروع بحوالي ٥٠ مليون دولار.
اصبح كارلوس كاردوين من اغنى الشيليين بفضل بيع السلاح للعراق. فلا عجب ان تتصدر صورة صدام حسين جدار مكتبه في شركته التي باعت ٩٥٪ من انتاجها للعراق عام ١٩٨٨. وقدرت ارباحها من بيع القنابل العنقودية خلال الحرب بحوالي ٨٠ مليون دولار سنوياً. ومن اهم المعدات الأخرى التي باعتها للعراق ١٠٠ مدفع هاويتزر من عيار ١٥٥ملم، الذي تنتجه بترخيص من شركة ارمزكور في افريقيا الجنوبية. وقد فاتح الجانب العراقي الشركة لشراء ٥٠ من طائرات الهليوكوبتر (بيل-٢٠٦) المدنية التي تعمل الشركة لتحويلها الى سمتية مجهزة بالمدافع والصواريخ. وقد اكتشف الصحفي البريطاني (مويل) ان الشركة تحاول تجهيز السمتيات بموجهات متطورة للصواريخ (هليوز) التي تنتج في امريكا وبريطانيا والسويد. وهي ممنوعة التصدير الى العراق وشيلي معاً.
وقد ربطت وسائل الاعلام البريطانية بين هذه الصفقة والعثور على الصحفي (مويل) مشنوقاً في غرفة فندقه بسانتياغو. وهو طيار هليوكوبتر متقاعد كان يصدر مجلة مختصة بعالم الهليوكوبترات العسكرية زار شيلي عام ١٩٩٠ عقب تسرب معلومات عن المشروع. وذكرت وسائل الاعلام الغربية ان قامت في تشرين الاول عام ١٩٩٠ بوساطة سرية بين النظام العراقي وشركة كاردوين لتزويده بسلاح تفجير الوقود بالهواء. وكانت ليبيا قد باعت ٤٠٠ مصفحة برازيلية الى العراق عام ١٩٨٢ وزودته بألغام صوتية/مغناطيسية اشترتها من افريقيا الجنوبية وتولت شركة كاردوين بناء مصنع بكلفة ٦٠ مليون دولار لصنع اجهزة التفجير Fuses قرب بغداد ليجري تزويده بمكائن وادوات متطورة من قبل شركة ماتريكس-تشرتشل في بريطانيا (وهي الشركة التي اشتراها وكلاء النظام ولعبت دوراً هاماً في تزويده بالمعدات والسلاح واقامت شراكة مع العديد من الشركات في بريطانيا وخارجها لهذا الغرض) كما قامت الشركة الشيلية بنصب مصنعين آخرين لانتاج قنابل الطائرات وبعضها عنقودية...

وصدرت الارجنتين الى العراق خلال الحرب العربات ومدافع المورتر والبنادق والعتاد اضافة الى ١٠٠ دبابة من نوع تانك، وهي من تصميم الماني غربي. وكانت الارجنتين مساهمة مع مصر والعراق في تطوير صاروخ كوندور-٢

بلدان أخرى

تمتد العلاقة بين نظام صدام والنظام العنصري في افريقيا الجنوبية الى سنوات سابقة على حرب الخليج الأولى. كان العراق في اواخر السبعينات يصدر كميات هامة من النفط الى افريقيا الجنوبية التي زودته بين ١٩٨٤-١٩٨٦ بكميات هامة من السلاح والعتاد عن طريق ميناء العقبة. كما قامت بمده بالسلاح ايضاً من خلال تصديره الى بلد ثالث مثل ليبيا وشيلي.

ومن البلدان الأخرى التي باعت السلاح للنظام بولندا التي باعته ٤٠٠ دبابة ت٥٥ وألمانيا الديمقراطية التي باعته ٥٠ دبابة من النوع نفسه وذلك خلال اول سنتين من الحرب. اما جيكوسلوفاكيا فباعته خلال السنوات الخمس الاولى من الحرب ٤٠٠ دبابة من هذا النوع مع ٢٠٠ مصفحة ناقلة للجنود، وألف عربة قتالية للمشاة. كما باعته رومانيا ١٥٠ دبابة من النوع اعلاه في حين باعته المجر ٢٠٠ سيارة استطلاع من نوع فوك-٧٠. وباعته يوغسلافيا الكثير من السلاح الخفيف وقذائف مدفعية من عيار ١٢٢ملم فضلا عن تقديم الخبرة الفنية في تصميم واقامة القواعد الجوية بما فيها مرائب تحت الارض للطائرات.

ومن البلدان الأخرى التي صدرت السلاح والعتاد الى العراق، أو قدمت اليه المساعدة الفنية، الهند واليونان وكوريا الشمالية والبرتغال.

لم تتورع حتى البلدان المحايدة عادة عن بيع النظام السلاح والعتاد. فعام ١٩٨٨ باعته النرويج ١٢٠٠ طن من المتفجرات بحجة استخدامها في اقامة سد للمياه في شمال العراق، ولكن تلك المادة قابلة للاستخدام في صنع الصواريخ ايضاً. كما باعته سويسرا اسلحة تشمل ٥٠ ناقلة مصفحة للجنود و١١٠ من طائرات التدريب بما فيها طائرات براقو التي استخدمت بكفاءة للقصف في كردستان، ويقول البيشمركه انها القت القنابل الكيمياوية هناك.

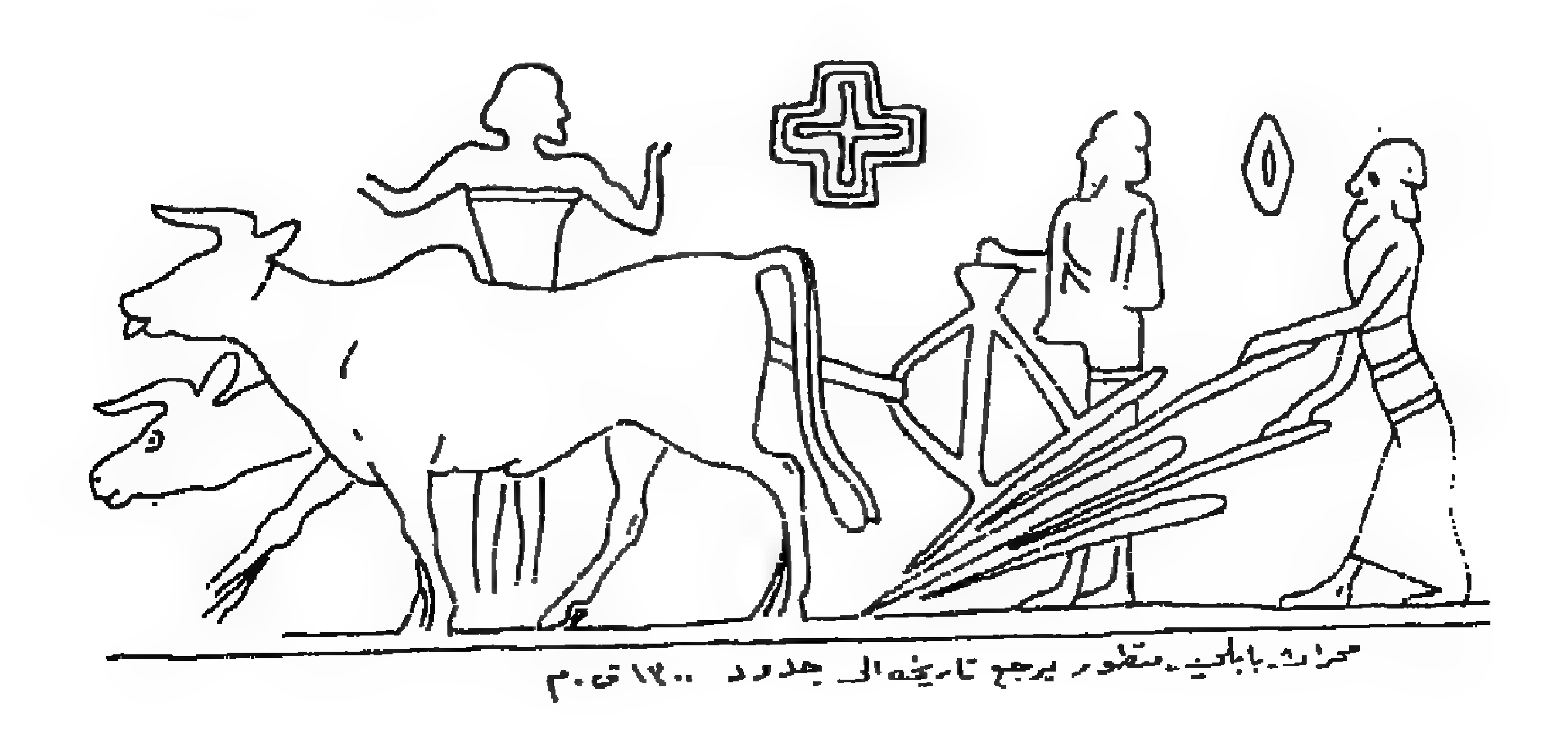
ومن النمسا ساهمت شركة كونسلتكو بوضع التصاميم لمجمع سعد لابحاث وتطوير الصواريخ والاسلحة الكيمياوية الذي ساهمت شركة نمساوية أخرى في تجهيزه بالمنشآت اللازمة لاختبار الصواريخ. وصدرت الشركة الحكومية للسلاح ٢٠٠ من المدافع بعيدة المدى عن طريق الاردن وتولت شركة نمساوية أخرى تزويدها بالقذائف. وساهمت شركات نمساوية مع شركات بولندية وبريطانية في بناء مصنع للذخيرة في العراق وتزويده بالسيارات العسكرية. وكانت شركات نمساوية تصدر السلاح والعتاد الى ايران بحيث بلغت قيمتها اثناء الحرب حوالي ٣٠٠ مليون دولار.

ورغم الحظر الحكومي زوّدت شركة (يوروميتال) الهولندية نظام صدام خلال الحرب ب٢٢٠ الف متفجرة لدفع القذائف و٣٠ ألف قذيفة مدفع عيار ١٥٥مم. وقامت شركة (اولدلفت) ببيع النظام معدات للرؤية ليلاً أما بصورة مباشرة أو عن طريق فرعيها في البرتغال وبلجيكا، فضلاً عن تزويد النظام بمنظومات للاستكشاف الجوي. وقامت شركات فليبس ايضاً ببيع معدات الرؤية الليلية عن طريق فرعها في المانيا.
هذا ويكرس المؤلفان القسم الأخير من الفصل الذي اوجزناه لمتابعة نشاط شبكة المؤسسات التجارية والصناعية التي اسسها أو اشتراها النظام في مختلف البلدان لتسهيل الحصول على السلاح والمعدات اللازمة للصناعات الحربية.

* * *

وبعد، ولئن كان المواطن على كل الحق في تحميل حكامه المسؤوليه الأولى عن الاهدار الرهيب للدمار والموارد بسبب حروبهم الخارجية والداخلية، أفلا يحق له ان يحمل الشركات والحكومات التي مدتهم بوسائل الموت والخراب قسطاً كبيراً من المسؤولية عما جرى ويجري للعراق وأهله، وبالتالي ألا يحق له ان يتساءل حول مشروعية الديون التي يطلب تجار الموت ان يسددها عراق الغد؟

ترجمة وتلخيص الثقافة الجديدة



محراث بابلي متطور يرجع تاريخه الى حدود ١٢٠٠ ق.م

ملامح من تأريخ العراق القديم*

الحلقة الثانية

علي الشوك

الآشوريون

كان مؤسس الامبراطورية الآشورية الأولى شمشي - أدد (١٨١٣-١٧٨١ق.م.) خارجاً على القانون. وكان اول عمل امبراطوري قام به الحاق ماري (الواقعة شمال ابو كمال على الفرات) بدولة آشور. وفي السنتين السادسة والثلاثين والثامنة والثلاثين من حكمه، دحر حمورابي الجيش الآشوري، وتم توحيد وادي الرافدين في دولة واحدة تحت حكمه. وبعد تقوض الامبراطورية البابلية في ١٥٩٥ق.م. على يد الحثيين لم يكن وضع الآشوريين افضل بكثير، فقد ظلوا تحت طاعة الميتانيين، لكن الآية انقلبت فيما بعد. ففي ظروف سياسية مؤاتية لم يستطع آشور - أُبالط الاول (١٣٦٥-١٣٣٠ق.م.) تحرير بلاده من الميتانيين فحسب، بل لعب دورا في القضاء على هذه المملكة التي كان والده يدفع الجزية لها، وبات يتراسل مباشرة مع الملك المصري اخناتون، وزوج ابنته من بُرنابورياش بأمل ان يحكم حفيده بابل يوماً ما.

* نشرت الحلقة الأولى في العدد السابق.

وكانت القوى الاساسية المتصارعة في الساحة، هي الامبراطورية الحثية في الاناضول وامتداداتها السورية، والامبراطورية المصرية وامتداداتها الفلسطينية، وبابل تحت حكم الكاشيين، الى جانب القوة الآشورية الصاعدة.
وكان موقع آشور يحتم عليها، ربما اكثر من اية قوة أخرى، ان تبقى دائماً على أهبة القتال، أو ان تلجأ الى استعمال السلاح على الدوام. وما ذكره الملك الآشوري تيكُولتي - ننورتا في سجل وقائعه الحربية يقدم لنا صورة عن هذه السياسة:
«ارغمت كاشتيلياش، ملك كاردونياش (يقصد بابل) على خوض المعركة قبضت يدي على كاشتيلياش، الملك الكاشي، ودست على رقبته الملكية بقدمي كما أطأ على المقعد. وعرضته عارياً ومقيداً تحت إلهي آشور....».
لكن القدر انتقم لبابل، فبعد بضعة اعوام ثار عليه ابنه ونبلاء آشور وذبحوه في قصره.. وسيأفل مجد آشور بعض الوقت، بعد ان دوخت الامبراطورية الحثية وارعبت حكام مصر، ووصلت حتى خليج العرب، لأن القرن الثاني عشر ق.م. ستعمه فوضى سياسية لم يسبق لها مثيل، وذلك في مرحلة الانتقال من العصر البرونزي الى العصر الحديدي الذي دشنته جحافل اقوام البحر القادمة من اليونان وغربي الاناضول وكريت وسردينيا، الخ، بمن فيهم الفلستينيون الذين دوخوا المصريين. ونتيجة لهذا الزحف الكاسح انهارت الامبراطورية الحثية، وتقوقعت آشور. فاغتنم العيلاميون - تحت قيادة شوتروك ناحونته - الفرصة وانقضّوا على بابل، فقضوا على حكم الكاشيين الذي دام ٥٧٦ سنة وتسعة أشهر وكان ذلك في العام ١١٥٧ق.م. ودمروها ونهبوا كنوزها بما في ذلك الاعمال الفنية العظيمة مثل المنحوتة الناتئة الشهيرة التي تصور أمجاد نرام - سن حفيد سركَون، ومسلة حمورابي وغير ذلك، وحملوها الى عاصمتهم سوسة في ايران، الى ان تم اكتشاف هذه السرقات على يد البعثة الآثارية الفرنسية في اواخر القرن الماضي، وهي الآن من نفائس مقتنيات متحف لوفر في باريس.
لم يدم أحتلال العيلاميين بابل طويلاً. إما لأن توسع فتوحاتهم الغربية انهك قواهم، أو لأنهم باتوا يحسّون بخطر الزحف الميدي (الكردي) والفارسي من الشمال الشرقي لايران. فما لبثوا ان اخلوا بابل أو طردوا منها، ليحكمها امراء أيسن الذين اسسوا مُلك السلالة الثانية لآيسن. وبات بمقدورهم ان يتدخلوا حتى في الشؤون الداخلية لآشور. وفي خضم الفوضى التي حلت بأرض عيلام اغتنم الملك البابلي نبوخذنصر الاول (١١٢٤-١١٠٣ق.م.) الفرصة وهاجم عيلام، فباءت حملته الأولى بالفشل: «لقد لاحقني العيلاميون

ولذت بالفرار امامهم؛ واستلقيت على سرير البكاء والحسرات»، كما اعترف هو بذلك. لكن خيانة احد ملوك عيلام، المدعو شتّي - ماردوك، وانحيازه الى المعسكر البابلي حسم المعركة الى جانب البابليين. وتعتبر الوثيقة التي حررت لمنح هذا الملك العيلامي المرتد امتيازات لقاء ما قدمه من خدمات للمعسكر البابلي من بين اكثر السجلات الحربية شاعرية في العصور القديمة:

«من دير Der (=بدرة)، مدينة آنو المقدسة، وثب (المقصود بذلك ملك بابل) ثلاثين فرسخاً مضاعفاً. وفي شهر تموز احكم قبضته على الطريق. كانت اغصان الفاكهة في بواكير قطافها تشتعل كالحجر؛ وحجارة الطريق تتوقد كالأتون؛ لم يكن ثمة ماء (في الوديان) وكانت الآبار جافة؛ فكانت الخيل الجامحة تتعثر في مسيرتها، ويترنح الابطال ممن هم في عنفوان الشباب. لكن مع ذلك مضى الملك المصطفى والمنصور من لدن الآلهة، نبوخذنصر الذي لا ندّ له، وواصل مسيرته».

لكن هذا النصر كان مؤقتاً، لأن عيلام لم تقهر تماماً.. وكان على من جاء بعد نبوخذنصر ان يحافظوا على مملكتهم من آشور. وهذا سيجعل العراق دائما عرضة للصراع والنزاع ما دام مقسماً.

على رغم الصراعات العائلية في البلاط الملكي الآشوري، واقتطاع مقاطعاتهم الشرقية، كان القرن الحادي عشر ق.م. قرن رخاء لهم. واستطاع تجلات بلاصر الاول (١١١٥-١٠٧٧ق.م.) الزحف الى الاناضول، وصد قبائل الآراميين الاشداء الذين يرد ذكرهم لأول مرة في التأريخ، واجتياز الفرات ثم الوصول الى شاطئ البحر المتوسط. فكان ثاني حاكم عراقي يصل الى هذا البحر بعد سركون الاكدي. والى الشرق توغل حتى بحيرة وان) في ارمينيا، واقام نصباً له في مالازكرد على مسافة من هذه البحيرة... ثم احتل بابل التي يسميها الآشوريون (كاردونياش).

وبعد مقتل تجلات - بلاصر مر العراق، على مدى اكثر من قرن ونصف، بواحدة من احلك ايامه ظلاماً، سواء في آشور أو بابل. ولعل اهم حدث تأريخي شهده العراق في هذه الفترة (القرن العاشر ق.م.) تدفقُ القبائل الآرامية من بادية الشام، واقامتها في المناطق الواقعة بين دجلة السفلى وحدود عيلام، وتدفق ملك كلداني، هو واحد من اعظم الحكام في التأريخ القديم، ونعني به نبوخذنصر الثاني. وفي غضون ذلك بلغت الامبراطورية الآشورية اوج مجدها. وكانت صحوتها في عام ٩١١ق.م. وكان الامير أدد-نيراري الثاني الذي اعتلى العرش في ذلك العام هو الذي فتح اول صفحة من

الفصل الأخير والمتألق لتأريخ آشور.
في عهد سركون الثاني (٧٢٢-٧٠٥ق.م.) اقتحم الآشوريون جبال كردستان الوعرة، واحتلوا بابل وسومر. وكان لهذه الحملة الناجحة تأثير كبير على الدول المجاورة، لأن ألحاق بابل عزز قوة آشور، ورفع من شأنها. فأعلن ميداس ملك فريجيا في الاناضول عن صداقته لسركون؛ وتناهى الى ملك دلمون (البحرين) جبروت آشور فأرسل هداياه. وأرسل سبعة ملوك في إيتنانا (قبرص) «التي تقع على بعد سبعة ايام في بحر غروب الشمس» هداياهم واقسموا يمين الولاء للملك الجبار الذي عثر على نصب له في لارناكا بقبرص.
واستعمل سنحاريب عام ٧٠٠ق.م. في اقتحام لخيش الفلسطينية المعروفة بتحصيناتها القوية تقنية عسكرية وهندسية متقدمة جداً في مقاييس ذلك الزمان، فدك حصونها بآلات تشبه الدبابات الحديثة تماماً. واحتل الآشوريون مصر في عهد أسرحدون. لكن ذلك كله سيكلفهم غالياً... ومع ذلك، فان الانطباع الذي خلفته بعض النقوش الكتابية عن العنف الآشوري-لا ينبغي ان ينسينا الصفحات اللامعة في تاريخ هذه الامبراطورية العظيمة، لا سيما في الحقول الثقافية والفنية. وفي واقع الحال كانت الحروب التي خاضها الآشوريون حروباً دفاعية أو وقائية في المقام الأول، هدفها المحافظة على «ارض الإله آشور»... ولسوف نرى فيما بعد ان الحكومات الآشورية كانت تحسب الحساب لشعبها وتتعامل معه على مستوى حضاري لا تعوزه بعض القيم الديمقراطية. ولنتوقف قليلاً امام الظاهرة الآتية.
عام ١٨٤٩م نقب في نينوى رائد الآثاريين البريطانيين السير هنري لايارد. وعندما اماط اللثام عن قصر سنحاريب في تل كوينجق بالموصل، وجد صالتين كبيرتين فيه مغمورتين على عمق قدم أو اكثر بالألواح. وبعده بثلاث سنوات أكتشف هرمز رسام من الموصل قصر آشور بانيبال حفيد سنحاريب، وكان مجموع ما عثر عليه لايارد ورسام اكثر من ٢٥ ألف لوح ارسلت جميعها الى المتحف البريطاني، وهي تؤلف الآن اغنى مجموعة من نوعها في العالم. وفيما بعد عثر على مكتبات أخرى مهمة في آشور، ونمرود، وسلطان تبه، قرب حران. ومن بين الكنوز التي عثر عليها في مكتبة آشور بانيبال: ملحمة جلجامش، واسطورة نرام-سن، وقصة المعذب الصالح، وكتابات ادبية مهمة، مثل (قصة الرجل الفقير من نيبور).

هواية سنحاريب: يحدثنا سنحاريب (٧٠٥-٦٨١ق.م.) بنفسه عن مأثرة

صب النحاس في الاعمال النحتية الضخمة، في قوله: «انا سنحاريب، بالذكاء الحاد الذي منحني اياه الإله ايا وبتجاربي الخاصة، تمكنت من صب الأسود البرونزية الضخمة ذوات الارجل المفتوحة عند الركب والتي لم يسبق لملك قبلي ان قام بها... وبنيت قالباً ضخماً من الطين لاثني عشر اسداً ضخماً مع اثني عشر ثوراً ضخماً فوق دعامات ضخمة وجذوع النخيل... وصببت البرونز فيها كما تصب قطع نصف الشاقل». والاشارة هنا الى عملية الصب للاشياء الضخمة جداً، وكانت مستخدمة منذ بداية الألف الثالث ق.م.

اهتمامات آشور بانيبال: يقول آشور بانيبال: «فنّ المعلم ادابا تعلمت: الكنز الخفي لكل فنون المعرفة الكتابية:علامات السماء والأرض... ودرست النجوم على يد الاساتيذ المتضلعين بفن التعاويذ الزيتية؛ وقمت بحل مسائل القسمة والضرب المعقدة؛ وقرأت الالواح الفنية السومرية والالواح الاكدية الغامضة، التي يصعب اتقانها، واستمتعت بقراءة الاحجار من عهد ما قبل الطوفان».

وفي رسالة الى المدعو شادونا يقول: «امرٌ من الملك الى شادونا: صحتي جيدة، ليكن قلبك مفعماً بالامل، عندما تصلك رسالتي. خذ معك شوماً، ابن شوموكينا، وبلطير، اخاه، وآبلو ابن اركاتيلاني، ومثل هؤلاء الناس من بورسيبا كما تعلم، وكل الالواح التي في منازلهم، وكل الالواح المحفوظة في معبد أزيدا Ezida ابحث عنها، واجمع الالواح لأجل التعاويذ الملكية، والواح المترنمات في ايام نيسان، وتعويذة الكهنة المغنين في شهر تشريتو، والالواح التي تشتمل على سلسلة التعازيم في بيت سلع، وتعويذة الكهنة المغنين لحساب الايام، والتعاويذ الاربع لرأس السرير الملكي، وكل ما هو ضروري للقصر، وكل ما هو موجود، والالواح النادرة التي تعثر عليها في الطريق، التي لا يوجد لها مثيل في آشور. ابحث عنها واجلبها لي. وقد كتبت لشاتونو ولموظفي الشاكو ايضاً. ضع هذه الالواح في صندوقك المتين. لن يمتنع احد عن تقديم الألواح لك، واذا عثرت على لوح تميمة لم اذكرها لك، واذا رأيت انها تصلح لقصري، ابحث عنها وخذها واجلبها لي».

لم تدم المرحلة البابلية الاولى أو القديمة سوى ثلاثة قرون (١٨٩٤-١٥٩٥ق.م.)، انتهت بإقتحام الحثيين بابل ونهبها، لينسحبوا منها بعد فترة قصيرة، ويحل محلهم الكاشيون، وهم هنود اوروبيون ايضاً، قدموا من ايران، وغيروا اسم بابل الى Kar-Duniash. وبسطوا حكمهم على وادي

الرافدين من عام ١٥٩٥ حتى عام ١١٥٧ق.م. وفي زمانهم بنيت المدينة التي بقيت من آثارها خرائب عقرقوف. وفي الفترة الكاشية مرت بابل بمرحلة ركود أو تحجر نسبي. لهذا السبب لم تحظ هذه المرحلة باهتمام كبير من لدن علماء الآثار. فلم ينشر عنها حتى الآن سوى اقل من الف لوح. لكن الكاشيين كانوا نخبة حاكمة حرصت على احترام التقاليد البابلية، فكان موقفها محافظاً جداً فيما يتعلق باللغة والأدب البابليين لكي يظهروا احترامهم لتراث هذه المنطقة.

كانت الفترة التي شهدت نهاية عهد الكاشيين في بابل تتسم بمزيد من القلق والاضطرابات في المنطقة بأسرها. في تلك المرحلة سقطت طروادة واوغاريت السورية الكنعانية، وانهالت جموح الزاحفين من اقوام البحر على شرقي المتوسط، ربما نتيجة لزحف جماعات هندية-اوروبية على اليونان وبحر ايجة، وتحت ضغطها اضطر سكان هذه المناطق الى الهجرة الجماعية شرقاً وجنوباً، وكان من بينهم الفلستينيون الذين سميت فلسطين على اسمهم فيما بعد. وتسببت هذه الاجتياحات في انهيار المملكة الحثية الاولى في الاناضول، وحرمان وادي الرافدين من معادن آسيا الصغرى، مما تسبب في وهن الحكم الآشوري بعد عهد توكولتي-نينورتا. وكانت تلك المرحلة نهاية العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي في حدود ١٢٠٠ق.م.

ومنذ موت آخر الملوك الكاشيين دخلت بابل مرحلة طويلة من عدم الاستقرار السياسي. فمنذ القرن الثاني عشر ق.م. وحتى مرحلة الهيمنة الآشورية في القرن الثامن ق.م. حكم في بابل زهاء ست سلالات لا وزن لها. لكن منذ هذه الفترة رفع شعار «بابل للبابليين»، ولم يتحقق الا بعد بضعة قرون.

ننتقل الآن الى العهد البابلي الجديد، أو الكلداني، ونركز اهتمامنا ايضا على الحضور الميدي أو الكردي في العراق، والعلاقات والتداخلات السياسية والاجتماعية بين سكان وادي الرافدين بقواميه الرئيسيين: السامي والكردي.

بعد زوال حكم الكاشيين اخذ الكلدانيون يملأون الفراغ في بابل. ورد اول ذكر لهم في القرن التاسع ق.م. في سجلات شلمانصر. وفي هذه السجلات ايضاً ورد أقدم ذكر للعرب، وذلك في العام ٨٥٤ أو ٨٥٣ق.م. كان الكلدانيون يقيمون بين الاهوار والبحيرات في الجزء الجنوبي من مجرى دجلة والفرات. وكانوا يخضعون لتنظيم عشائري تحت اسم (bitu) أي بيت فلان أو علاّن. واشهر قبائلهم يومذاك بيت داقوري قرب بابل، وبيت اموقاني، وبيت ياقين. وكانت الأدلة كلها تشير الى انهم لم يكونوا بدواً في ضنك الحال يفتقرون الى النعمة، بل كانوا يعيشون في اماكن تتوفر فيها الخيرات، كالنخيل

والزراعة وتربية الخيول والتجارة (كانوا يتاجرون مع بلدان بعيدة كالهند بالعاج، وخشب الابنوس وخشب ال sisso (لعله الساج)، وجلود الفيلة، والذهب). ولا يوجد أي دليل على انهم كانوا يتكلمون لغة أخرى غير البابلية، بمعنى انهم لم يكونوا آراميين، ذلك ان المصادر القديمة كانت تميز بدقة بين القبائل الكلدانية والقبائل الآرامية الى الشمال، هذا بالرغم من ان هناك بعض الاسماء الآرامية بين الكلدانيين.

وبأعتلاء نابوناصر العرش في العام ٧٤٧ق.م. تبدأ مرحلة جديدة في تأريخ بابل. وحسب الدقة التقويمية الفلكية البابلية، بدأ عهد نابوناصر في ظهر يوم ٢٦ شباط عام ٧٤٧ق.م.! ويعتبر اليونانيون عصر هذا الملك البابلي مرحلة انعطاف في تأريخ العلم، وباتت كلمة «كلداني» تعني «فلكي».

لكن الصراع بين آشور وبابل لم ينته. فلم يكن يروق لآشور ان تنهض بابل من كبوتها. كانت تحاول بسط سيطرتها عليه، كأن تعين اميراً آشورياً أو ولي عهد لادارة شؤونها. وفي افضل الاحوال تعين حاكماً بابلياً من صنائعها. فقبل ان تدرك الوفاة أسر حدون الآشوري اوصى بحضور القادة العسكريين والنبلاء والسفراء الاجانب وممثلي الدول الخاضعة بأن يكون ابنه آشور بانيبال الوريث الشرعي للعرش، وعين ابنه الآخر شماش-شوما- اوكين نائب الملك في بابل. ومع ذلك ثار شماش-شوما- اوكين في بابل ضد شقيقه آشور بانيبال، ربما ايماناً منه بأن بابل العظيمة لا ينبغي ان تكون خاضعة أو محكومة أو مهمشة على صعيد امبراطوري. لكن ثورته اخمدت بقسوة، ورمى شماش نفسه في النار المندلعة في قصره، ليتجنب اهوال التعذيب الآشوري الذي يعرفه جيداً.

حين دب الضعف في أوصال الامبراطورية الآشورية بعد موت آشور بانيبال، اغتنم الفرصة احد شيوخ الكلدانيين واعتلى عرش بابل. كان هذا نابو بولاصر (٦٢٥-٦٠٥). وفي عام ٦١٥ق.م. قام هذا الملك بخطوة جريئة في محاولة لاقتحام آشور عاصمة الآشوريين، لكنه اجبر على التراجع واللجوء الى تكريت حيث حوصر من قبل الجيش الآشوري. في هذه الاثناء كان الميديون (اجداد الاكراد الحاليين) قد دخلوا المسرح قادمين من غربي ايران. وكانوا يومئذ قد شكلوا قوة يحسب لها حساب كمملكة مستقلة يدير دفتها حاكم قدير هو هوفاكشاترا أو كاشتاريتو أو اوماكشتار حسب النطق البابلي، أو سياكساريس حسب نطق هيرودوتس اليوناني. ففي العام ٦١٤ق.م. زحف هذا الملك الميدي نحو نينوى: وتم الاستيلاء على نمرود ونهبها. واختراق بعض اسوار آشور، ثم الاستيلاء عليها ونهبها. ولكي تكون

لنابوبولاصر حصة في هذا النصر، زحف شمالاً، لكنه لم يصل آشور الا بعد سقوطها. واجتمع الملك البابلي الكلداني نابوبولاصر بالملك الميدي الكردي هوفاكشاترا تحت اسوار مدينة اشور المدحورة «وعقدا حلفاً مشتركاً للصداقة والتعاون». وفيما بعد تم تعزيز هذا الحلف أو التحالف بزواج نبوخذنصر ابن نابوبولاصر من اميتس Amyitis ابنة أو حفيدة – في رواية أخرى – الملك الميدي. وفي العام ٦١٢ق.م. تضافر البابليون والميديون والاسكيثيون على اقتحام نينوى واحالتها الى تل من انقاض.
ولنتوقف هنا قليلاً لنقفو آثر الحضور الكردي في المنطقة. عام ٨٣٦ق.م. ظهر لأول مرة اسم الميديين في السجلات الآشورية، وكانوا يومذاك على مشارف اصفهان الحالية. اما الفرس (Parsua) فكانوا في شمال غرب كرمنشاه. في تلك الايام كان يحكم فارس سبعة وعشرون ملكاً، كانوا يدفعون الجزية للملك الآشوري شلمناصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ق.م) وكان واضحا من الاخبار الآشورية ان الميديين والفرس الذين احتكوا بهم كانوا قد رسخوا اقدامهم في المنطقة قبل هذا التأريخ عندما توغل الآشوريون الى الشمال الشرقي في جبال زاغروس. وهذا يدعو للاعتقاد بأن القبائل الكردية والايرانية كانت موجودة في المنطقة الشمالية من جبال زاغروس منذ بداية القرن التاسع ق.م. وهناك ادلة آثارية تؤكد هذه الوقائع التأريخية التي يرويها الآشوريون. على سبيل المثال، تغير الفخار من الصنف الملون الى الرمادي البحت في المستوطنات. (كما شهدت مدافن المنطقة تغيراً ايضاً في طريقة اللحد) ولوحظ ايضاً وجود الحديد بكثرة في تلك الفترة مقترناً بظهور، أو حضور القبائل الكردية-الايرانية. ولا بد ان قدومهم كأن من الشمال لآنهم اصطدموا في بادي امرهم بالاورارطيين (سكنة ارمينيا الحالية)، وبالآشوريين، والعيلاميين. (ينظر بهذا مالوري، ص٤٨-٥١).
بعد سقوط نينوى والامبراطورية الآشورية التي امتد نفوذها يوماً ما من أرمينيا شرقاً حتى النيل غرباً، ومن الخليج العربي جنوباً حتى شطر من الاناضول شمالاً، لم يبسط الاكراد حكمهم على آشور، بل اكتفوا بالغنائم منسحبين الى جبال زاغروس، بغيتهم أرمينيا وبقية مناطق آسيا الصغرى.
اما البابليون فكانوا يتمتعون بكامل السيطرة على آشور، لكنهم لم يبقوا فيها، هم الآخرون، بل وجهوا ابصارهم شطر الغرب، ليحتل نبوخذنصر سورية وفلسطين ويسبي يهود اورشليم. وهناك نقش مشوه أو تالف يشير الى ان البابليين احتلوا مصر، لكن بدون أية تفاصيل.
في غضون ذلك كان الميديون الاكراد يتقدمون باتجاه الشمال الغربي، كما

ذكرنا، فأحتلوا اورارطو بالتعاون مع السكيثيين في بداية القرن السادس ق.م. ثم ارمينيا. وعندما وجد الملك الميدي هوفاكشاترا نفسه وجهاً لوجه امام ألياتس Alyates ملك ليديا في الاناضول في (معركة الخسوف) وقد اعياهما حسم الصراع بينهما بالسلاح، تدخل احد جنرالات نبوخذنصر، وهو نابونيد الذي سيعتلي العرش البابلي فيما بعد، تدخل كحكم بينهما، واحتل في الوقت نفسه قيليقيا (جنوب الاناضول). وفي العام ٥٦٢ق.م. توفي نبوخذنصر وخلفه ابنه اميل-مردوك Amel-Marduk الذي لا يعرف عنه الكثير، سوى ان المؤرخ بيروسوس يصفه بأنه لم يكن يعرف لا شرعة ولا حشمة. لكنه مع ذلك عامل يهوياكين ملك يهودا المنفي معاملة حسنة، فأطلق سراحه من السجن وظل يتناول الطعام على مائدة الملك البابلي لما تبقى من عمره. ولا تتوفر معلومات ضافية عن فترة سقوط بابل، سوى ان جنرالا سيخلف ابن نبوخذنصر لمدة ثلاثة اعوام، ثم يختفي في ظروف غامضة، ليخلفه ابنه الذي لم يدم حكمه اكثر من ثلاثة اشهر. بعد ذلك ارتقى العرش نابونيد وهو في الستين من عمره. ولعل هذا الملك، وهو خاتمة ملوك بابل، يذكرنا باخناتون الفرعون المصري الذي ادخل ديانة التوحيد الى مصر في القرن الرابع عشر ق.م. وثار عليه القصر والكهنة. وكما وصف اخناتون من قبل البعض بأنه كان متأنثاً وخاضعاً تحت تأثير الملكة Teye، كان نابونيد شديد التعلق بأمه Adda-Guppi التي عمرت مئة واربعة اعوام، وتمت الى جذور ملكية آشورية. وحاول ان يعيد معبد امه الذي انتهبه ودمره الميديون في حرّان. وكان اسم هذا المعبد Ehulhul أي (بيت الهلهولة)، أي معبد القمر.

وبعد وفاته وسقوط بابل حاول الفرس المحتلون ان يلصقوا به تهمة الجنون والتبجح بالانتصارات الفارغة، وفي المقام الاول الزندقة والتنكر للأله مردوك وعبادة سين الإله القمر الذي لم تعد له اهمية دينية في بابل. وفي خضم اختلاط الاوراق والاسماء اتهمت التوارة نبوخذنصر، بدلاً من نابونيد، بالجنون، كما جاء في سفر دانيال.

ومما ينطوي على اهمية تأريخية بشأن الحضور العربي، ان نابونيد كان في شمال الجزيرة العربية في الوقت الذي كان كورش الفارسي يحتل مملكتي بارثيا وآريا شرقي ايران، والصغد والبشكير في تركستان، وافغانستان، وجزءاً من الهند. وقد امتد الحكم الفارسي الآن من بحر إيجة الى البامير.

اما نابونيد فقد دخل الصحراء العربية وحاصر ادوم (تبعد ٢٨٠ ميلاً شرقي العقبة). وبعد ذلك دخل تيماء وراح ينتقل من واحة الى واحة حتى وصل

إياتريبو، كما تلفظ بالاكدية، وهي (يثرب). ويرى بعض المؤرخين ان ذهاب نابونيد البابلي الى شمال الجزيرة العربية كان بأمل كسب ود العرب ضد الفرس، في حين يرى آخرون ان سبب غيابه في الجزيرة العربية مدة طويلة استغرقت عشر سنوات ربما كان اضطرارياً، اي انه كان اشبه بالمنفى هناك من قبل اعدائه.

لكن قراءة لنص ورد على لسان نابونيد نفسه، مدون على بلاطتين عثر عليهما في مسجد حران الكبير في الخمسينات من قرننا، تقدم لنا تفسيراً اوضح لأسباب غموض الوضع في بابل وتردي الوضع الاقتصادي في المنطقة في السنوات العشر أو اكثر التي سبقت سقوطها. فالظاهر ان جفافاً غير اعتيادي عم وادي الرافدين أو منطقة الهلال الخصيب من الساحل الشامي حتى جنوب العراق على مدى هذه السنوات. وفي السنة العاشرة لغياب نابونيد جادت السماء على المنطقة بامطار غزيرة، الى حد ان الناس في بابل وسورية استفادوا من غلّة الارض في موسمين، في نيسان وتشرين. وبكلمات نابونيد: «إن أدد، حامي السماء والعالم السفلي وفر لهم تحت اوامر سين المطر حتى في عزّ الصيف، في الاشهر الآتية: حزيران، وتموز، وآب، وايلول، فكان بوسعهم ان يجلبوا لي (لأجل مساندتي) وفرتهم دون ان يضغطوا على انفسهم».

لكن هذه النعمة، العابرة المتأخرة، جاءت بعد فوات الاوان، ولم تسعف بابل والمنطقة الواقعة تحت نفوذها بعد الضيق الاقتصادي الذي عانت منه طيلة السنوات السابقة.

وفي غيابه، وكّل نابونيد ابنه بعل -شار- اوصور (أو بلشزار كما جاء في التوراة) ليحكم بابل؛ وهو جندي محنك لكنه سياسي فاشل، تضاءل نفوذه امام تصاعد قوة الجناح الموالي للفرس. وقد انتهج الفرس آنذاك سياسة ذكية في كسب ود فئات واسعة من سكان بابل بالطرق السلمية وبالوعود الكاذبة.

وكما مرّ بنا سابقاً، كان الايرانويون والميديون الذين تربطهم بهم صلة قربى وثيقة – ولا نقول حميمة – قد دخلوا ايران اول الامر من الشمال في اواخر الالف الثاني ق.م.، او اوائل الألف الاول. وفي ختام القرن السابق اعتلى آريا رامنيس، حفيد اخمينس (الذي سمي باسمه الاخمينيون)، عرش اصفهان وشيراز. والى الغرب من ذلك، عند حدود عيلام، اعتلى شقيقه كورش الاول عرش أنشان. لكن مما تجدر الاشارة اليه ان هاتين المملكتين الايرانيتين كانتا خاضعتين للميديين الاكراد، انما يبدو ان الفرس سحبوا البساط من

تحت اقدامهم. وفيما بعد تزوج قمبيز الأول، ابن كورش الأول، ماندانة Mandane إبنة سيده الميدي أستياجس Astyages. ومن هذه الزيجة ولد كورش الثاني مؤسس الامبراطورية الايرانية. وعلى اية حال كانت الساحة مسرحاً لصراع ثلاثي بين الفرس والميديين والبابليين. وكان نابونيد، آخر ملوك بابل، يحلم باستعادة حران الواقعة بين دجلة والفرات، ليس فقط لاغراض دينية أو عاطفية (فيها ضريح امه). بل لأن هذه المدينة تحتل مركزا مهماً في الطريق التجاري والعسكري الى سورية والأناضول، وكانت على جانب كبير من الاهمية الاستراتيجية للحفاظ على أمن بابل. لكنها كانت بيد الميديين منذ العام ٦١٠ق.م. فطلب نابونيد العون من كورش الثاني الذي لم يتردد في الاستجابة له. ودارت رحى حرب ضروس انتهت بفوز الفرس وأسر أستياجس ملك الميديين، بعد ان خانه قائد جيشه. وبأعتراف نابونيد استطاع كورش ان يحقق الغلبة عليهم مع انه كان ملكاً صغيراً يقدم الجزية لجده الميدي – من جهة امه – أستياجس. وهكذا، فان الدنيا دول، يوم لك ويوم عليك.

وبعد تدهور الاحوال الاقتصادية في بابل، توجه اليها كورش غازياً في عام ٥٣٩ق.م. وكان نابونيد قد عاد يومذاك الى بابل من غيبته آو منفاه حسب تفسير بعض المؤرخين. وامر ابنه بلشزار ان ينشر جنده على طول دجلة ليحمي العاصمة بابل. لكن الفرس كانوا – الآن – يتمتعون بتفوق عددي في قوتهم العسكرية. كما ان كوبارو Gubaru حاكم كوتيوم Gutium (آي آشور) الذي كان موالياً للبابليين والذي كان المفروض به ان يحمي جناح الجيش البابلي الايسر، انضم الى العدو، فسقطت بابل.

وفي عهد داريوس الاول ثارت بابل ضد المحتلين الاخمينيين، بقيادة نيدينتو-بعل الذي ادعى انه «نبوخذنصر، ابن نابونيد». واعلن نفسه ملكا على بابل. فزحف داريوس بنفسه الى بابل يقضي على الثورة وقتل نيدينتو-بعل. وبعده ثار نبوخذنصر الثالث وحكم بابل من تشرين اول الى كانون اول ٥٢٢ق.م. وفي آب ٥٢١ق.م. الغى البابليون الهدنة للمرة الثانية. وكان الثائر الذي ادعى ايضاً انه «نبوخذنصر ابن نابونيد» آرمنياً (من اورارتو)، اسمه آراخا بن هالديتا. فأرسل اليه داريوس احد جنرالاته. وتمت خوزقة آراخا واشراف بابل وانصاره.

ثم قضي ايضاً على نبوخذنصر الرابع في ٢٧ تشرين الثاني ٥٢١ق.م. وفي عهد احشويرش قام البابليون في ٤٨٠ق.م. بآخر ثورة في محاولة لاستعادة حريتهم. واستناداً الى نصوص من دلبات، وبارسيبا، وبابل ان بعل-شيماني

وشماس - اريبا تمت تسميتهما ملكين على التوالي. ثم قضي على الثورة بوحشية هذه المرة. ويقول المؤرخ اليوناني الشهير هيرودوتس الذي زار بابل بعد هذه الاحداث بعشرين عاماً ان أحشويرش الملك الفارسي اخذ من معبد ايساجيلا تمثال مردوك الذهبي الضخم.
وفي عهد احشويرش تم استنزاف بابل وآشور بالضرائب الفادحة، فكانتا تدفعان الى الملك الفارسي ضريبة سنوية مقدارها ألف تالنت فضي، وتزودان البلاط الفارسي بالطعام اربعة اشهر من السنة. وحسب هيرودوتس ان حاكم بابل الفارسي كان يستلم يومياً اردباً من الفضة (الف باينت) ويطعم ٨٠٠ حصان و١٦٠٠٠ مهرة، وكانت كلابه الهندية تطعم من قبل اربع قرى.
وفي العام ٣٣١ق.م. توجه الاسكندر الى بابل، فلقي استقبالاً حارا من البابليين الذين كوفئوا باعادة بناء معبد إيساجيلا. وفي اليوم الثاني من حزيران، سنة ٣٢٣ق.م، وقبل ان يبدأ بحملته العربية، أصيب الاسكندر بمرض الملاريا على ما يعتقد، وفي ١٣ حزيران توفي عن ٣٢ عاماً. ويُعتقد ان جنرالات الاسكندر تقربوا الى الاله البابلي مردوك في معبد ايساجيلا ليشفي سيدهم.

قبل ايام كورش شهدت بابل كثيراً من السلالات الاجنبية تفرض وجودها ثم تزول، لكن الجميع كانوا يذوبون في بابل أو انها تهضمهم. والآن، على اية حال، اخذت تظهر عوامل جديدة في الشرق الأوسط واخذت تحل اديان ومعتقدات جديدة بالتدريج محل تلك القديمة في وادي الرافدين. حتى المؤسسات الاجتماعية تعرضت للتغير. وحتى نظام الكتابة حلت محله الابجدية الآرامية الاكثر عملية، لانها تتألف من ٢٢ حرفاً فقط. لكن الكتابة المسمارية استمر استعمالها في الامور الدينية والعلوم الفلكية: فقد دام استعمالها في الفلك حتى القرن الاول الميلادي، كما بقي استعمال الكتابة المسمارية سارياً في بعض الوثائق المالية. ووصلت الينا نصوص عديدة من هده الكتابة لتجار اثرياء و«بيوت مصرفية» في بابل ونيبور.
اما عن طبيعة الحياة السياسية في مجتمعات وادي الرافدين فهناك دلائل تشير الى ان الجماعات السكانية في سومر في مرحلة ما قبل التأريخ كانت ديمقراطية في تركيبتها، طبعاً ليس بالمعنى الحديث لكلمة ديمقراطية. وقد أشار جاكوبسن الى ان اقدم صيغة لحكومة المدينة - الدولة كانت ذات مجلسين تشريعيين يتألفان من المواطنين الاحرار، هما مجلس «الشيوخ»

وهو المجلس الاعلى، ومجلس «الرجال» وهو ادنى منه. كان هذا المجلس الثاني يدعى للاجتماع عند الطوارئ، وتتخذ قرارته بالاجماع، ليختار، قائدا مؤقتاً لينفذ إرادات المجلس. وبتطور المجتمع، اصبح مركز هذا القائد اقوى واكثر رسوخاً. ويرى البعض في هذه الشخصية القيادية المنتخبة – اصل الملك lugal (الرجل الكبير). ويدعى المجلس بالسومرية Unken ويعني بالحرف الواحد «دائرة الناس». وقد وردت الاشارة اليه في اقدم النصوص السومرية (اوروك IV) ويسمى المجلس بالبابلية Pukhrum، ومجلس الشيوخ Shibutum (الشيبة). وفي المرحلة البابلية القديمة – أي في زمن حمورابي – كانت كلمتا alum (مدينة)، وPukhrum (مجلس) مترادفتين.
وعندما كانت بابل تحت النفوذ الآشوري في زمن آشور بانيبال، ثُبت في محضر مباحثات الملك آشور بانيبال مع مواطني مدينة بابل الخاضعة له «ان بابل قلب المعمورة، وكل من يدخل اليها يحصل على امتيازات معينة. حتى الكلب الداخل الى بابل يمنع قتله». وكانت المدن الآشورية، بدافع الحفاظ على ادارتها الذاتية القديمة واستقلالها عن دائرة اختصاص الملك، تسبب لملوك آشور هموماً اكثر من البلدان التابعة.
واستمر نظام المجلس الشعبي في جميع انحاء العراق الى ايام الفرس والاسكندر المقدوني، ثم زال فيما بعد بحلول القرون الوسطى.
وكانت بابل مدينة كوزموبوليتية وتشكيلة سكانها فسيفسائية. فإلى جانب سكانها الاصليين توافدت اليها القبائل الكلدانية والآرامية، وكان فيها جاليات مصرية وايرانية وعيلامية وليدية وارمنية وعربية وهندية ويونانية. وكان الجميع يعاملون سواسية، ويمارسون حقوقهم الدينية بحرية. ومن ايجابيات الماضي ان الناس في تلك الايام لم يعرفوا شهادة الجنسية ولا جوازات السفر ولا الخلافات القائمة على اساس اثني أو عرقي. وتنبغي الاشارة الى ان القانون في بابل تجاوز الكثير من بنود شريعة حمورابي، وبلغ اوج تطوره في المرحلة الاخمينية، واثر ايضاً على صياغة القانون الروماني، كما يقول محمد داندامايف ولوكونين.
وكانت هناك اعياد كثيرة في بابل، بما في ذلك عيد الشكر، وعيد جز الصوف. لكن اهم الاعياد كان عيد رأس السنة الجديدة. في العهد البابلي الجديد (ايام نبوخذنصر) كان هذا العيد يُحتفل به في الأحد عشر يوماً الاولى من نيسان البابلي (وفي حسابنا يقع بين آذار ونيسان) حيث يقع فيه الاعتدال الربيعي. وفي اليوم الرابع من ايام هذا العيد تُمثَّل ملحمة الخليقة على غرار التمثيليات الاوروبية الدينية في القرون الوسطى. وفي اليوم

الخامس يظهر الملك. ولا يُسمح له بالدخول إلاّ بعد ان ينزع شارة السلطان. وينبغي ان يتعرض للاذلال، متيحاً لكاهن الششكالّو ان يضربه بكف قوي على خده، وبعد ذلك يسحبه الكاهن من اذنه ويجبره على الركوع الى الارض. ويتعين على الملك ان ينطق بالكلمات الآتية امام الاله مردوك. «لم ارتكب خطيئة، يا إله البلدان، ولم اشك في الوهيتك. لم ادمر بابل: لم اتسبب في سقوطها... معبد ايساجيلا لم اهمل طقوسه. لم امطر خدود المواطنين بالصفعات... لم اذلّهم. كنت شديد الغيرة على بابل: لم ادمر اسوارها....».

بعد ذلك يطمئن الكاهن الملك بقوله:

«لا تخف... الإله بعل سيصغي لصلاتك. سيباركك الى الابد. سيقضي على عدوك، وعلى خصمك».

ثم تعاد شارة السلطان الى الملك، ويُصفع مرة أخرى. يصفعه الكاهن صفعة قوية على خده. فاذا انثالت الدموع من عيني الملك فمعنى ذلك ان بعل استجاب. اما اذا لم تنهمر الدموع من عيني الملك، فان بعلاً غاضب. وسيظهر العدو ليقضي على ملكه.

ان اذلال الملك في عيد رأس السنة البابلي بتلقيه صفعتين قويتين على الخد، وبجرّ اذنه، يعني انه لم يكن مصوناً غير مسؤول. او اذا كان كذلك في ايام السنة، فان رنين الصفعة يبقى له رجعه البعيد في ذاكرته، اذا استعرنا كلمات فؤاد التكرلي. وسيبقى يتوقع هذه الصفعة وجر الاذن كل عام. وهذا في رأينا يعكس شكلاً من اشكال الرقابة على الملك في بابل يوم لم تكن الاسس المادية لممارسة الديمقراطية متوفرة.

لكن عيد الاكيتو، او رأس السنة الجديدة، في بابل، استمر حتى ايامنا، بعد ان طرأت عليه تغيرات كثيرة. كنا نحتفل به كل عام في بيوتنا، نحن عربا واكراداً. عند العرب هو عيد دورة السنة؛ وعند الاكراد هو النوروز، وفي واقع الحال ان الفرس والاكراد اخذوه من بابل واعتبروه عيد رأس السنة الجديدة. وفي ايام العباسيين كان اهل بغداد وسامراء وغيرهما من مدن العراق يحتلفون بأيام الاعياد، الاسلامية، وغير الاسلامية، كعيد النيروز، كما كانوا يسمونه. ونوه بذكره الشعراء. قال البحتري:

لا تخلُ من عيشٍ يكرّ سروره　　　ابداً ونيروزٍ عليك معادِ

ويُروى ان المتوكل كان يُهدي فيه هدايا متنوعة فيها تماثيل من عنبر وورود حمراء (عن شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، ص٩٥. الطبعة الثانية. دار المعارف بمصر). وكنا نحتفل به في يوم الاعتدال الربيعي في ٢١ آذار

من كل عام. وهو اول ايام عيد راس السنة البابلي الذي كان الاحتفال به يستمر في بابل احد عشر يوما.
وكانت دورة السنة ترافقها طقوس عندنا. قد ترجع الى اصول بابلية. من بين هذه الطقوس ان عوائلنا كانت تحرص على ان تجمع سبع مواد (والسبعة رقم بابلي بدلالاته) تشتمل كلها على حرف السين. لا اذكر هذه الاشياء السبعة بالدقة نفسها، لكنني اظن انها كانت تشتمل على المواد الآتية: سمسم، سمك، سلق، كرفس، خس، دبس، سبانخ...
وكنا نبذر حب الحنطة او الشعير في اباريق صغيرة، للذكور من افراد العائلة، وجرار صغيرة (تُنْكَة) للاناث، تملأ ماء، ليبرعم وينمو الحب قبل العيد. والتنكة، بالمناسبة، اسمها سومري، Dug.
اما لماذا تشتمل المواد السبع التي كنا نتناولها في عيد دورة السنة على حرف السين، فاظن ان ذلك مرتبط بسين – الإله القمر عند الاقوام الساميّة.

ملحق

مع ان الحنطة والشعير كانا يزرعان في العراق القديم، الا ان الشعير كان الغلّة الرئيسية، لانه يتحمل التربة المالحة والجفاف اكثر من الحنطة. وكانت للحبوب والبقول اهمية كبيرة في طعام الازمنة ما قبل التأريخية في وادي الرافدين، لكن ذكرها لم يرد كثيراً في النصوص التالية لهذه المرحلة، ربما لأن السجلات كانت تقتصر بالاساس على غلال وسلع المعبد والقصر، والاقطاعات الكبيرة، وليس على زراعة البساتين والحدائق الصغيرة. واكثر ما يرد ذكره من الخضرة: البصل، والثوم، والكراث، واللفت، والخس، والخيار. وكانوا يستعملون الافاويه مثل الرشاد، والخردل، والكمون، والكزبرة. ولعل كلمة شمشامو الاكدية التي تقابل لفظة السمسم العربية كانت تطلق على بزر الكتان الذي كان زيته يستعمل قبل سنة ٦٠٠٠ ق.م. وكان الفستق واللوز يزرعان في المناطق الشمالية. وقد حاول سنحاريب (٧٠٥-٦٨١ق.م.) زراعة شجرة الزيت (الزيتون) في حدائق نينوى، اما في الجنوب فلم تنجح زراعته. وكان سنحاريب نفسه هو الذي ادخل زراعة الشجرة التي تثمر صوفاً، اي القطن.
وكان التمر غذاء مهماً، يمكن مقارنته بالزيتون في منطقة البحر المتوسط. ولعل النخيل دجن لأول مرة في جنوب وادي الرافدين، كما يقول زوهاري وشبيغل لكن شنيرلمان يقول ان زراعة النخيل بدأت في بلوجستان. وفي

الالف الاول ق.م. كان يصنع خمر من التمر. وهناك نصوص تعود الى اوائل الالف الثاني ق.م. يرد فيها ذكر ١٥٠ كلمة لمختلف انواع التمور. وكان العسل معروفاً، ويجتنى من النحل البري. لكنه كان نادراً في المراحل القديمة وغالي الثمن حتى في الالف الاول ق.م؛ اما الشمع فيستعمل لاغراض شتى، بما في ذلك العلاج الطبي، ولطلي سطح لوح الكتابة.

كان التمر والرمان اكثر الفواكه شيوعاً؛ وكان التفاح، والتين والكمثرى وبعض اصناف الاجاص معروفة.

وكانت المنتجات الحيوانية، كاللحوم، واللبن والجبن تدخل في قائمة طعامهم. لكن اللحم لم يكن مادة اساسية في الوجبة، وربما تناوله الفقير في الاعياد فقط. ولم يكن الحليب شائعاً كشراب لأنه كان يفسد بسرعة في مناخ بابل الحار، لكنه كان يوصف في حالات العلاج الطبي، وكان يخزن في معد الحيوانات وباختلاطه بالخميرة، يتخمر فيصبح منتجاً مفيداً، مثل الجبن والجبة (نوع من الزبدة ghee)، وهو لا يفسد بسرعة.

وكانت الخراف تُمدهم بصوف اجعد ومفيد صناعياً؛ وقد ظهر الصوف نتيجة للطفرة الوراثية بعد تدجين الخراف. هناك نقش لخروف على الطين من تبه سراب (قرب كرمنشاه) تظهر عليه الياف الصوف الجعداء بوضوح. وقد حصل هذا التطور في الألف السادس ق.م. على الاقل. وهناك ٢٠٠ كلمة سومرية تشير الى شتى اصناف الخراف، ومن بين اكثرها اهمية من الناحية الاقتصادية الخراف ذوات الإلية، وخراف الجبل. وكان شعر الماعز يستعمل ايضاً في حياكة السجاجيد (البسط) والاجرية (جمع جراب). وفي المراحل الاولى كان الثور الحيوان الوحيد للجر، لكن الاخدر استعمل منذ اواخر الالف الرابع لجر العربات ذوات العجلات. وكان الحمار حيوان الحمل الرئيسي، وبقي كذلك حتى بعد ادخال الحصان الذي استعمل في الالف الثاني ق.م. لجر معجّلات القتال بصورة خاصة. ولم يستعمل في الجيش في كتائب الخيالة الا في الالف الاول ق.م. ولم يكن الجمل حيواناً محلياً في وادي الرافدين. ومع انه كان معروفاً منذ زمن مبكر إلاّ انه لم يستعمل على نطاق واسع الا في الالف الاول ق.م. وبالدرجة الأولى عند القبائل العربية البدوية.

وكان السمك غذاءً اساسياً في المراحل المبكرة، وتعدد النصوص الاقتصادية منذ ايام سومر وحتى الفترة البابلية القديمة (٢٠٠٠ - ١٥٠٠ق.م.) انواعاً كثيرة من السمك (اكثر من ٥٠ صنفاً ورد ذكرها في النصوص السومرية). اما بعد ذلك فلم يرد ذكر السمك وصيده الا نادراً.

وفي اوروك فـي العهد البابلي الحديث كانت كلمـة صيـاد سمك تعني خارجا على القانون. وتذكر النصوص البط والاوز واصنافاً مختلفة من الطيور، لعلها برية، كما تذكر صياد الطيور ومربيها. وكـان الدجاج حديثاً نسبياً، لم يصل الا في الالـف الاول ق.م. ثم انتقل غرباً الى اليونـان في حدود ٦٠٠ق.م. وكان يعرف في سـورية «بالطائر الاكدي». وكان الجراد يعتبر سـائغاً شـهياً. هناك نحت صخري نـاتئ مـن خورسـاباد تظهر عليـه وليمـة ملكية يقدم فيهـا على سفافيد طويلة.

كـان سـكان وادي الرافدين يتنـاولون طعـامهم مرتيـن فـي اليوم، صباحـا ومساءاً. وتشتمل وجبة طعام الاثرياء، الى جانب الخبز، والبيرة، واللحم، على صحون دسـمة مختلفـة، ومعجنـات محـلاة بالعسـل. وكـان الجنود يزودون بـالطحين والنبيـذ. وكـانت جرايـات النبيـذ تدفع ايضـاً للموظفين الاداريين، وتتوقف كمياتها حسـب مراكزهـم. وكان الخمر يصنـع مـن اصنـاف شـتى من الفاكهـة، بمـا فـي ذلك العنـب الاحمر والابيـض، علـى الاقل منـذ الالف الاول ق.م. (عن كتاب بابيلون: لجوان اوتس).

هناك نص يرقى الى مـا بعد ايام حمورابي موقـع برموز غريبة تـدل على اسـم النـاسـخ، يتحدث عـن صناعـة نوعين من الزجـاج الاحمر؛ ويعتـبر هذا النص اقدم وصفة لصناعـة الزجاج معروفة حتى الآن. وفي المتحف العراقي نموذج من هـذه الصناعـة لكـأس زجاجيـة غامقـة الزرقـة عليهـا حزوز ملونـة بطلاء زجـاجي اصفر، وازرق، وابيض تعتبر من روائـع الصناعـات الزجاجية، عثر عليها في تل الرماح، ويرقى تأريخها الى حدود العام ١٤٥٠ ق.م.

وقبل ٣٠٠٠ ق.م. كان كيميائيو وادي الرافدين يتعاملون مع مواد مثل الكلس، والصودا، والسـليكات، ويخلطونها مـع مواد غير عضوية للحصول على مادة الطلاء الزجاجي، والزجـاج. ومن بين الاجهزة الكيمياوية التي عـثر عليها في عمليات التنقيب: بوتقات، واوانٍ للترشـيح، واجهزة للتقطير وتحضير االمواد، وقنان لاغراض شتى.

واذا كـانت اقدم فخاريات اكتشفت حتـى الآن، في المريبط في سورية، وترقى الى حدود ٨٠٠٠ ق.م. فقد عـثر على اصنـاف متعـددة من صنـاعـة الفخار في وادي الرافدين يرجـع تأريخها الـى الألف السـادس ق.م. امـا عجلـة الخزاف فكانت تستعمل على نطاق واسع قبل ٤٠٠٠ق.م.

وكـانت لصناعـات الصوف اهميـة كبيرة في سـومر القديمـة، وكـان الغزل، وقصر الملابس، وعملية تقصير أو تغليظ النسيج الصوفي بالنقع أو الاحماء، ونسـجه وصباغتـه متطورة على نحو تـام منذ الالف الرابـع ق.م. وتم العثور

على فلك مغازل للغزل في كل المستوطنات القروية المبكرة في وادي الرافدين.
وكانَ الصابون يصنع من زيت نباتي وقلويات نباتية منذ الألف الثالث ق.م. لكنه كان يستعمل لاغراض طبية في معظم الحالات... وعلى أية حال يبدو ان إنانًا كانت تغتسل بالصابون. قال تموز مخاطباً إنانًا:

اختاه لمَ اغلقت عليك الباب؟
ياصغيرتي لم اغلقت عليك الباب؟
(وتجيبه إنانًا قائلة)
كنت استحم، كنت اغتسل بالصابون
اغتسل بالابريق المقدس
اغتسل بالصابون في الطست الابيض
كنت ارتدي ثياب الملوكية، ملوكية السماء
لهذا اغلقت على نفسي الباب.

أهم مصادر هذه المادة (باللغة الانكليزية):

(١) العراق القديم، تأليف جورج رو.
(٢) بابيلون، تأليف جون اوتس.
(٣) اركيولوجيا وادي الرافدين، تأليف سلوين لويد.
(٤) نصوص قديمة من الشرق الأدنى، اعداد بريتشارد.
(٥) الاقوام الهندية الاوروبية تأليف مالوري.
(٦) التأريخ الجديد للشرق القديم (مترجم الى العربية) بقلم مجموعة من الباحثين السوفييت.

قضايا المرأة - ملف

وجهة نظر انثروبولوجية:

العنف والإذعان
المرأة والسلطة

موريس كَودليه

أود ان اعرض بإيجاز رأياً انثروبولوجياً حول العلاقة بين المرأة والسلطة السياسية. وتناولي لهذا الموضوع يستند الى خبراتي العلمية واساسها، اولاً، ما توصلت اليه من معرفة خلال بحوثي الميدانية الطويلة في مجتمع غينيا الجديدة الذي يوصم بـ«البدانية». ففيه عشت وبحثت بضع سنوات. وبنية هذا المجتمع لا تقوم على الانقسام الطبقي. وليس فيه طوائف اجتماعية وراثية caste، بل تتالف بنيته من جماعات النسب والعشيرة، وهي اما جماعات مهيمنة واما خاضعة. ومؤسسات هذا المجتمع وقيمة وممارساته ورموزه ما زالت تتميز بهيمنة الرجل على المرأة. وقد توسعت في البحث لان الباحث الانثروبولوجي لا يستطيع الاستغناء عن مقارنة المجتمع الذي يجري عليه بحوثه الميدانية مع مجتمعه هو. وكذلك مع المجتمعات الأخرى التي درسها غيره، والتي تنطوي على انماط مختلفة من التنظيم الاجتماعي والعلاقات بين الرجل والمرأة.

لا ريب ان دراسة العلاقات بين الجنسين انثروبولوجياً تتطلب تجرد الباحث عن ثقافة وطنه، وهي الثقافة الغربية السائدة في اوروبا والولايات المتحدة الامريكية، كما ان على الباحث ان يتجرد من كونه ذكراً او كونها انثى.

سأوحد المعطيات التي جمعتها من مجتمعات شتى. وأرتبها ترتيباً يساعد

* باحث ومفكر فرنسي.

على تبيّن الطرق العديدة لاستبعاد المرأة عن بعض اشكال ومواقع السلطة. ولا يعني ذلك ان المرأة لا تمتلك سلطتها النسوية أو لا تؤثر على سلطة الرجل.

قبل كل شيء، ماذا نقصد بالسلطة «السياسية»؟ يبدو لي ان العبارة تتعلق بممارسة بعض الوظائف التي تتجلى بأشكال ومؤسسات تختلف من مجتمع الى آخر. وبوسعي تمييز ما لا يقل عن اربع وظائف يمكن ان تجتمع بأشكال شتى:

١- امتلاك السلطة السياسية يعني صلاحية تمثيل المجتمع برمته في امور هذا المجتمع أو في العلاقة مع مجتمعات أخرى سواء كانت الصلاحية مزعومة أو مخولة.

٢- امتلاك صلاحية التحكيم في سبيل المصلحة العامة، زعماً أو تخويلاً، بين مصالح الافراد أو الجماعات التي لا بد ان تثير داخل المجتمع نزاعات تعرض بقاء المجتمع الى الخطر

٣- الامتلاك بالزعم أو التخويل لصلاحية اتخاذ وتنفيذ القرارات وممارسة الادارة لصالح الجميع، سواء بأقناع أم بإرغام الآخرين على الموافقة. هكذا فأن السلطة السياسية برمتها تعني امكانية اللجوء الى العنف (أو التهديد بالعنف) سواء كان جسدياً أم نفسياً أم مادياً. كما ان السلطة تنطوي على مناشدة الآخرين القبول والولاء في سبيل اعادة انتاج النظام الاجتماعي.

٤- ان السلطة السياسية برمتها على ارتباط خاص بأشكال أخرى من السلطة، بحيث اما ان ترتبط بممارسة وظائف أخرى أو حتى تختلط بها، أو تستبعدها عن تلك الممارسة. فسلطة طائفة المقاتلين في الهند، على سبيل المثال، متميزة عن ومرتبطة بسلطة طائفة رجال الدين البراهمانيين التي تحتكر الاحتفال بتقديم النذور التي يعتقد انها ضرورية لادامة المجتمع والكون.

ان تعريف السلطة السياسية بوظائف معيّنة لا يقرر مسبقاً اشكال المؤسسات التي يمكن ان تتخذها ولا الصيغ التي تجتمع فيها هذه الوظائف. فهذا التعريف ليس سوى اداة من ادوات التحليل. كما انه لا يقرر مسبقا سمات الشخصيات المتنفذة، مثل الملوك والشيوخ والكهنة والسحرة والجنرالات الخ، وهو بالمثل لا يقرر سمات من تتجسد فيهم هذه الوظائف من رجال ونساء، وما ينجم عن ذلك من وجودهم، الى هذا الحد أو ذاك، في مركز المجتمع، وبالتالي فوق بقية اعضائه.

وقبل المقارنة بين بضعة من اشكال السلطة، والمواقع التي يحتلها الرجال

والنســاء ضمن هذه الســلطة، ينبغي القول ايضــاً ان كافة المجتمعات يمكن تصنيفهــا حول محورين. فمن جهــة هنــاك مجتمعــات تخلو من الطوائف الوراثية، والطبقات، والفئات الكهنوتية. فهي تتكون من جماعات اجتماعية قائمة على علاقات عائلية، أو مكانية (محلية) أو غيرها. وعن هذه العلاقات تتمخض اشــكال من التضــامن والتنــاقض. وتلك هي مجتمعــات قبليــة أو جماعات محلية و/أو اثنية تنقسم الى عشائر او سواها من وحدات الاسرة والمكان. ومن الجهة الأخرى، هناك المجتمعات المتكونة من مراتب اجتماعية تمارس وظائف متمايزة لكنها متكاملة، فتحدد للناس موضعاً ومكانة عالية أو واطئة في السلم الاجتماعي. وهذه المجتمعات تنقسم الى طوائف وراثية أو طبقات، أو فئات كهنوتية، وهي تتمفصل حول مركز يمثل قمة سلم المراتب. ويتخذ هذا المركز شكل المشيخة أو الدولة اللتين توحدان وتمركزان كل أو اغلب السلطة السياسية ضمن المجتمع وفوقه.

لنمر بسرعة على بعض التشكيلات السياسية لكي ندرك مدى تنوعها. فهذه اللمحات تفتقر الى العمق لكنها تكفي تمهيداً للتعرف على المواقع التي يمكن للرجال والنساء احتلالها في المؤسسات السياسية التي نجدها في تلك التشكيلات. لقد رتّبت هذه الأمثلة ترتيب الصور الصغيرة في قاعة للعرض ابتداءً من اقزام (المبوتي) وانتهاءً بالاشكال الجمهورية والغربية للسلطة. لكأننا ازاء تطور اشكال السلطة التي يفترض تتابعها في مسار تقدم البشر. غير ان الانسانية لا تتطور دونما تاريخ أو انها، على الاقل، تحقق هذا التطور من خلال تاريخ كل جماعة.

لنأخذ اولاً اقزام المبوتي الذين يعيشون في غابة زائيرية. ليس لدى هؤلاء شيوخ أو كنهة بالوراثة. فكل فرد من الرجال والنساء يبجّل ويمجّد الغابة، باعتبارها الام والأب والصديق والخليل في آن معاً. فالغابة هي التي تمدّهم بالطرائد والمأوى والخ. فالى جانب الطقوس التي يؤدي الرجال والنساء الادوار فيها على قدم المساواة، توجد امور أخرى يهيمن الرجال فيها على النساء. فلصياد الفيل الكبير سلطة على الجميع غير انه في الواقع لا يستطيع ان «يأمرهم». ولكن هناك مجتمعات أخرى تعيش على الصيد وجمع الثمار، مثل سكان استراليا الاصليين، تكون فيها سلطة الرجال اوضح بكثير، فهم الذين يتولون اقامة الطقوس الهامة لانتمائهم الى فئات اجتماعية محددة، وهم الذين يتولون التمثيل بين الجماعات. وجدير بالذكر ان السجال الذي يدور في ميدان الانثروبولوجيا يتخلله موقفان انتقائيان لانصار الحركة النسوية في جانب، ولخصومها في الجانب الآخر. وكلا الجانبين ينتقي

مجتمعات بدائية بعينها لمجابهة الطرف الآخر بالحجة، على اعتبار ان تاريخ الانسانية بدأ هناك. فالنسويات يتصورن ان الانسان البدائي كان على غرار اقزام المبوتي حيث تسود المساواة بين الجنسين الى حد كبير. اما اخصام الحركة النسوية فيفضلون الانطلاق في الحجة من اوضاع اهل استراليا الاصليين أو المجتمع البدائي في غينيا الجديدة.

فهو مجتمع من الصيادين والمزارعين، وينقسم الى افخاذ حسب نسب الأب، وينتظم في فئات عمرية يلتحق بها الرجال في طقوس خاصة، ويتزوج الرجل بأستبدال اخته الحقيقية أو التي تنتمي الى فئته العمرية بالزوجة. اما المولود فيلتحق بفخذ الأب. غير ان للمرأة حقاً مطلقاً في قتل الطفل عند الولادة أو قبل ان تستأنف الحياة المشتركة ضمن الفخذ مع زوجها. ان تصورهم للفرد والحمل بالطفل نابع من نظامهم الابوي المتميز بعدم المساواة بين المرأة والرجل. فهم يعتقدون ان الجنين يتكون من حيمن الرجل في رحم الأم، اما حليب الام فينشأ، هو الآخر، من حيامن الرجل. وسر هذا المجتمع، المتميز بشدة اخضاع المرأة، يكمن في معتقدين يستمد منهما الرجل سلطته. فمن جهة، هناك قدرات تمنحها الارواح له مباشرة، دون ان تمر من خلال المراة، وهناك من الجهة الأخرى سلطات انتزعها الرجل من المرأة، فهي، اذن، سلطة نسانية انتزعها الرجل ليستخدمها للصالح العام.

نبقى في منطقة الاوقيانوس لنعاين ايضاً حالة جزر تروبرياند Trobriand حيث اجرى مالينوفسكي بحوثه، لنجد مجتمعاً اوموميا من المزارعين وصيادي السمك، وهذا المجتمع ينقسم الى ارستقراطية قبلية وراثية تحتكر السلطتين الدينية والسياسية، والى اغلبية من العوام. ولا يتبع الاطفال الأب بل الأم واشقاءها. ويعتقد الناس ان الجنين يتكون في المرأة من دم الحيض الذي يمتزج بروح من ارواح عشيرتها. فروح السلف يحل في رحم المرأة ليتجسد فيه. والنساء يمثلن المحور الابدي لاعادة انتاج سلالة الامهات. فلهن موقع جوهري في طقوس الولادة والممات. غير ان اهم المسؤوليات السياسية والطقوسية تظل بيد الرجال، اشقائهن.

لقد درست الباحثة (جيل ناش) مجتمع ناكوفيسي في جزر سليمان. وهو مجتمع امومي النسب، وفيه ينتقل الرجال عند الزواج الى بيت اهل الزوجة التي تعيش سوية مع شقيقاتها وأمها وجدتها. لذلك تتألف القرية من جماعات نسوية تسيطر على الارض وتزرعها وتمارس السلطة السياسية الفعلية على مستوى الجماعة، وهي سلطة لا تمثل مجرد امتداد لسلطة النساء داخل البيت. لكن هناك حرفتين فقط يحتكرهما الرجال: الحرب

والتجارة مع اقوام تسكن بعيداً، وهما مصدر اخطار كبرى عند هذه القبائل التي تمارس الحروب وتأكل لحم البشر. ولعل الناكوفيسيين هم من المجتمعات النادرة الخالية من الطبقات والطوائف الوراثية وتزاول فيها النساء هذا المقدار الكبير من مسؤوليات السلطة السياسية التي عادة ما يحتكرها الرجال.

لننتقل الى جزر بولينيسيا حيث نجد مشيخات عالية التطور ينطوي بعضها حتى على جنين الدولة. فهناك لا يفرق الناس في النسب الى سلف من الذكور أو الاناث. فالرجال والنساء متساوون في نظام النسب، بل ان المجتمع يعتبر البنات، على مستوى الطقوس اقدس من اشقائهن. اما في قمة هرم المجتمع فان اخت الشيخ مقضي عليها ان تبقى عانساً، ان هي لم تستطع ان تعثر على زوج بمستوى مكانتها الرفيعة بين العشائر المجاورة. فالشيخ وكذلك اخته يدعيان انهما من سلالة الالهة التي تتوحد فيها صفات وقدرات ذكورية وانثوية في آن معاً، فهي معبودات لها صفات الجنسين معاً.

لنذهب الآن الى افريقيا الوسطى ونأخذ مملكة (اللوفيدو) على سبيل المثال. التاريخ يسجل ان ملكة قد حكمت هذه المملكة وكانت تعتبر متحكمة بمقاليد الامطار، وانها مصدر الوفرة للغلال والمواشي. وموجز القول انها كانت مانحة الخير الشامل للمملكة. ومعين الخصب هذه قد ضمنت لذريتها الدم الملكي بنكاح شقيق لها، رغم ان مثل هذا النكاح محرم على العوام. وفي مصر ساد الاعتقاد ان فرعون هو وليد الزواج بين ايزيس واوزيريس، وهما آلهان شقيقان، فأنجبا مولوداً يعيش بين البشر بصفة آله يجلب الغرين من النيل كل عام لتسميد الحقول المصرية.

ونختتم هذا العرض بكلمات عن المساواة «القانونية» بين الرجل والمرأة، ما دام الفرد مواطناً بالولادة أو بالحق الشرعية. لم ينشأ القانون الا في زمن متأخر في ممالك وجمهوريات الغرب. ونحن نعرف الهوة التي تفصل المساواة القانونية عن الواقع المعاش الذي يناقضها بأستمرار عدم المساواة، في صميم المجتمعات الغربية، بين الجنسين من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ان اللمحات التي عرضناها اقتصرت على الظواهر التي طافت على السطح، وكان الغرض منها اعطاء مجرد فكرة عن التنوع الهائل في التشكيلات السياسية الماثلة في عالم اليوم وما سبقها من تشكيلات توالت في التاريخ دون ان يجري ذلك التوالي بصورة ميكانيكية قط. فليس هناك قانون عام يحكم تطور حياة البشر، وكذلك ليس هناك حتمية في تعاقب اشكال الحياة

الاجتماعية في وجهة واحدة.
لا نريد الخوض في مناقشة المعايير التي تسمح لنا ان نطلق صفة «المجتمع» على أي جماعة من الناس. وبوسعنا القول ان هناك في عالم اليوم حوالي عشرة آلاف من «المجتمعات». انها جماعات يشغل كل منها رقعة مشتركة، وتمتلك هوية تميزها عن الجماعات المجاورة لها، وترتبط مكوناتها، افراداً وسلالات، بعلاقات عديدة، وهم يتصرفون تصرفاً يؤدي الى اعادة انتاج الجماعة، فهم متحدون ضمن الجماعة رغم ان لكل منهم ما يميزه. ولهذا نجد ان تحليل مكانة المرأة والرجل في المجتمع مهمة ضخمة لا يمكن اختزالها الى بضع عشرات من الحالات حتى وان توخينا الحرص في اختيارها.
قبل حوالي ٦٠٠٠ سنة نشأت، هنا وهناك، الدولة باعتبارها شكلاً تنظيميا خاصاً للسلطة السياسية، وبذلك تمثل التنظيم الاشمل للمجتمع. نشأت الدولة في مصر اولاً، وبعدها في شمال الهند، وفي الصين، ثم في امريكا الوسطى والاندس.
وحتى في ايامنا، ما زالت حياة اكثرية المجتمعات البشرية غير منظمة وفق اسس الدولة، وذلك رغم ان تلك المجتمعات تنتمي الى دول وامبراطوريات، سواء طوعاً ام قسراً. فمجتمع الدولة ينشأ مع انقسامه الى اقسام اجتماعية واسعة تتموضع بين الطوائف والطبقات والطوائف الوراثية المنغلقة. وهذه الاقسام تخترق وتخضع التكوينات العشائرية والقبلية القائمة في المجتمعات غير الطبقية. وقد ظهر مجتمع الدولة خلال تطور اشكال جديدة للانتاج في الزراعة وتربية الحيوانات أو اتساع نطاق التبادل التجاري في الداخل ومع الخارج. ان ما يميز مجتمع الدولة هو بالضبط، ان الوظائف التي كانت منفصلة في بعض الحالات، ومجتمعة مختلطة في اغلب الحالات، قد اضحت في مجتمع الدولة بارزة الحدود وسبب الوجود للانقسام الدائم، المتوارث في غالب الاحيان، الى طوائف متميزة وطوائف منغلقة تتكامل مع بعضها ولكنها تراتبية (مثل طوائف الكهنة، والمحاربين والتجار الخ).
وإذ يكون الفرد «البدائي» مزارعاً ومحارباً في آن واحد، لكنه ليس «فلاحا» لدى الغير، فاننا نجد في مجتمع الدولة مزارعين قد تحولوا الى مجرد فلاحين تابعين أو اقنان. هذه التحولات التاريخية، وما رافقها من تغير في المنطق الاجتماعي، قد غيرت ادوار النساء والرجال في المجتمع تغييراً جذرياً، مع اضافة ادوار جديدة. ولكن مهن الحرب، والتجارة مع المجتمعات البعيدة، بقيت في يد الرجال، الى هذا الحد أو ذاك، في كل مكان. وخلال

تكوين وتحوير واعادة توزيع الوظائف والادوار، وجدت المرأة نفسها مستبعدة، بطرق شتى عن اداء وظائف السلطة. فنجد محاربين من الرجال لكننا نادراً ما نجد نساء محاربات ما عدا اللواتي تشكل منهن الحرس الملكي في بضع ممالك غابرة في غرب افريقيا. غير اننا نجد الكاهنات في ديانات شتى. ونجد ملكات يمارسن الحكم رغم انهن محاطات بمستشارين من الرجال. وهكذا دواليك. ولا داعي لمقارنة مجتمع الطوائف المنغلقة بالمجتمع الطبقي لتوضيح هذا التباين. حسبنا مقارنة مكانة المرأة بين قبيلتي باوروبا وناكوفيسي. فالمرأة محرومة في الاولى من امتلاك الارض، لكن ليس من الاشتغال عليها، وهي مستبعدة من امتلاك واستعمال الاسلحة وكذلك من انتاج وسائل التبادل ولكن ليس من استخدام النقود. وهي مستبعدة من الطقوس التي يميز بها المجتمع نفسه عن المجتمعات المجاورة، وكذلك من الصلاة للشمس والقمر باعتبارهما منبع الحياة. اما في قبائل الناكوفيسي فنجد المرأة تملك الارض، وتدبر جزءاً كبيرا من الحياة العامة في القرية، وتستولي على النقود التي يكسبها الزوج من عمله اجيراً في المزارع الكبيرة. وتلعب المرأة دوراً هاماً في الطقوس، ثم ان الاطفال ينتسبون الى الأم لا الى الأب. فعلى الرجل ان يتبع المرأة ليكون له ذرية.

وبصرف النظر عن هذا التنوع في الاشكال والمؤسسات يبدو لي انه حيثما تستبعد المرأة أو تخضع الى ادوار ووظائف يسيطر الرجال عليها فعلاً، تنشأ سيرورات متشابهة من حيث الاساس. فلا بد، في كل الاحوال، من جعل هذا الاستبعاد أو هذا الإخضاع ممارسة مشروعة. فالهيمنة لا تعتمد فقط على العنف، سواء كان جسدياً أم نفسياً. فلا بد، في الاقل، ان ينطوي الامر دوماً على مشاركة جزئية من كلا الجنسين في اضفاء المشروعية على الاستبعاد والاخضاع، وهذه المشاركة تنطوي على شكل معين من القبول في ضمائر الافراد وارادتهم، وبهذا فان المرأة تعاون من يُخضعها.

ويجري اضفاء الشرعية على استبعاد المرأة من خلال الحط من قدراتها على الاداء والانتاج (كالصيد والتعدين... الخ) أو على اعادة الانتاج (كما هو الحال حين يدعي الرجال ان طقوس ضم الاولاد الى العشيرة انما هي ولادة جديدة ولكن خارج رحم المرأة) أو الحط من قدرتها على تمييز النافع من الضار للمجتمع، وبالتالي من تولي حكمه. فمن خلال سيرورة الحط من قدرات المرأة كوسيلة لاستبعادها يعزو الرجل، في ذهنه، للنساء ما ليس

فيهن من جوانب الضعف، او ينسب لنفسه ما ليس فيه من جوانب القوة، فهو بذلك يرفع شأنه ويحط من شأن المرأة في ذهنه. وحتى حين يعترف الرجل ان للمرأة قدرة لا يمتلكها هو (كأنجاب الطفل من رحمها، وليس من «رحمه»، فانه من خلال الطقوس والاساطير، يزعم لنفسه قدرة على خلق الطفل من جديد ويستخدم ذلك لمصلحته هو، ومصلحة المجتمع. ولا اريد التوسع هنا في شرح كل الامور التي تكشفت تدريجياً بشأن العلاقات بين الرجل والمرأة واساليب اخضاعه للمرأة. فمن البديهي ان لكل قدرة ابعادها المتخيلة أو المنعكسة في الفكر، وبغية استبعاد واخضاع فئة لا بد من عمل آيديولوجي كثير يصوغ الافكار ويسوّغ للطرفين المواقف والافكار بشأن العلاقات الاجتماعية التي تنطوي على اخضاع هذا الطرف لذاك.

واخيراً، ينبغي ألا ننسى قط ان هذا المنطق الاجتماعي لصيق بالجسد. فما ان يولد الفرد، بصرف النظر عن جنسه، حتى تلتصق به المعايير والتصورات التي تحدد مكانة جنسه، ذكراً كان أم انثى، في المجتمع. فالانسان ينظر الى الطبيعة دوماً من خلال منظار ثقافته. وهكذا يرى في الجسد ما قد اضفاه عليه الغير. فالمجتمع يقرر للفرد مكانته منذ الولادة حسب جنس هذا الجسد. فنساء البارويان لا ينلن، في نهاية المطاف، الا ما يستحققن في مجتمع يعتقد انهن مذنبات «بطبيعتهن». فهن لذلك ضحية هذا الاعتقاد. انهن في البداية ضحيته دون مشيئتهن، ولكنهن بعدئذ يصبحن ضحيته بإرادتهن، يصبحن مذنبات وفي آن معاً يتحملن المسؤولية عن هذه الإدانة.

ان الجنس هو اداة يستبطنها كل مجتمع للتعبير عن صالحه وطالحه. وختاماً، يبدو لي ان من الضروري ألا يغيب عن البال ان الاوهام لا تدور في المجتمع حول الجنسية فقط، بل حول المجتمع الذي يضفي على الجنسية أبعاده الوهمية ايضاً. لقد سجل التاريخ لعلاقة المرأة بالسلطة السياسية اشكالاً كثيرة، وتكمن هذه وراء هذه الاشكال ضروب من الفنطازيا التي جعلت هذه العلاقات مقبولة. وهي فنطازيا يقبلها المنطق ويرفضها في آن معاً.

ترجمة الثقافة الجديدة
عن النص الانكليزي

تقرير عن مؤتمر بكين

سوسن البراك

عُقد المؤتمر العالمي الرابع للمرأة للفترة من ٤-١٥ ايلول الماضي في بكين تحت شعار «العمل من اجل المساواة والتنمية والسلام»، بمشاركة ٤٩٩٥ مندوبةً ومندوبا من ١٨٩ بلداً اضافة الى ٤٠٠٠ مشاركة عن المنظمات غير الحكومية. تولت التحضير للمؤتمر لجنة مركز المرأة التابعة للأمم المتحدة.

الاهداف الرئيسية للمؤتمر تتلخص بما يلي:

- مراجعة وتقييم مدى تقدم المرأة منذ ١٩٨٥، على ضوء استراتيجيات نيروبي للنهوض بالمرأة حتى عام ٢٠٠٠.
- تعبئة وحشد طاقات النساء والرجال على كافة المستويات من القاعدة حتى مستوى رسم السياسات لتحقيق اهداف المؤتمر.
- تبني قاعدة عمل تركز على بعض القضايا الاساسية التي يمكن اعتبارها عقبة رئيسية امام تقدم غالبية النساء في العالم.
- تحديد الاولويات التي يجب اتباعها لتطبيق الاستراتيجيات داخل نظام الأمم المتحدة للفترة بين ١٩٩٦-٢٠٠٠.

أما المحاور التي بحثها المؤتمر فهي: ١- الفقر، ٢- التعليم، ٣- الصحة، ٤- العنف، ٥- النزاعات المسلحة وغيرها، ٦- المساهمة الاقتصادية، ٧- المشاركة في السلطة واتخاذ القرار ٨- الآليات الوطنية والدولية، ٩- حقوق الانسان، ١٠ وسائل الاعلام، ١١- البيئة والتنمية، ١٢- الطفلة (الفتاة Child girl).

بعض المشاركات من المنظمات غير الحكومية في المؤتمر قيّم النتائج بأنها

جيدة بل وافضل مما هو متوقع، وان نضال نساء العالم من اجل حقوقهن اصبح يتمتع الآن بأرضية أكثر ثباتاً. وذهبت السكرتيرة العامة للمؤتمر، كَيرترود مونجيلا، الى اعتباره ثورة في تاريخ نضال المرأة. ان الصراعات الشديدة التي رافقت عملية التحضير للمؤتمر والنقاشات الحيوية الواسعة، التي جرت داخل المنتدى العالمي للمرأة والتي انعكست ايضاً على اجواء المؤتمر، اضافة الى المؤتمرات الدولية الأخرى كمؤتمر حقوق الانسان ١٩٩٣ ومؤتمر السكان في القاهرة ١٩٩٤ ومؤتمر التنمية ١٩٩٥ كانت جميعها عمليات تمهيدية لنجاح مؤتمر بكين.

ولكن نتائج المؤتمر لم تكن مرضية للجميع. إذ اعتبرت ممثلة الفاتيكان القرارات المتعلقة بالاجهاض وبرنامج تحديد الاسرة «اهانة للمرأة، إذ جعلتها ماكنة تفريخ ممكن التحكم بها عند زيادة السكان». كذلك المطالبة بمساواة المرأة بالرجل لان ذلك شيء «غير قابل للتحقيق بل يجب المطالبة بالتكافؤ بينهما». كذلك قالت مندوبة السودان، وداد ابراهيم، ان نتائج المؤتمر غير قابلة للتطبيق في المجتمعات الاسلامية، لان اعطاء حقوق مساوية للمرأة بالرجل تقضي على دور المرأة، كأم وربة بيت، ويؤدي الى خلخلة العائلة واضعاف المجتمع. فكأنما تمتع المرأة بحقوقها هو السبب في الازمات الاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية التي تعيشها المجتمعات المختلفة حالياً. لكن مندوبة منظمة مغربية غير حكومية، ربيعة نصري، قالت: ان محاولات القوى المحافظة بين المسيحيين والمسلمين ونقاشاتهم داخل المؤتمر هي عودة الى الوراء ومحاولة لحرماننا حتى من الحقوق البسيطة التي حصلنا عليها في نضالنا المرير والتي نحاول في هذا المؤتمر تعزيزها. وهي كمسلمة تطمح فصل الدين عن الدولة وان تكون هناك برلمانات حرة تمثل فيها النساء، والى قوانين احوال شخصية تعطي المرأة حقوقاً متساوية لبناء مجتمعات قوية ومتماسكة. كذلك انتقد رئيس جمهورية بيرو موقف الفاتيكان وتعنته الذي اعاق تحقيق برنامج متحضر لتخطيط الأسرة في امريكا اللاتينية.

ان الضجة الكبيرة التي احدثها المؤتمر تعكس الصراع الحاد بين القوى المؤمنة بتحرر المرأة وضرورة تبوؤها لمراكز قيادية على صعيد السياسة والاقتصاد كونها نصف المجتمع، وبدون اطلاق طاقاتها واشراكها مشاركة فاعلة ومتساوية لا يمكن مواجهة تحديات القرن الحادي والعشرين، وبين القوى العالمية المحافظة الجديدة بلبوساتها الدينية والقومية والعرقية التي تعمل بكل طاقاتها، واحياناً ليست بالقليلة باستخدام العنف، لاعادة المرأة

الى البيت وانتزاع مكتسباتها خلال العقود الماضية.
ان التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي شهدها العالم خلال العقد الماضي قد تركت آثارها السلبية على تطوير المرأة لاسباب ترد لاحقاً، وقد أدت الى تعطل الخطط والبرامج الوطنية الخاصة بتطوير المرأة والتنمية التي أقرها مؤتمر نيروبي، اضافة الى تعطل برنامج الأمم المتحدة الخاصة بالتنمية لان تصاعد الحروب الداخلية والصراعات الاقليمية استنفذ الجزء الاكبر من الموارد التي كانت تذهب للتنمية، فقدمت كمساعدات اغاثة لضحايا الحروب. كل ذلك تطلب وقفة هامة داخل المؤتمر لوضع استراتيجيات وميكانزم للعمل المستقبلي وايجاد مصادر التمويل لضمان تقدم المرأة واشراكها الفاعل في عمليات احلال السلام والتنمية.
ناقش المؤتمر لأول مرة موضوع الطفلة (الفتاة). فالتمييز ضد المرأة يبدأ عند الولادة، إذ يقابل مولدها بالاستياء في بلداننا وغيرها. فالانتهاكات والاهانة التي تقع على الطفلة داخل البيت والمجتمع بعدم الاهتمام بصحتها ومأكلها وتعليمها، وتفضيل الذكر عليها بكل شيء، تضعف شخصيتها وتصيبها بالاحباط والخوف والشعور بالنقص وتخلق منها طاقة معطلة.
ومن ابرز المواضيع التي ناقشها المؤتمر النظام العالمي الجديد وتأثيره السلبي على المرأة. فسياسة الانفتاح الاقتصادي اضعفت فرص النساء في مجال الادخار والانتاج والتجارة وزادت من نزعة التمييز بين الجنسين وحددت المرأة بوظائف ذات مهارة واجور متدنية وانعدام ضمان العمل في القطاعين الخاص والعام، وكذلك التمييز بين الجنسين في الحصول على المهارات والكفاءات التي تؤهل الفرد الى مناصب عليا في المجالات الاقتصادية وخاصة عدم تفضيل الشابة في العمل الثابت بسبب ادوارها الأخرى كأم ومربية. ان الاستراتيجيات الاقتصادية الليبرالية وبرامج التكييف الهيكلي اضرت النساء بسبب تخفيف الانفاق الحكومي على البرامج الصحية والتعليم والمعونات الاجتماعية. والنساء اكثر المتضررين من قوانين العمل والهجرة، فالمرأة أول من يسرح من العمل. وقيمة عمل المرأة غير مرئية في المشروع العائلي، وفي خدمات محلية، وحتى اعمال البيت وتربية الاطفال غير معترف بها وغير داخلة في حسابات الدخل الوطني.
والمشاكل التي تعاني منها المرأة الفلاحة لا تقل عن ذلك خاصة في ظروف تدهور البيئة وجفاف الارض والتصحر. فالمرأة تجابه دائماً بالحرمان من امتلاك أو حيازة الارض واستخدام الموارد الطبيعية، والحصول على القروض والاستفادة من التكنولوجيا.

تشير تقارير الأمم المتحدة الى انه هناك ٩٠٠ مليون امرأة يعشن في فقر مدقع، واكثرهن في البلدان النامية، فهن يشكلن ٧٠٪ من المجموع الكلي. كما ان الحروب والصراعات الاقليمية والهجرة بحثاً عن لقمة العيش، خاصة من مناطق القحط والجفاف، وانتهاكات حقوق الانسان، ادت الى وجود ١٢٥ مليون مهاجر ومشرد ولاجيء، ٨٠٪ منهم من النساء. فدعا المؤتمر الى وضع برامج للتأهيل والتدريب والانتماء الى المجتمع الجديد، بصرف النظر عن الفئة العمرية والجنس. كذلك اكدت خطة العمل الدولية التي اقرها المؤتمر على ضرورة تحسين فرص التعليم والتدريب، اعطاء القروض، تمليك الارض، تقييم عمل المرأة غير مدفوع الأجر اعداد برامج لتشغيل المرأة العاطلة، دفع نفس الاجر لنفس العمل، وقف تشغيل الاطفال، توسيع رقعة الضمان الاجتماعي للنساء لتشمل العاملات بساعات اقل، والعناية بالعاملات الفصليات واللواتي يعملن في البيت وتوفير ظروف عمل اكثر مرونة للمرأة. ودعا المشاركون الى إلغاء الديون التي تثقل كاهل الدولة الفقيرة وتعيقها عن التنمية الوطنية.

تمت المطالبة بوضع برامج وطنية خاصة بتطور المرأة وتوفير ميزانية خاصة تستقطع من أوجه الانفاق الأخرى خاصة العسكرية. وطولبت الجهات الممولة، مثل البنك الدولي وبنوك التنمية في المناطق المختلفة وصندوق الأمم المتحدة للتنمية، بتقديم المساعدات ووضع سياسات وبرامج ومشاريع لضمان حصول المرأة عن الحصة الأكبر في مشاريع التنمية خاصة في الارياف. فبدون التفكير بتأمين التغطية المالية للخطة الدولية، تبقى حبرا على ورق.

اكد برنامج العمل على مشاركة المرأة في مراكز صنع القرار السياسي والاقتصادي وعلى جميع المستويات، فبدون ذلك لا يمكن ان تكفل مساواة المرأة مع الرجل ونضمن تطورات سلمية وأمنية لمجتمعاتنا. وقد أكد سكرتير الدولة في وزارة الخارجية النرويجية، ماتيسن، ذلك بقوله داخل المؤتمر: لدينا رئيسة وزراء و٧ وزيرات من مجموع ١٨ لذلك نجد ان سياستنا ثابتة ونحن نقدم مساعدات دائمة لتنمية العالم الثالث وضمان امن واستقرار العالم. وعلقت بنفس الوقت رئيسة الوزراء النرويجية كريتا بيركيت بأن ذلك لم يكن بالسهل في باديء الأمر، ولكن بنضالنا وتثبيت مبدأ أو سياسة الحصة (الكوتا) لتمثيل النساء، تمكنا من تحقيق ذلك. وأكدت البرلمانية السويدية (لايلا ايدهولهم) ان انخفاض نسبة النساء في البرلمان السويدي في بداية العقد الحالي قد أدت الى تراجع في السياسة الاجتماعية

للبلد، مما حدا بنا الى الاسراع لتلافي ذلك. وفي هذا الجو من النقاش، جاء على لسان مسؤولة قسم الكادر في الأمم المتحدة بأنه سترتفع نسبة النساء المشاركات داخل جهاز الأمم المتحدة من ٣٣٪ الى ٣٥٪ وحتى عام ٢٠٠٠ ستكون النسبة ٥٠٪.

فيما يتعلق بالصحة تم التأكيد على العناية الصحية بالمرأة والطفلة أو النساء والفتيات وتوفيرها بأسعار معقولة والعناية بالصحة الانجابية للمرأة وبالتغذية التي تؤثر على انتاج جيل جديد صحي وقوي خاصة اذا عرفنا ان اكثر من نصف مليون امرأة تموت بالولادة كل عام، وهناك اكثر من ٢٠ مليون تعقيد في عمليات الحمل والولادة والاجهاض. وبسبب سوء التغذية نجد كثيراً من الاطفال يولدون ناقصين ودون الوزن الطبيعي. وأكد المؤتمر ان للمرأة حقها بتقرير حياتها الجنسية وعدد الاطفال المرغوب بهم بالاتفاق مع الرجل وان تحترم حقوق المرأة الجنسية بدون اي ضغط أو قسر او عنف حتى من قبل الزوج. وبالنسبة للاجهاض، حيثما سمح به، يجب ان يخلو من المخاطر وان لا يستخدم الاجهاض كوسيلة لتحديد النسل. ودعا المؤتمر كذلك الى اعادة النظر بعقوبات الاجهاض غير المسموح به ووضع وتنفيذ برامج لتخطيط الأسرة، وعدم السماح بختان البنات، ومعاقبة كل متاجرة بالنساء او اجبارهن على ممارسة الدعارة وخاصة الفتيات والفتيان.

وفيما يتعلق بتحديد النسل والاجهاض لم تعلق مندوبة الصين داخل المؤتمر ولكن الصحفية الرسمية الصينية اعلنت في اليوم التالي تمسك الدولة بسياسة تحديد النسل.

بالنسبة للتعليم دعا المؤتمر الى توفير ٥٠٪ من مقاعد الدراسة للفتيات بعمر المدرسة والقضاء على الأمية لحد عام ٢٠٠٠. ان ثلثي عدد الاميين والبالغ عددهم ٩٦٠ مليون من النساء. وهناك حوالي ١٠٠ مليون طفل في عمر المدرسة امي. تشكل الفتيات ما لا يقل عن ٦٠٪ منهم كما دعا الى توفير فرص متكافئة في الدراسة المتقدمة ودورات التأهيل، وازالة الصورة التي تمثل المرأة كربة بيت فقط في الكتب المدرسية وكل الصور والمفاهيم التي تشير الى دونية المرأة واعتبارها اداة للجنس.

ادان المؤتمر العنف بكل اشكاله كانتهاك لحقوق الانسان ومعاقبة مرتكب العنف ضد المرأة في البيت والمجتمع، وخاصة اغتصاب النساء في الحروب وفي مكانات العمل. والاساءة لهن ولمشاعرهن في البيت والمجتمع والعمل ووضع قوانين لحماية المرأة في كل الدول.

وجرى التأكيد على ما تم اقراره في مؤتمر حقوق الانسان ١٩٩٣ بأن حقوق

المرأة هي حقوق الانسان ويجب احترامها وحمايتها من الانتهاك.
تم التأكيد على السلم وايقاف الحروب وحل الصراعات بالمفاوضات السلمية وأهمية السلم في حياة المرأة والعائلة والمجتمع خاصة وان الحروب تعطل كل برامج التنمية والمساواة بين المرأة والرجل.

المنتدى العالمي للمرأة (بكين ٣٠/٨-٨/٩/١٩٩٥)

شارك في المنتدى العالمي للمرأة الذي أقيم الى جانب المؤتمر العالمي الرابع اكثر من ٢٤ ألف امرأة ورجل وهو تقريباً ضعف العدد الذي شارك في المنتدى السابق (نيروبي ١٩٨٥). وقد نجح المنتدى بإيصال صوته الى داخل المؤتمر وأثر على سير اعمال المؤتمر خروجه بقرارات لصالح المرأة وتطورها. فقد ناقش المنتدى طوال ايامه نفس المحاور التي ستتم مناقشتها داخل المؤتمر وقدم بها مقترحات وملاحظات ملموسة. وشاركت النساء بفاعلية في توضيح وجهات نظرهن وفي تبادل التجارب والخبر وتدارس التوجهات المستقبلية.
وقد نظم المنتدى ٥٠٠٠ ورشة عمل، و٢٠ خيمة لتناول مواضيع محددة، مثل السلام، الشابات، كذلك خصص لكل منطقة اقليمية خيمة. نظمت سمينارات تدريبية، وتم عرض افلام فيديو، واقيمت معارض وبازارات وفعاليات ثقافية وفنية وتوزيع مطبوعات ومطويات عن اوضاع المرأة في البلدان والمناطق المختلفة.
عقدت خلال المنتدى ٤ جلسات عامة، ناقشت الأولى المشاركة السياسية في ظل النظام العالمي الجديد، التهديد للأمن الدولي بسبب التسلح والعنف، تدويل الاقتصاد وتأثير الثورة التكنولوجية، بروز المحافظين المتطرفين وتأثير سياساتهم الدينية والقومية والعرقية، والاعلام والاتصالات. وناقشت الجلسة الثانية استراتيجيات وآليات العمل. وتناولت الجلسة الثالثة الالتزام بالمستقبل ودور الحكومات والقطاع الخاص والمنظمات النسائية غير الحكومية. أما الجلسة الأخيرة فتناولت، المشاركة في البرنامج المستقبلي ووضع خطة لنشاطات القرن الحادي والعشرين، وما بعد بكين.
برزت في المنتدى المشاركة الواسعة للقوى الدينية فحضر ممثلو منظمات اسلامية في اوروبا وامريكا وكندا، وقدم عدد من الرجال ورشات عمل بخصوص موقف الاسلام من المرأة كمنهج يجب (أو يمكن) الاقتداء به.
وكان للشابات حضور جيد وطروحات جديدة عن مستقبل اكثر تطوراً وتفهما

لقضية المرأة وكان هناك حضور عربي كبير (اضافة الى الاسلامي منه) وحضور لقوى علمانية عربية طرحت موقفها الحقيقي من الاسلام وناقشت قانون الاحوال الشخصية، والمرأة والعنف. ولاول مرة تجاوز الكثيرون حاجز الخجل والخوف ازاء تناول العنف داخل العائلة الذي يعتبر من الامور الداخلية والاسرار العائلية. ومن ابرز متناولات هذه الامور نساء المغرب، الجزائر، تونس، مصر وكذلك السودان. انهن برلمانيات، صحفيات ومحاميات الخ. وكان ختان البنات من المواضيع التي توقف عندها المنتدى اضافة الى المواضيع التقليدية الأخرى كتأثير الحروب على النساء، قانون الاسرة، التعليم، الصحة... الخ.

مشاركة وفد لرابطة المرأة العراقية في المنتدى

كنا ثلاثاً وأقمنا ورشة عمل تناولنا فيها اوضاع المرأة العراقية في ظل الحصار الاقتصادي الذي يضر الشعب وليس النظام، والحصار المفروض من قبل النظام على الشعب. وانتهاكات حقوق الانسان والمرأة، وممارسات النظام ضد الشعب الكردي والمنتفضين في جنوب العراق، واستخدام الاسلحة الكيمياوية، وتجفيف الاهوار. واوضحنا ان عواقب المآسي التي يعيشها شعبنا حالياً ستستمر لاجيال قادمة، وان مصير الشعب العراقي مسؤولية دولية ومسؤولية كل القوى المناضلة من اجل حقوق الانسان والعدالة الاجتماعية، وضرورة العمل من اجل رفع الحصار وتوفير حياة كريمة للشعب وانهاء الدكتاتورية وضمان التطور السياسي والديمقراطي للمجتمع بما يضمن حقوق المرأة والطفل.

حضر ورشة العمل هذه ممثلات لاتحاد نساء السلطة وبعض العربيات المواليات ممن ازعجهن الكلام واتهموننا بـ«التعاون مع الامبريالية وقبض الدولارات» منها ومن الافضل «المجيء للعراق والنضال مع الشعب في الداخل»، وليس توجيه «التهم الكاذبة» من الخارج. ورداً على كلامنا عن كردستان سألن: ما هو وضع كردستان الحالي باقتتال الاحزاب الكردية. وقمن بتصويرنا وكان جدالاً حاداً تدخلت فيه مشاركات اوروبيات اتهمن نساء السلطة باستخدام الارهاب ضدنا حتى خارج العراق، واننا من خلال النقاش برهنا على حرصنا على نساء واطفال العراق اكثر من نساء السلطة، وان اتهامنا بالهروب واللجوء يدين النظام بالارهاب، فالنساء لا يتركن اوطانهن الا في ظل القمع ضدهن.

كذلك شاركنا مع مجموعة عمل من منظمة «النساء من اجل السلم والحرية» ولجان نسائية للسلام من دول مختلفة بمناقشة ووضع مقترحات تقدم للمؤتمر العالمي فيما يخص السلم، واوضاع النساء في ظل الحروب والصراعات الاقليمية. وكانت موضوعة العقوبات الاقتصادية المفروضة على العراق وصلاحيات الأمم المتحدة بمعاقبة الشعوب وتجويعها من مواضيع المناقشة فأكدنا بأن الحصار عقوبة للشعب بدليل ان صدام واجهزته القمعية وطاقاته العسكرية شهدت تطوراً خلال فترة الحصار، فيما الشعب يعيش ظروف الموت والخراب على جميع الاصعدة ويساهم صدام بمضاعفة المعاناة باستغلال المعونات الانسانية المقدمة وطاقة البلد الزراعية لنفسه وبيعها بالسوق السوداء بأسعار غير معقولة. كذلك كان من الممكن رفع عقوبة الحصار عن كردستان العراق التي هي غير خاضعة لسيطرة صدام. وفي هذا المجال اختلفت قوى المعارضة في مواقفها، إذ اعتبرت احدى ممثلات المركز الثقافي الكردي في باريس ان رفع الحصار سيزيد من قدرات النظام المادية وامكانياته العسكرية التي لا تحمد عقباها.

كذلك شاركنا في ورشات عمل واعمال تضامنية مختلفة مع اخواتنا الفلسطينيات واللبنانيات والسودانيات ومع الكويتيات اللواتي قدمن الى بكين بوفد كبير يمثل تيارات نسائية مختلفة، وقمن بعدة فعاليات تشرح معاناتهن حتى الآن من عواقب عدوان صدام وتأثيراته النفسية والاقتصادية، خاصة على النساء والاطفال، مثل فقدان معيل الأسرة، والمشاكل الاجتماعية المتأتية عن اغتصاب عدد كبير من النساء والفتيات (وهذا الموضوع لا تحب الكويتيات التحدث به). وطالبن بأطلاق سراح ٦٥٠ معتقل ومعتقلة من كويتين وعرب موجودين في سجون صدام. وقد التقيت بامرأة لبنانية تحمل صورة ابنتها الشابة التي تم اختطافها قبل خمس سنوات من الكويت مع عائلة مجاورة. ومازالت الأم مع ثلاثة احفاد صغار بانتظار عودة الغائبة. كذلك اقامت الكويتيات معرضاً ونشرن بوسترات تشرح معاناة اطفال الكويت والعراق من الاضطهاد والاجحاف على يد نظام صدام. وتبادلنا التضامن من اجل اطلاق سراح المعتقلين والكشف عن مصير المفقودين في سجون العراق، من كويتيين وعراقيين.

ومن خلال لقاءات مع منظمات وشخصيات نسائية مختلفة لمست تضامنهن مع نساء وشعب العراق ورغبن في تعزيز اواصر العلاقة معنا. وكثير منهن على اطلاع جيد حول اوضاع العراق ومستجداتها، وتساءلن عن الآفاق بعد التمزق الاخير في العائلة الحاكمة. وكانت ابرز اللقاءات مع الاتحاد النسائي

الديمقراطي العالمي، اتحاد النساء من اجل السلم والحرية ومؤسسات داعمة لمشاريع نسائية في المانيا. وبالاضافة الى أهمية تعزيز التضامن المعنوي معنا اقترحنا العمل من اجل تقديم مساعدات مادية لنساء العراق واطفاله. وتحدثنا عن كل ذلك في المقابلات مع بضع من وسائل الاعلام.
كان هناك ممثلات من تيارات وقوى معارضة كردية واسلامية. فحضر د. صاحب الحكيم، رئيس لجنة حقوق الانسان في العراق وعرض فلما عن تجفيف الاهوار، وضرب المنتفضين في الجنوب، واستخدام السلاح الكيمياوي في كردستان والجنوب. واقام (ستاند) في خيمة العربيات من بوسترات بنفس المحتوى، مما آثار حفيظة بعض المشاركات من فلسطين والأردن، فطلبن اولاً رفع الستاند. بحجة ان من الخطأ التشهير بصدام لان «معركة الشعب العراقي هي مع الامبريالية وليس مع صدام». كذلك اقيمت حوالي ١٠ ورشات عمل عن انتهاك حقوق المرأة في العراق ووضع العراق الحالي.
أما الاتحاد الحكومي فمثل بوفد من ١٠ مشاركات اقام ٤ ورشات عمل وهي المرأة والعائلة، المرأة والتنمية، المرأة في ظروف الحرب، المرأة والعنف. في الخيمة العربية عرضن صور وبوسترات عن معاناة الشعب من سياسة التجويع والحرب والدمار. وصور للاضرحة في كربلاء قبل وبعد الهدم وجميعها نسبت للامبريالية والحصار الاقتصادي. وكانت طروحاتهن تحظى بدعم واضح من عربيات يعتبرن «العراق بلد الصمود والمواجهة والبلد الوحيد الذي ضرب اسرائيل وقال لا للامبريالية. وان قوة العراق العسكرية هي قوة للعرب ودعم لمواقفهم امام اسرائيل والامبريالية!!».

خاتمة

نتيجة الاهتمام الدولي المتزايد بدور المنظمات غير الحكومية من اجل تقدم البشرية طلبت الأمم المتحدة من الحكومات ان تضم وفودها الى المؤتمر الرسمي ممثلات من المنظمات غير الحكومية واشراكها في اعداد التقارير الوطنية. وقد شاركت المنظمات غير الحكومية على الصعيد الوطني وكذلك في التحضيرات الاقليمية ودخلت مطالبها في مسودة خطة العمل الدولية الموضوعة، وتم اختيار خبيرات من المناطق المختلفة لشرح اهداف وميكانزم عمل المؤتمر لقطاعات واسعة من النساء كذلك سمحت الأمم المتحدة لمنظمات لا حكومية ولا تتمتع بصفة استشارية في اجهزة الأمم

المتحدة بالمشاركة بتقديم المقترحات وكذلك في لجان الصياغة. ان هذه الآلية المتقدمة في عمل الأمم المتحدة ساعدت على المشاركة الواسعة للمنظمات النسوية خارج اطار التمثيل الرسمي الحكومي. ولكن اغلب الحكومات حاولت استبعاد المنظمات غير الحكومية من اعداد التقارير الوطنية وتقديم المقترحات، حصل ذلك حتى في اوروبا وفي المؤتمرات التحضيرية للأمم المتحدة في نيويورك وجنيف. ومن الناحية الأخرى لم تهتم وسائل الاعلام والصحافة بالمؤتمر والتحضيرات له الا عشية انعقاده، ثم انصب اهتمامها على ابراز الخلافات الثانوية وعلى سياسة الصين اكثر من المؤتمر المؤتمر في الصين. لذلك كان نجاح المؤتمر واقرار برنامج العمل انتصاراً مفاجئاً لقوى كثيرة ساهمت بالتحضير وهي غير متفائلة بالنتائج. ويعكس هذا وعي النساء بقضيتهن وامكانياتهن على المناورة والتحدي والعمل بسياسة دؤوبة من اجل نيل حقوقهن. يجب ان لا ننسى ان تضامن النساء مع بعضهن وتفهمهن لقضاياهن والحميمية في التعامل، والقلق على المستقبل المشترك كان عاملاً فاعلاً في انجاح المؤتمر. فكان هذا المؤتمر علامة مضيئة في درب النضال المديد من اجل المساواة ونيل الحقوق. ان نتائجه غير ملزمة للدول بقدر ما هي خطة مرشدة للمنظمات الوطنية في نضالها من اجل تحقيقها وبالضغط على الحكومات وايجاد مصادر لتمويل نشاطاتها.

ملاحظات حول اجراءات السلطات الصينية

كان لاجراءات السلطات الصينية بُعدان، اولهما بالطبع حماية أمن المؤتمر والمنتدى وسلامة المشاركين فيهما، كما هو متبع في كل المؤتمرات العالمية، وخاصة وانه كانت هناك تهديدات بعرقلة عمله ومحاولة اخلال بأمنه والبعد الثاني هو منع أي تدخل في شؤون الصين الداخلية بشأن انتهاك حقوق الانسان وحرياته الديمقراطية بما فيها حق التعبير عن الرأي، كذلك برنامج تحديد النسل الذي يرغم العوائل على انجاب طفل واحد، ويرغم المرأة على الاجهاض حتى ولو كانت بمرحلة متقدمة من حملها، وكذلك سياسة الصين في التيبت.
لقد اقتصرت مشاركة المرأة الصينية في المؤتمر على القنوات الرسمية والتنظيمات الحكومية ولم نسمع سوى وجهة نظر الدولة. وبالنسبة لوفدنا الذي ذهب من المانيا كان هناك اتفاق مسبق مع شركة السفريات بان يتم

لقاء مع نساء صينيات في قاعة الفندق الذي نزلنا فيه. ولكن حال وصولنا الى بكين أخبرنا بمنع اللقاء من قبل الحكومة.
كان من الواضح ان الناس ممنوعون من اللقاء بالمؤتمرين. فعندما كنا نسأل البعض ليدلنا على مكان معين ونرى انه يتكلم الانكليزية نحاول استغلال الفرصة بالسؤال اكثر، فنجد المقابل يعتذر ويغادرنا قبل اكمال سؤالنا.
حضر اكثر من ٣٠ ألف امرأة اجنبية في بكين ولكن قوى الأمن كانت اكثر بكثير من هذا العدد لمتابعة تحركات الوفود ومنع او تحديد مكان حركتهم واحياناً بالقوة عند الاصرار وقد صورت وسائل الاعلام بعض ما حصل عدة مرات حيث تم استغلال وجود الصحافة والاعلام لتصوير بعض مظاهر العنف. كانت السلطات الصينية حريصة على عدم اطلاع المشاركات على الفقر المدقع والبيوت الخربة لقطاعات واسعة من الشعب بعكس الفئة المنتفعة من رؤوس الاموال والاستثمارات الاجنبية التي دخلت البلد منذ العقد الماضي وبنت المعامل والعمارات الشاهقة والفنادق والبنوك. فنشأ نوع من التمايز الطبقي الواضح والذي سيكبر مع الوقت.
أما داخل الرقعة المخصصة للمنتدى، ومساحتها ٤٢ هكتاراً فتوفرت الحرية لأية فعالية تخص اعمال المؤتمر أو أي بلد باستثناء الصين. ولكن اقيمت التظاهرات التضامنية مع النساء الصينيات ضد برنامج تحديد النسل القسري، وكذلك مع استاذة جامعية صينية منعت من حضور المؤتمر، وجمعت تواقيع لاطلاق سراح استاذ جامعي صيني، وكانت هناك ورشة عمل حول حقوق الاقليات القومية في الصين، والتبيت خاصة، نظمتها منظمة امريكية مع امرأة صينية تحمل الجنسية الامريكية. ان كل هذه الفعاليات تبقى تحت المراقبة، ويرفع أي منشور أو ملصق معاد للصين وسياساتها في اي مكان يظهر من المؤتمر. لكن منظمة العفو الدولية افلحت بتنظيم مظاهرة صغيرة في (ساحة السلام السماوي)، وكانت محدودة جداً فلم تتدخل السلطات الصينية بسبب وجود عدد كبير من الصحفيين والمصورين.

المؤتمر العالمي الرابع حول النساء

اعلان بكين*

١-٤ نحن الحكومات المشاركة في المؤتمر العالمي الرابع حول المرأة اجتمعنا هنا في بكين في ايلول ١٩٩٥، في سنة الذكرى الخمسين لتأسيس الأمم المتحدة، عازمين على التقدم نحو اهداف المساواة والتنمية والسلام لكافة النساء في كل مكان في سبيل البشرية برمتها، مصغين الى صوت النساء في كل مكان، آخذين بنظر الاعتبار تنوع النساء وادوارهن وظروفهن، ممجدين النساء اللائي عبدن الطريق وأوقدن شعلة الامل الماثلة في شباب العالم.

٥- نعترف ان مكانة النساء قد احرزت تقدماً في بعض النواحي الهامة خلال العقد المنصرم، غير ان هذه السيرورة لم تجرِ على نسق واحد، فقد استمر عدم المساوات بين النساء والرجال، وبقيت عراقيل رئيسية، مما له عواقب خطيرة على صالح الجميع.

٦- نعترف ايضاً ان هذا الوضع يزداد سوءاً جراء تزايد الفقر الذي يؤثر على حياة اكثرية الناس في العالم، لا سيما النساء والاطفال، وتوجد جذور على الصعيدين الوطني والدولي.

* *صدر البيان عن المؤتمر الرابع حول المرأة في بكين بتاريخ ١٥ ايلول ١٩٩٥، كمقدمة لـ«برنامج العمل» التفصيلي الذي يقع في عشرات الصفحات. وقد ترجمنا البيان عن النص الانكليزي قبل ان يخضع لتحرير سكرتارية المؤتمر. وفي صياغاته الكثير من عموميات الحلول الوسط والتكرار والتداخل انعكاساً لصراع الآراء وتعدد المواقف داخل المؤتمر.*

٧- نلتزم دون تحفظ بمعالجة هذه المعوقات والعراقيل من اجل تحقيق المزيد من التقدم والتحسن لاحوال النساء في العالم كله، ونقر ان ذلك يتطلب عملاً عاجلاً تحدوه روح العزيمة، الامل، التعاون والتضامن في الوقت الحاضر ويدفعنا الى امام في القرن المقبل.

نجدد تأكيد التزامنا بما يلي

٨- المساواة بين النساء والرجال في الحقوق والكرامة الانسانية التي تلازمها وكذلك المرامي والمبادئ التي يجسدها ميثاق الأمم المتحدة والاعلان العام لحقوق الانسان وغيره من ادوات حقوق الانسان، لا سيما العهد المتعلق بإزالة كافة اشكال التمييز ضد النساء، والعهد الخاص بحقوق الطفل، وكذلك الاعلان الخاص بإزالة العنف ازاء النساء، والاعلان الخاص بالحق في التنمية.

٩- التطبيق الكامل لحقوق الانسان الخاصة بالنساء والفتيات بصفتها جزءا عضوياً لا يتجزأ من جميع حقوق الانسان والحريات الاساسية.

١٠- نعزز الوفاق والتقدم الحاصل في ما سبق من مؤتمرات وقمم الأمم المتحدة: حول النساء في نيروبي في عام ١٩٨٥، حول الاطفال في نيويورك عام ١٩٩٠، حول البيئة والتنمية في ريوديجانيرو عام ١٩٩٢، حول حقوق الانسان في فيينا عام ١٩٩٣، حول السكان والتنمية في القاهرة عام ١٩٩٤، وحول التنمية الاجتماعية في كوبنهاكن عام ١٩٩٥، بهدف تحقيق المساواة والتنمية والسلام.

١١- ننجز انجازاً فعالاً كاملاً الستراتيجيات المستقبلية التي اقرها مؤتمر نيروبي من اجل تقدم المرأة.

١٢- دعم المرأة وتمكينها من نيل حقوقها، بما فيها الحق في حرية الفكر، الضمير، الديانة والعقيدة، بما يلبي الحاجات المعنوية، الاخلاقية، الروحية والثقافية للنساء والرجال سواء على نطاق الفرد أو بالاشتراك مع آخرين، وبذلك نضمن لهم امكانية تحقيق كامل طاقاتهم في المجتمع وبناء حياتهم وفق مطامحهم.

نحن مقتنعون

١٣- ان تمكين المرأة من حقوقها ومساهمتها الكاملة على اساس المساواة في مجالات المجتمع، بما في ذلك مساهمتها في عملية صنع القرار والوصول الى السلطة، هي شروط اساسية لتحقيق المساواة والتنمية

والسلام.
١٤- ان حقوق المرأة هي حقوق الانسان.
١٥- ان المساواة في الحقوق، في الفرص وفي الحصول على الموارد من جانب الرجل والمرأة والعلاقة المنسجمة بينهما ضرورية جداً لسعادتهما وسعادة عائلتهما وكذلك لتوطيد الديمقراطية.
١٦- ان ازالة الفقر عن طريق استمرار النمو الاقتصادي، التنمية الاجتماعية، حماية البيئة والعدالة الاجتماعية، تتطلب مشاركة المرأة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وكذلك تساوي الفرص والمساهمة التامة والمتساوية للنساء والرجال بصفتهم صانعي والمستفيدين من التنمية المستديمة المتمحورة حول الشعب.
١٧- ان التأكيد الصريح لحق جميع النساء في التحكم بكل جوانب صحتهن، بما في ذلك خصوبتهن، هو من المقومات الاساسية لتمكينهن من حقوقهن.
١٨- ان السلام على الاصعدة المحلية، الاقليمية والعالمية يمكن بلوغه وهو يرتبط ارتباطاً عضوياً بتقدم المرأة، فهي قوة اساسية في سبيل القيادة وتسوية النزاعات وتوطيد السلام الدائم على كل الاصعدة.
١٩- من الضروري اشراك النساء في رسم وتنفيذ ومراقبة السياسات والبرامج ذات المساس بالجنسين، بما فيها سياسات وبرامج التنمية على كل المستويات، بحيث يعزز بعضها بعضا، وبما ينمي تقدم المرأة ويمكنها من حقوقها.
٢٠- ان مشاركة واسهام كل اعضاء المجتمع المدني، لا سيما الجماعات والشبكات النسائية وسواها من المنظمات والتنظيمات المحلية غير الحكومية مع الاحترام الكامل لاستقلالها الذاتي، وبالتعاون مع الحكومات، ترتدي اهمية في تنفيذ ومتابعة برنامج العمل (الصادر عن هذا المؤتمر - ث.ج).
٢١- ان تنفيذ برنامج العمل يقتضي الالتزام بذلك من الحكومات والمجتمع الدولي. باتخاذ الالتزامات الوطنية والدولية، بما فيها الالتزامات المعلنة في المؤتمر، تعترف الحكومات والمجتمع الدولي بالحاجة الى اعطاء الاسبقية للعمل من اجل تقدم المرأة وتمكينها من حقوقها.

نحن عازمون على:
٢٢- تكثيف الجهود والفعاليات لتحقيق اهداف ستراتيجيات نيروبي المستقبلية لتقدم المرأة في نهاية هذا القرن.

٢٣- ضمان تمتع النساء والفتيات تمتعاً كاملاً بجميع حقوق الانسان والحريات الاساسية، واتخاذ الاجراءات الفعالة ضد انتهاكات هذه الحقوق والحريات.
٢٤- اتخاذ كل الاجراءات اللازمة لالغاء كافة اشكال التمييز ضد المرأة والفتاة (الطفلة) وازالة كل العوائق التي تعترض المساواة بين الجنسين وتقدم المرأة وتمكينها من حقوقها.
٢٥- تشجيع الرجل على المساهمة الكاملة في كل الجهود الرامية الى المساواة.
٢٦- تنمية استقلال المرأة اقتصادياً، بما في ذلك اشتغالها، وازالة الفقر المستمر وعبئه المتزايد على المرأة بمعالجة الاسباب البنيوية للفقر بتغيير البنى الاقتصادية وضمان استفادة المرأة على قدم المساواة، بما في ذلك المرأة الريفية، من جميع الموارد والفرص الانتاجية والخدمات العامة، ذلك ان المرأة عنصر حيوي في التنمية.
٢٧- تشجيع التنمية المستديمة المتمحورة حول الانسان، بما في ذلك التنمية من خلال توفير التعليم الاساسي، والتعليم مدى الحياة، ومحو الامية والعناية الصحية الاساسية للفتيات والنساء.
٢٨- اتخاذ خطوات ايجابية لضمان السلام في سبيل تقدم المرأة مع الاعتراف بالدور الرئيسي الذي لعبته المرأة في حركة السلام، بعملنا بنشاط من اجل نزع السلاح التام والشامل تحت رقابة دولية فعالة ودقيقة، وتأييدنا للمفاوضات للتوصل، دونمابنطاء، الى معاهدة شاملة متعددة الاطراف وقابلة للمراقبة الفعالة لتحريم التجارب النووية اسهاماً بنزع السلاح النووي ومنع انتشاره من كل الجوانب.
٢٩- منع وإزالة كل اشكال العنف ضد المرأة والفتاة (الطفلة).
٣٠- ضمان المساواة بين الجنسين في القبول بالمدارس والمعالجة الطبية وتطوير الصحة الجنسية والانجابية للمرأة وكذلك تعليمها.
٣١- ترقية وحماية جميع حقوق الانسان لكافة النساء والفتيات.
٣٢- تكثيف الجهود لضمان المساواة للنساء والفتيات في التمتع بكل حقوق الانسان وحرياته الاساسية، فهن يواجهن معوقات عديدة تعترض تقدمهن وتمكينهن من حقوقهن بسبب عوامل مثل العرق. العمر، اللغة، الانتماء الاثني، الثقافة، الدين أو التعويق الجسدي او الانتماء للاقوام الاصلية.
٣٣- ضمان احترام القانون الدولي، بما فيه القانون الخاص بالانسان، من اجل حماية النساء والفتيات بصورة خاصة.

٣٤- التطوير الاكمل لطاقات الفتيات والنساء من كافة الاعمار، وضمان مساهمتهن الكاملة على قدم المساواة في بناء عالم افضل للجميع وتطوير دورهن في عملية التنمية.

نحن عازمون على:

٣٥- ضمان حصول المرأة على الموارد الاقتصادية، بما فيها الارض، القروض، العلم والتكنولوجيا، التدريب المهني، المعلومات، الاتصالات والاسواق، وذلك من اجل تعزيز تقدم النساء والفتيات وتمكينهن من حقوقهن، بما في ذلك عن طريق تنمية طاقاتهن وتمتعهن بمنافع المساواة بين الجنسين في الحصول على تلك الموارد، ويشكل التعاون الدولي احدى الوسائل لبلوغ ذلك.

٣٦- ضمان نجاح برنامج العمل الذي يتطلب التزاماً قوياً من جانب الحكومات، المنظمات الدولية والمؤسسات على مختلف المستويات. ونحن على قناعة عميقة ان التنمية الاقتصادية وتطوير المجتمع، وحماية البيئة هي عناصر مترابطة فيما بينها ويعزز احدها الآخر في التنمية المستديمة التي تمثل اطار جهودنا لتحقيق نوعية حياة افضل لجميع الناس. ومن الاسس اللازمة لتحقيق التنمية المستديمة ان يجري التقدم الاجتماعي على قدم المساواة بحيث يعترف للفقراء، وخاصة من النساء، بحق استثمار موارد البيئة بصورة دائمة. ونرى كذلك ان التنمية الاقتصادية المستديمة، ذات القاعدة العريضة في اطار التنمية الشاملة المستديمة، ضرورية لادامة التقدم الاجتماعي والعدالة الاجتماعية. ثم ان النجاح في تنفيذ برنامج العمل يتطلب ايضاً تعبئة كافية للموارد على النطاقين الوطني والدولي، فضلاً عن موارد اضافية للبلدان النامية توفرها جميع وسائل التمويل، بما في ذلك المصادر متعددة الاطراف، والثنائية والقطاع الخاص، من اجل تقدم المرأة، وكذلك يتطلب موارد مالية لتعزيز المؤسسات الوطنية، الاقليمية والدولية؛ ويتطلب الالتزام بالحقوق المتساوية، والمسؤوليات المتساوية، والفرص المتساوية، والمساهمة على قدم المساواة للمرأة والرجل في جميع الهيئات وسيرورات اتخاذ القرار الوطنية والاقليمية والدولية، كما يتطلب ايجاد وتوطيد وسائل على مختلف المستويات تخضع لمساءلة نساء العالم.

٣٧- ضمان نجاح برنامج العمل في البلدان ذات الاقتصاد الانتقالي التي تحتاج الى التعاون الدولي المستمر.

٣٨- نحن، كحكومات، نلتزم هنا بتنفيذ برنامج العمل مع ضمان ان تعكس

سياساتنا وبرامجنا جميعها قضايا المرأة. ونحث منظومة الأمم المتحدة، ومؤسسات التمويل الاقليمية والدولية، وغيرها من المؤسسات الاقليمية والدولية ذات العلاقة، وكل النساء والرجال بالاضافة الى المنظمات غير الحكومية (مع احترام استقلالها) ان تلتزم جميعاً التزاماً تاماً بالمساهمة في تنفيذ برنامج العمل.

ترجمة الثقافة الجديدة

اصدارات وصلتنا

عزيز السماوي: النهر الأعمى، مجموعة شعر شعبي عراقي، عن دار الحكمة، لندن.
فالح عبد الجبار: الدولة، المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في العراق، عن مركز ابن خلدون، بالاشتراك مع دار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة.
فلاح الصوفي: هكذا ورد في المخطوطة، مجموعة شعرية، عن دار المدى للثقافة والنشر، دمشق.
نجم محسن: عدوي الحنين، مجموعة شعرية، مالمو -السويد.

مجلات

- **الاغتراب الأدبي**، فصلية، العدد ٣١، لندن.
- **المدى**، فصلية، العدد ١٠، دمشق.
- **المندائي الجديد**، العدد ١، فصلية، عن الجمعية الثقافية المندائية- السويد.
- **نوافذ**، دورية، العدد ١، عن البيت الثقافي العراقي في يتبوري - السويد.

مع الشكر

حدث هذا في الثلاثينات في سوق الشيوخ

بلقيس حميد حسن

تتشابك أيدي عدد من التلميذات على «المسرح» لتشكل دائرة تقف وسطها زميلة شامخة تهتف بسؤال محتج:
أطلعْ منّا؟
وتلميذات الحلقة يرددن بالدارجة ايضاً، فيما ايديهن ورؤوسهن تومئ بصدّها عن الافلات وهن يصرخن:
- لا لا لا!
وتسأل مرة أخرى: أفوت منّا؟
- لا لا لا!

فتنشد بلحن جميل فيه اللوعة والتحدي:

المرأة في الارض رحمة
لو كانت مثل الفحمة
جرموني من كل نعمة
وسدوا في وجهي الابواب
اطلع منّا؟
- لا لا لا!
افوت منّا؟

- لا لا لا!
الحوحو يأكل الناس
اما المرءِ في احساس
نزلوا بي في المساس
وسدوا بوجهي الابواب
اطلع منا؟
- لا لا لا!

تنفعل المتمردة اكثر، وتحاول ان تكثّف محاولاتها للافلات من الطوق وتتشابك ايدي التلميذات بأحكام. فيتحول نشيدها تارة الى ما يشبه الصرخة ضد الطوق، وتارة تنكفيء الى وسط الدائرة وكأنها مذعنة. لكنها اخيراً وقد ضاقت بالحصار، تهتف بهن:

رخوا لي الحبل شويه
لأدوسه برجليّه
رخوا لي الحبل شويه
لا تبهرني المدنيه
ادوس ادوس الموده برجليّه
وافتح قدامي الابواب

وإذاك تندفع لتشق طوق سجن البنات..

كان هذا العرض في مدرسة ابتدائية في سوق الشيوخ في الثلاثينات. وكان المسرح طاولات مصفوفة الى بعضها تحاط بستائر تدلت من حبل ربط بين شبابيك القاعة وصفت الرحلات مقاعدَ للمتفرجات على طول القاعة المدرسية.

بقي تقليد المسرح هذا في سوق الشيوخ حتى نهاية السبعينات حين غادرت العراق، اذ تقام الاحتفالات السنوية بمناسبات عامة. فتعرب التلميذات والمعلمات عن همومهن وافكارهن امام الحاضرات من النساء حصراً. ومنذ الستينات انشيء مسرح في ثانوية البنين وأقيمت مسرحيات مشهورة للمتفرجين من الجنسين. كما ان التلاميذ الهواة في الثانوية درسوا في اكاديمية الفنون الجميلة ومنهم الآن ممثلون وممثلات معروفات مثل سناء عبد الرحمن.

لنعد الى الثلاثينات والى ما طرحته التلميذات من توق الى التحرر من القيود البالية بما فيها من حجاب ومكوث اجباري في المنزل وانعدام الحرية في

شتى مجالات الحياة تقريباً. فمن خلال العرض المسرحي، البسيط بأدواته الادبية والفنية، نستشف عمق التعبير الذي تطرحه المرأة آنذاك في بلدة جنوبية صغيرة حين كان ابناؤها لا يتخيلون امرأة تقرأ وتكتب، فكيف بها تكتب شعراً يطالب بحريتها وتؤديه بشكل يعبر عن ضرورة النضال من اجل كسب الحرية بعيداً عن الاهتمام بالقشور (الموده)؟ فالبنت المتمردة تهتف: «ادوس ادوس الموده برجليّه»، لأن الحرية لا تعني ارتداء ما هو حديث مودرن) وكفى، انما الحرية هي الحصول على حقوق المرأة كإنسان يشكل نصف المجتمع. ولا يستوي تقدم مجتمع نصفه مشلول ذليل. كيف تتربى الاجيال على يد نساء مقهورات سجينات المنزل أُريد لهن الشعور بالدونية؟ فهي مغلوبة على امرها يتحكم بها الرجل في تلك الفترة ولا يزال، اذ لا جناح على الرجل فيما يفعل في نطاق حياة الاسرة. فهو حرٌ على الاقل في حياته الخاصة. لكن المرأة وبحكم العادات والتقاليد محرومة من ابسط الحقوق المسجلة لها شرعاً وقانوناً، معرضة للاهانة والضرب إن شاء الرجل دونما رادع له رغم ان الدين لا يجيز ذلك، بل قال النبي محمد: «رفقاً بالقوارير» دلالة على ضرورة معاملة المرأة بالرفق واللين لشفافيتها وطبيعتها الخاصة.
لقد عبرت التلميذات في الثلاثينات عن اهمية دور ومكانة المرأة مهما كان لونها أو شكلها بالقول: «المرأة في الأرض رحمة، لو كانت مثل الفحمة». فبوادر الوعي في تلك الفترة لا تختلف كثيراً عن وعي المرأة المثقفة حاليا وفهمها لما يجب ان تطرحه من افكار تواجه بها من يريد النيل من قضيتها ونضالها من اجل بلوغها الهدف النبيل.. ثم هي واقعية جداً عندما تطالب بضرورة اعطائها الحرية وتحذّر من خطورة حرمانها منها.. اذ تقول «رخّوا لي الحبل شويه لا تبهرني المدنيه/رخّوا الحبل شويه لا ادوسه برجليّه».
فاذا لم تحصل على شيء من الحرية الضرورية لانسانيتها، ستنفجر وتحطم القيم. ثم تقول سأدوس الحبل الذي هو العادات والتقاليد التي اغلقتم بها جميع الابواب. فالحبل قيد تشكل من مجموعة ايد ما ان ناضلت المرأة ضده وعاندت حتى انفتحت لها الابواب فانطلقت. ثم تحاول المرأة في هذه المقطوعة ان تقول ايضاً شيئاً رمزيا. فكلمة (الحوحو) كناية عن الجبروت الظلم الاستبداد الذي يدخل الرعب في القلوب ليخلق التردد والخوف من المحاولة، ثم تقول رغم ذلك فالانسان حساس لا يستطيع السكوت على اذلاله والمساس الدائم بانسانيته. اما ختام ذلك العرض المسرحي البسيط فيعطي للمرأة تفاؤلاً وأملاً لتلج طريق النضال الذي لا بد منه للحصول على الانعتاق – الكرامة.. فتضج القاعة بالتصفيق.

هذا ما نقلته لي امي وخالاتي عن ذلك العرض الذي شاركن فيه وحفظنه وحفظته انا منهن. لم تكن هناك يومذاك منظمات نسائية تدافع عن حقوق المرأة ولكن كانت هناك من تعي ضرورة الحرية وتحاول استغلال المناسبات لطرح قضيتها. ثم بدأ دور الأحزاب. ولا ينكر دور الحزب الشيوعي منذ تأسيسه اذ كان السباق في طرح قضية المرأة في انظمته الداخلية وادبياته وحقها في المساواة مع الرجل بشتى ميادين الحياة.

ان نضال المرأة لم يكن موضوعه المركزي الحجاب فقط، انما الحرية كما نفهمها الآن كضرورة لآدمية الفرد وتطوره وما يعكسه ذلك على المجتمع وتطوره هو الآخر.

واذا اردنا الاجابة على السؤال المطروح في ملف «الثقافة الجديدة»: هل هناك تقدم أم تأخر في اوضاع المرأة؟ اقول وبألم وحسرة ان التضحيات التي اعطتها المرأة جسيمة.. ورغم تقدمها في مجال الثقافة وولوجها شتى مجالات الحياة العملية تقريباً، ورغم انبثاق التنظيمات النسائية التي تبنت قضية المرأة في بلادنا، ورغم تبني كثير من الاحزاب التقدمية ذلك، لكن المرأة لم تستطع ان تغير فقرة واحدة من قانون الاحوال الشخصية بخصوص حقها في الطلاق والارث والنفقة. هذا القانون الذي عدل في زمن عبد الكريم قاسم رغم ضجيج رجال الدين واعتباره بدعة وكفراً ووضعوا العراقيل ضد تطبيقه، ثم ألغي في الانقلاب الدموي عام ١٩٦٣ وذبح كما ذبح المئات من ابناء العراق.

واليوم المرأة في بلادنا مهدورة الكرامة معرضة للقتل والتعذيب من اقرب ابناء عائلتها بمن فيهم ابنها، لمجرد الشك بها، يدعمهم «قانون قتل الزانية» سيء الصيت..

لقد تراجع وضع المرأة لعدة اسباب:

١- احياء العادات والتقاليد العشائرية من قبل نظام صدام واصداره القوانين التي تمحو حق المرأة حتى في الحياة والدفاع عن النفس.

٢- تنامي الاسلام السياسي ادى الى العودة الى الحجاب وما يجرّه على المرأة من ابتعاد عن مجالات الحياة الكثيرة وما يشيعه من عادات تعامل من خلالها المرأة كشيء يجب ان يُحرزَ خوف عليه من الضياع وليس كانسان له عقل ومشاعر.

٣- قضية المرأة في بلادنا لا يمكن فصلها عن قضايا المجتمع الأخرى.. لقد شطب على نضال السنين الطويلة والتضحيات العظيمة التي قدمتها المرأة العراقية. دخلت السجون جنباً الى جنب مع الرجل، عُذّبت،

استشـهدت، حملت السـلاح، تعرضت لظروف اقسـى مما تتحملـه طبيعتها الفسلجية كأمرأة، لتثبت جدارتها بالحرية كأنسـان.و هنا يبرز امامنا سؤال يصـرخ: أيـة قضيـة من قضايا المجتمع العراقي احرزت تقدمـاً فـي عهد صدام؟ وأي جانب من جوانب الحياة العراقية لم يتراجع؟ الثقافة أم العلم أم الأدب؟ القيم الانسـانية التي شـوهت وصـار الابن يقتل ابيه وبالعكس ارضاء للسـلطة وخوفاً منها؟ السـلام والطمأنينة؟ التنمية الاقتصادية التي ضاعت بحروب لا تخدم سوى امريكا واسـرائيل ومصالحهما في المنطقة؟ أم قضية الشـعب الكردي الذي تعرض للمذابح والتشـريد، وها هـو يتعرض لمزيد من المحن بسبب الاحتراب بين الحزبين المتحكمين بكردستان؟

وكـأمرأة اقول ان قضيتنـا تراجعت كقضيـة الطبقـة العاملـة والفلاحين والمثقفين وكقضية الشعب الكردي وحتى الطبقة الطفيلية التي ترعرعت على حسـاب الطبقات الأخرى قبل حرب الكويت تراجعت هـي الأخرى الآن. لقد تراجـع كل شـيء: الأرض، الانسان، حتى النخيل تمرض ومـات. وسيسـتمر الدمار والتراجع مـا لم تقتلع اللعنـة التي حلت بـأرض الرافدين. سيسـتمر التراجع مـا لم تتشـابك جميع ايدي ابناء عراقنـا بكل قومياتـه وفئاته من اجل الخلاص من اللعنة التي هي نظام صدام.

هولندا
١٩٩٥/٧/٢٠


أدب وفن

حوار مع الشاعر مهدي محمد علي

«هناك طنين في رأسي»

حاوره: جنان جاسم حلاوي

«لا تحدثني عما فعلت
ولا عن البلاد التي رأيت
ولا البحار التي عبرت
ولكن قل لي: بم تدندن
حين تخلو الى نفسك؟»

هو مفتتح ديوان «سر التفاحة» ومدخله الى ساحة شعر مهدي محمد علي الواسعة الرحبة المكتظة بالظلال، وشمس تتململ عند نوافذ الذاكرة، وظلام مقيم عند العتبة، وصوت دندنة.

هو الاختلاء بالنفس، والترويح عنها، وهي حالات تذكر واستحضار، عودة الى الماضي، و أكتناز صعب، قاس لتحولات الحاضر المنوعة، من المنفى الى العراق، الى وجوه الاصدقاء، الى الرحيل والحب الذي كساه الغبار......

كل تلك الايقاعات المتفاوتة في تأثيرها، والمختزلة بصورة شعرية مكثفة تشف قيعانها عن حزن واضح، ورثاء للاحياء والاموات، وكأن القصائد ترحل من الحياة الى الموت ثم تُبعث من جديد ولكن مشوشة، مثل اشكالات حب قديم. وتبقى للشاعر مساحة مظلمة يتملص منها، صوب نور يتلجلج: النور البادي مزركشاً بالظلال، فيعطي انطباعاً عن الخزين الهائلة، لتجربة هذا الشاعر المتوجع إن في المنفى، أو في الوطن/العراق.

انه الشعر الذي يحاول تنفس الحرية باحثاً عن الضوء، رغم اصطدامه بمسافات القمع والتشريد.

* * *

❑ في ديوانك (رحيل عام ٧٨) و(سر التفاحة)، استطيع القول بأن الطابع الانطباعي/الرومانسي يغلب على جو قصائدك ومواضيعها، مثل (الذكريات، البعد، العلاقة مع المرأة، الحنين، الغربة، المخاطر، السفر عبر المفازات، الرحيل....الخ)، كيف تناقش وجهة نظري هذه في حالة قبولها أو رفضها؟

– ليس ثمة وجهة نظر، في مجال الابداع، تكون مقبولة بالمطلق أو مرفوضة بالمطلق، إذ ان كل وجهات النظر فيها شيء من الحق، وقد تتضمن ما هو غير دقيق. عليه اقول بأن ما ذكرته في السؤال وارد، وأضيف عليه أن قصائد (رحيل عام ٧٨) هي قصائدي بعد كتابة ونشر داما اكثر من عشرين سنة (١٩٦١-١٩٨٣). وكتابي الاول هذا لم يكن أول، لأنه لم يتضمن تلك القصائد التي تخليت عنها، رغم كونها نُشرت في الصحف والدوريات، ورغم انها حظيت بالاعجاب... ذلك أنني اعتبرتُ بدايتي الحقيقية في الشعر هي قصيدتي (لقطات من مدينة تعانق ماء النهر) التي توصّلتُ اليها بعد اكثر من اثنتي عشرة سنة من البحث الابداعي.. كنت خلالها أكتب القصائد ولكنها لا تقنعني، فقد كان هناك طنين في رأسي.. طنين قصيدة لا تأتي.. حتى أتت، فكان كل ما كتبته قبلها، وقليل مما كتبته بعدها، نسياً منسيًا!

❑ ما برحت تكتب التفعيلة، وقصيدة النثر محاصرة عراقياً، عكس ذلك في لبنان، أتعزو الامر الى السلطة أم هو خيار اسلوبي متعمد جاء نتيجة تراكم وتأثير قصيدة التفعيلة تاريخياً في العراق؟

– سؤالك ينطوي على «وهم جميل» وقد أسعدني كثيراً، فأنت ترى ان كل ما نشرته من شعر هو شعر «تفعيلة» في حين ان قوام المجموعتين الشعريتين اللتين صدرتا لي هو (٦٦) قصيدة، منها (٤٣) قصيدة نثر، و(٢٠) قصيدة موزونة، وثلاث قصائد تجمع الوزن مع النثر.. فهل هذا يعني انني ما برحت اكتب قصيدة التفعيلة؟! لست – مع هذه الملاحظة – إلا سعيداً، ذلك ان الامر يعني ان قصيدة النثر عندي لها كثافتها وموسيقاها الداخلية التي تجعلها في مصاف قصيدتي الموزونة، ولي في هذا الصدد حادث له مغزاه. لقد كتبت في احدى الليالي قصيدتين قصيرتين خلال اقل من نصف ساعة، وحين راجعتهما اكتشفت ان احداهما موزونة والثانية نثرية، ولست اتذكر

أياً منهما كتبتها اولاً.. وهذا دليل على انني لا افكر بالوزن أو النثر حين الكتابة، ولكن الأمر موكول الى العقل الشعري الباطن عندي!

❑ تكتب عن البصرة كثيراً، كونك ابن أزقتها وحاراتها وبساتينها، بالذات في مقالاتك (المنشورة في الدوريات والمجلات) والمعنونة «البصرة جنة البستان»، أتنوي تأبيد المدينة في لحظة نثرية، أم هو ضغط النوستالجيا؟ وماذا تعني الكتابة عن البصرة بعد «خراب البصرة»؟!

- جوابي على هذا السؤال استعيره من مقدمتي لكتاب (البصرة جنة البستان) النثري-الشعري والذي يقع في ثمانية عشر فصلاً (٤٣٥ صفحة دفتر بخط يدي):

«انني – وفي هذه السنين بالذات – ارى لزاماً عليّ ان اعرض هذه الصورة للبصرة التي تغيرت في المعمار والعمران.. صورةً ينبغي ان تحفظ في القلب، وان تنهض في الذاكرة، لما تنطوي عليه من تاريخ غني في كل ناحية من نواحيه.. صورةً أسفُ لضياعها الآن، كما اسفتُ لذلك وانا اعيش فيها، وقد تحول الكثير من مرابع الطفولة الى مجرد شوارع حمقاء، وارصفة جرداء، بعد ان كانت عوالم رحبة، ليس باتساع مساحاتها، بقد ما هي رحبة بغنى الحياة فيها، رغم عذابات التخلف والعوز اللذين لم يكن التطور اللاحق علاجاً شافياً لهما. ان الذكريات تولّد الذكريات، والصور تستدعي الصور، وهي لا تكفّ عني، بل ظلّت تتابعني واتابعها خلال المرات الثلاث للتبييض.. لذا سيظل هذا الكتاب بحاجة دائمة الى طبعة مزيدة، ما دامت البصرة تعاني الخراب تلو الخراب!».

❑ الشاعر سعدي يوسف استاذك وملهمك، هلاً حدثتنا عن طبيعة الاتفاق والاختلاف مع سعدي شعرياً؟

- يفصل بيني وبين شاعري واستاذي وصديقي سعدي يوسف احدى عشرة سنة من العمر، وهذا يعني ان بيني وبينه جيلاً من الناس، فكيف به حين يكون جيلاً من الشعر؟!... ان هذا يعني الكثير.. وهو يعني الكثير والكثير في حالة سعدي يوسف، الشاعر الذي لم يتوقف منذ كتب، والذي لم ينقطع عن النشر منذ نشر اول مرة.. وهذا الامر لم اتمكن – شخصياً – الا من احد طرفيه.. ان استمر في الكتابة، اما في مجال النشر فانا اشدّ الناس كسلاً وجزعاً! عليه اقول ان ما يجمعني بسعدي يوسف انما هو التحديق بالمرئيات.. اكتشاف المألوف الذي يبصره الناس ولا يرونه!! مستظلاً بقول

(ارشيبالد ماكليش) الساطع بأن العلم يكتشف المجهول، والفن يكتشف المألوف.. وما يفرقني عن سعدي يوسف، هو كوني (مهدي محمد علي) اذ لا يمكن ان تكون مكوناته هي ذاتها مكوناتي، ولا أحلام ليله هي احلامي.. وبالتالي فان حروفي وصوري وتشكيلاتي هي قطعاً غير حروفه وصوره وتشكيلاته.. ولا قول آخر لي سوى محبة هذا الشاعر!

❑ مع الشاعر البصري المميز عبد الكريم كَاصد تقيمان ثنائياً شعريا متقارباً في النبرة، والحساسية الشعريتين، أم تراني مخطئاً؟ ثم هل نسمع رأيك في كَاصد الشاعر، كونه اقرب المجايلين اليك؟

– حين تسألني رأيي بالشاعر عبد الكريم كَاصد فكأنك تسألني عن نفسي.. فأنا وعبد الكريم الشاعر، منذ عام ١٩٦١، نعيش صحبة حياة وشعر، لم تخدشها – حتى الآن – الاّ ظروف المنافي الجديدة بعد عام ١٩٩٠.. معا نشرنا اولى قصائدنا عام ١٩٦١.. ومعاً نشرنا في صحف العراق اشعارنا ونثرنا.. ومعاً غادرنا الوطن في اهاب البدو، وعلى ظهور الجمال.. ومعا مضينا الى (عدن).. ومعاً عشنا فقرنا المشرق!

انا وعبد الكريم واحد في اثنين، واثنان في واحد ولكن عبد الكريم كَاصد ليس مهدي محمد علي، اما قولي في كَاصد الشاعر، فهو انني شغوف بشعره دوماً، ذلك ان شعره – رغم رفقتنا اليومية طيلة اكثر من ربع قرن – يظل شعراً مختلفاً عن شعري، وشعري مختلف عنه، رغم اوجه التشابه العديدة. وهنا اكتفي – دون تردد أو مراجعة – بتذكّر بيت شعر جميل لكَاصد.. بيت لا انساه، ولن يبرح ذاكرتي الشعرية.. هو قوله يصف اناسا بسيطين: الجميلون حدَّ الذبول!

❑ ما زلت بعيداً عن الاضواء، تقيم في الظل، تكتب بهدوء وروية، ولم يتناولك النقاد الا قليلاً، هل لنا ان نعرف السبب، أقصد سبب انزوائك؟

– لستُ بعيداً عن الاضواء، انما الاضواء هي البعيدة عني، وليس ذلك امراً يقلقني. «اقيم في الظل»؟! نعم فهو حمايتي! «اكتب بهدوء وروية»؟! تلك هي وسيلتي كي اقدم خلاصة روحي! «لم يتناولني النقاد الا قليلاً»؟! تلك هي الحقيقة التي يأسف لها من يحبني، وتؤسفني قليلاً! اما انزوائي، فانه بلا سبب، لأنه ليس انزواء بل طبيعة اتمناها لجميع المبدعين.. وانا – منذ العراق – لا أعاشر الأدباء لأنهم ادباء وانا اديب، فانا لا اعاشر الا من يستحق العشرة حقاً، سواء أكان انساناً اديباً أم انساناً.... وعليه فلم يكن لي – لا

في العراق ولا في غيره - أناس يرونني ويرعونني بأعتباري شاعرا سوى الناس العاديين.. ولم يأخذ مني هذا الأمر شيئاً عزيزاً، فانا ما زلت حتى هذه اللحظة، وسأظل حتى لحظة الموت، اكتب الشعر، ولا افكر - الا قليلاً - بمن سينشر شعري، أو يكافئني عليه.. اكتب.. واكتب.. واكتب، وعلى الله الاتكال!

هو: مولود في البصرة/العراق/خريف ١٩٤٥.... صدر له: «رحيل عام ٧٨» منشورات وزارة الثقافة السورية/١٩٨٣/ شعر، و«سر التفاحة» - شعر/دار بابل/١٩٨٧. وله قيد الطبع: «شمعة في قاع النهر»/شعر، و«البصرة جنة البستان» كتاب نثري/شعري يصور البصرة في الخمسينات، استناداً الى الذاكرة الطفولية حصراً، و«شجرة البيت في المنفى»/نثر. مقيم حالياً في حلب..

«جنوب القطب الشمالي/السويد/١٩٩٥»

أعشاب عشتار
في عيادة منتصف اللّيل

عـواد ناصـر

(١) بين يدي عشتار

عشتارُ تهبطُ السلّمَ
والجنودُ يلقونَ النظرةَ الأخيرة على صورِ نسائهم
قبلَ أن يترجلوا عند شاهدةِ قبرٍ أُعدَّ على عَجَلٍ
لم نكن صُنّاعَ أساطيرَ
ولا أبطالاً في حربِ العصابات
نحنٍ عراة، عراةٌ فقط - مولعونَ بالتنزهِ في شارعِ الموكب
نطلقُ أغانينا الشعبية
لعلَّ نساءَنا يستقبلننا في أوّلِ ليلةٍ بعد الحرب
لنعدَّ حفلاً صغيراً
ونرفعَ أنخابنا من دماءِ خيولنا
يليقُ بعشتارَ الصغيرة
التي ستحرِّرنا من كلِّ مجد

١٩٩٥/٢/٢٣

(٢) عيادة منتصف الليل

رجلٌ يضع كمامةً خضراء
يحدّق في اللّوحة المعلقة على جدارٍ أبيض
في اللوحة إمرأةٌ من حليبَ
وعلى السرير امرأةٌ تلتفّ بشرشفٍ أبيض
تتبادلِ المرأتان النظراتِ
(يدخلُ الرسّام)
أربعةُ أشخاصٍ في الغرفة
بينهم امرأةٌ تبكي...

١٩٩٥/٢/٢١

(٣) أعشاب

حين داهمنا الفأسُ قلنا: سنحيا!
دمُ العشب في مقبضِ الفأسِ أخضرُ
قالت محللةُ الاصطفاءِ الطبيعيّ: أن لا مكانَ لكم!
لم يؤرّخ سلالتنا أحدٌ
والموظف يختم بالشمع أنسابنا الغامضةْ
فاستدارتِ بنا عرباتُ الحطبْ
ذهبت ريحُنا
وذهبنا...
سوى عشبةٍ تتنفّسُ تحت المطرْ

١٩٩٣/١٠/١

قصيدتان

حيدر الكعبي

بين ذارعي النهر

أودعوها فمَ النهر،
ثم مضوا
بذراعين مفتوحين
لأنبل عشّاقها
في اليمين اليمينْ،
والشمال شهادةَ أن
أقسموا
كاذبينْ.

النخيل الذي أخضرَّ
مسَّ السحابةَ
بيضاء
فأتصلت بالثرى
مطراً
أخضرا.

الشواطيء ترتدّ عنها
المياه، فينسلُّ
من موجةٍ رجلٌ
يكشف البرقِ عن
عريه، لحظةً،
ثم يغمره الليل.

«مدِّي يديكِ»
يرى النهرَ في
ومضة
فضةٍ متموجّة
شبحَ امرأة تتشبثُ
بالموجِ
«مدِّي يديك»
نداءُ على موَجة،
كالسنامِ اللعوبِ،
وصمتِ امرأة..
تتشبثُ بالموجِ،
«مدي ....»
هدير.

السحابة فوقهما
جثةٌ، موكبُ النخل
يحملها، تحت تكشيرة
البرقِ، تبدو البواخر
غارقةً
كعمالقةٍ
باركينْ.
يثبُ النهرُ،
يزأر،
يصطرعُ الموجُ..
والرعد
«مدي.........»
هدير.
خيطُ ماءٍ يضيء،
ويخبو،
يضيء،
ويخبو،
يضيء،
وتنفجرُ السحب المثقلةْ
مطراً أعغرقَ الأرصفةْ

عاصفةْ.

البيوتُ كراتٌ
من القصب المتقصِّف
تندك معصوفةً.
والوجوهُ الصغيرةُ..
تدفنُ أعينها في
الوسائدَ.
جيش النقودِ
المطارِدَ......
يزحمُ جَيشَ
العصافير.
رعدٌ
رنين النقود.

النخيل الذي أخضرٍ
مسَّ السحابة بيضاء
فاسودّت،
أربدّت،
أنفجرَتْ،
هدرت،
مطراً أغرق الأرصفةْ
عاصفةْ.
الشواطيءُ ترتدُّ عنها المياه
فينسلُّ من موجةٍ رجلٌ
يكشف الفجر عنْ عريه،
يقطر الماء والملح منه
على جسد امرأةٍ في
يديه
يقطر الماء والملح منها
على شاطيءٍ تتراجع عنه
المياه.
أودعوها فمَ النهرِ..
ثانيةً،

ومضوا بذراعين مفتوحتين
لأنبل عشاقها؛
في اليمين اليمينْ،
والشمال شهادة أن
أقسموا...
كاذبين.

رجلٌ في الظهيرة عارٍ
على شاطيءٍ تتراجع عنه
المياهْ؛
لم يزل يقطر الماء والملح
منه على فسحةٍ في
الفراغ
كان يحتلها جسد امرأةٍ
في يديه.

رجل في الظهيرة عارٍ
سوى من يديه
راح يثقب
أذن السكونْ:
«أيها المجرمونْ؛
أتحداكم..........
أتحدى شرائعكمْ
أتحدى القدرْ
أتحدي...........».
ولكنهم لم يطيلوا الحكاية
بل قتلوه مساءً،
وفي الفجر قالوا: أنتحرْ».

البصرة ١٩٧٣

قراقوش على المنبر

محنة العبقري المغفلْ
أنه مستقيم كمنجلْ
رغم أن لنا ما نرى
وله ما يراهْ
غير أن شجاعته
لا تمارى؛
فها هو يشتهر
في أوجه «المعتدين» قفاهْ
سوف يخطب فيكم
فيرجى لذا عدم الانتباهْ
يستهل الخطاب بذكر اسمه
- رضي الله عن غيره وتعالى عليه -
وبذكر علي وفاطمة والدي
والديه).*
ثم تقفز في ثورة قبضتاهْ
وسينساهما حيث علقتا
حين يضرب طاولة لا تردّ صداه
سوف ينهش أسنانه
سوف يقضم فاهْ
ثم يقذف قهقهةً في الوجوه يطير لشدتها شارباهْ
سيسود السكونْ
وسيصدم بالأوجه الواجمةْ
لحظةً،
ثم تُسمعُ همهمةٌ:
«صفقوا، انها الخاتمةْ».

البصرة - ١٩٧٩

---

* المقطع بين القوسين أضيف الى القصيدة عام ١٩٨١.

عن المنفى والذاكرة

لؤي عبد الإله

تصاب مدينة وهران في احدى روايات البيركامو بوباء الطاعون فتنغلق بواباتها أمام سكانها، ووراء من كان خارجها، أو من استطاع الهرب منها قبل عزلها عن المدن الأخرى. فجأة يصبح الذين في الداخل منفيين عن العالم، والذين في الخارج يصبح العالم منفاً لهم. ما يتبع ذلك وصف لسكان المدينة في مواجهتهم للطاعون: التحولات النفسية والفكرية التي يمرون بها خلال سنوات المحنة تلك. من هم خارجها لم يكونوا موضوع الرواية. والسؤال عما حلّ بالهاربين من وهران الى المنافي الأخرى، لم يكن هم الراوي الذي وجد نفسه محبوساً داخل اسوار المدينة الموبؤة.
حادثة واحدة قدمت لي الاجابة عن هذا السؤال. كان ذلك في مدينة سيدي بلعباس التي تفصلها عن وهران مسافة خمسين ميلاً فقط. وتلك المدينة لا تعدو ان تكون قرية كبيرة، تتراصف في مركزها المحلات على هيئة خطوط الدومينو. وبجولة قصيرة في السيارة، يمكن اكتشاف معالمها البارزة: ثلاثة حمامات، مدرستين ثانويتين، وثلاث حانات تغلق عند الساعة السابعة مساء.
في ذلك النهار، من نهارات نيسان المبهجة، انفتحت، ولاول مرة، مقبرة الفرنسيين، منذ عهد الاستقلال، لاستقبال احد المنفيين الذين قتلوا في حادثة سيارة. لقد شاءت المصادفة ان يكون «صفوت» مسيحياً، وان يكون ضروريا دفنه في مقبرة المسيحيين، ارضاء لاهله الساكنين على بعد آلاف الاميال عنه، بعد ان عرقلت سلطات بلده ارجاعه اليهم.

ووسـط دهشـة مواطني بلعباس، الذين كان معظمهم يظن ان كل العرب مسلمون، ثم التوجه الى مقبرة الروميين، كما يسميهم الجزائريون كل المسيحين. وما بعث الالم في نفوسهم، ان يقرر عربي من المشرق عاش وعمل بينهم سنوات عديدة، الانتماء اخيراً ودون استشارتهم، الى الطرف الآخر: الفرنسيين.
في الداخل واجهنا مشهد مذهل، اذ ما الذي يحدث لبقعة مشجّرة، حينما يتركها البشر عشرين عاماً بسلام؟ كانت اشجال السرو ترسم طريقاً طويلا، وقممها تتقارب تدريجياً حتى تلتقي في آخر الشارع، مكونة درباً يصل الى السماء المطلقة الزرقة. خلف صفي الاشجار، نمت نباتات مختلفة متداخلة مع بعضها، دون انتظام، شقائق النعمان، والنرجس البري، مع نباتات اللبلاب والعليق. والحشيس الخشن مع الاشواك الجافة، شجيرات الميموزا مع الصبير الصامت. والطيور انشدت هناك بكثافة غريبة: العصافير، العنادل، طائر الحناء والشحارير. كان ذلك المهرجان الذي اقامته الطيور مغايراً لحالة الذين احاطوا بتلك الهوة. وهم يرمون بحفنات التراب اليها، على صوت احدنا الذي تقمص دور القس، جيث راح يقرأ، بتلعثم ممثل ردئ، نصاً من كتاب العهد القديم: «اذا سرت في وادي ظل الموت لا اخاف شرا لانك انت معي، عصاك وعكازك هما الذان يعزيانني...».
الى الجانب الايمن، احتشدت النساء يمارسن طقوساً مشابهة لتلك التي تقوم بها امهاتهن وجداتهم: اللطم على الخدود والصدور، هيل التراب على الرأس، البكاء والنواح. كنا قبيلة رحل قتل إلهها، فراحت تكرر طقوسها بحنون وحشي، سعياً للتخلص من ذلك الاحساس الذي داهم افرادها، بأنهم معلقون بين السماء والارض، يلتصق بعضنا ببعض لا ارادياً، خوفاً من تلك الهوة، وذلك الفراغ المجنون الممتد بلا مبالاة وراءنا، مسترجعين تلك الآصرة التي كادت تختفي بيننا، سمّها وطناً أو أي شيء آخر...
لكن المفارقة، رغماً عن ذلك، اطلت برأسها علينا اولئك الفرنسيون الذين ماتوا على ارض كانت جزءاً من وطنهم الأم قد اصبحوا غرباء فوقها، وقتيلنا الذي عاش غريباً على تلك الارض قد اصبح اخيرا مواطناً من مواطنيها.
حالة الذين يعيشون في المنفى تختلف عن الآخرين الذين يعيشون في الغربة أو المهجر، اذ ان ابواب مدنهم تظل مفتوحة امامهم. انهم يحققون بذلك التواصل بين الماضي الذي يسكن في دهاليز ذاكرتهم، والحاضر المتحقق في بلاد آخرى.
الحالة التي يعيشها المنفيون مخالفة لتلك، انه الانقطاع التام بين الماضي

والحاضر. واذا كانت الذاكرة تسعى للتشبث بالماضي، عبر الاحلام، عبر التعلق المتطرف بأغانٍ قديمة، عبر تكرار وجبات الطعام المحلية بشكل احتفالي، عبر زيارة مدن مشابهة لتلك التي تنتمي الى الماضي، عبر المشاحنات بين منفيي المدينة الموبؤة الواحدة، فانه من جانب آخر، تفرز متطلبات العيش اليومي وقوة العادة التي تمثل الحاضر، عبر الدراسة، العمل، السكن الجديد، ما يراه المرء من اماكن جديدة، او عبر تجارب عاطفية جديدة. كل ذلك سيخلق ما يمكن تسميته بالحاضر الراهن، المنفصل عن الماضي الذي تظل الذاكرة متعلقة به، والذي به تظل جذوة الحياة في الاعماق تبعث بنكهة خاصة لوعينا. لكأن المرء يجد نفسه منقسماً بين قطبين بظلان ملازمين له.

ربما يعبّر الشاعر سعدي يوسف، في تجربة منفاه الأولى خير تعبير عن هذه الحالة. اذ بعد خروجه من العراق في بداية الستينات، استقر في مدينة سيدي بلعباس الجزائرية لما يقرب من ثمانية اعوام. في ديوانه بعيداً عن السماء الاولى، نجد ان العراق حاضر في معظم قصائده، تعبيراً عن حالة الحنين المتواصل. الذاكرة تزيل كل الشوائب التي تعلق بالوطن الآم. ومع عودته الى العراق استيقظ النصف الآخر الذي نما كالفسيل خلال سنوات منفاه. وعام ١٩٧٢ يعتبر حاسماً في تجربة سعدي يوسف الشعرية، وثمرته كانت ديوان «الاخضر بن يوسف ومشاغله».. الطاقة التي كانت وراء انجاز ذلك الديوان الرائع، هي طاقة الحنين المعاكس.

لو اجرينا مقارنة بين الاشياء التي يستعملها سعدي يوسف في الديوانين سنجد، على سبيل المثال، ان العرق الابيض في «بعيداً عن السماء الاولى» يقابل النبيذ الاحمر الجزائري في «الاخضر بن يوسف...»، النخل مقابل الصنوبر، الفرات مقابل البحر المتوسط، الدفلى والرازقي مقابل الشقائق والنرجس المتوحش.

انها حالة المنفى الذي يخترق السطح ليصبح جزءاً من الكيان الداخلي للانسان، حيث الماضي والحاضر يقفان خصمين متقابلين، وحيث الحنين هو الجسر الذي يربط بينهما ربطاً وهمياً.

الكتابة النثرية في المنفى تتحدد على الاغلب بثلاثة اشكال. الشكل الاول: حينما يتبنى القاص أو الروائي المدن الجديدة التي يعيش فيها اطارا لقصصه، الابطال غالباً ما يكونون منفيين من بلاده أو بلدان أخرى اضافة لمواطني البلد المضيف.

الكتابة الثانية تدور حول بلاده، وهذه تكون عبر استقطار الذاكرة قطرة قطرة

لاعـادة مـا هـو في المـاضـي، لاسـترجاع المـدن التي عاشـها في طفولتـه ومراهقته، وهنا تدخل المخيلة للثم الفجوات وترقيعها.
الشكل الثـالث: تحويل المـاضي الى واقع اسطوري، طالما ان اللاوعي لدى الكاتب مبعد عن المدن التي تشـكل فيها. وطالمـا ان الحـاضر يقف امـام الماضي كحلم. والعكس صحيح ايضـاً. لذلك فعناصر، كالفنطازيا والتاريخ الوطني والدولي والاساطير، يمكن ان تتشابك مع بعضها من اجل خلق واقع فني مغاير للواقع الحقيقي. هنا يصبح الكاتب نقطة تقاطع عناصر كثيرة، قد تبدو للوهلة الاولى متنافرة فيما بينها ولكنها بتداخلها مع الماضي والمخيلة ستتنسكب في بناء متجانس.
انه سعي لاعادة بناء العالم المضيٍّع، تأسس الفردوس المفقود الذي لا وجود له في الواقع، والذي سيقدم عزاءً كبيراً للقارئ والكاتب معاً.
ان حياة أي فرد حدث استثنائي لا يتكرر، وأي فترة من حياة المجتمع هي ايضاً حدث استثنائي. ان قدرة الاديب على التعبير عن هاتين الحياتين فنياً لتعتبر انجازاً فريداً واستثنائياً في حد ذاته.

رأس السنة

كريم الأسدي

اليوم هو الفاتح من السنة الجديدة ١٩٩٥...
اصوات المفرقعات النارية المتبقية عند اهالي هذه المدينة من الليلة البارحة تقتحم عليَّ الشباك وتمزق الهدوء الذي اريد أن انعم به..
اما الليلة البارحة، ليلة عيد رأس السنة، فقد كانت اشبه بليلة حرب مجنونة نشبت بين الارض والسماء.. آلاف الاشكال النارية ترسم في الاعالي مهرجاناً اخرقَ ثم تنطفيء ببلادة لتحل محلها نيران أخرى... اما الارض فقد امتلأت برائحة البارود الذي لم يبخل بعطره السمج على كل شارع من شوارع المدينة.. كما لو ان المدينة احترقت.
اصوات انفجارات هائلة آتية من كل مكان كأنها تهم بتمزيق طبلة الأذن، ووميض كالبرق يصعد من كل زاوية... انه ابعد ما يكون عن الاحتفال واقرب ما يكون الى الانذار بكارثة كونية كبرى... ضرب من الجنون؟ أم رغبة مكبوتة في اطلاق النار واللعب مع النار؟ أهو الحنين الى الحرب يزمجر بدماء هذا الوحش الانساني الذي لم يتأنسن بعد؟ أم انه الثراء وقد فحش وعربد؟
ربما كان كل هذا وذاك!
أو ربما هو فرح الناس الذي لا يستطيع ان يفهمه بائس مثلي يفكر ببلدان مثقلة حتى الهامة بالمآسي والنكبات. فأنا اكاد اقدر ان النقود التي صرفت في هذه البلاد الليلة البارحة، فيما الاهالي يلعبون مع النار، ستكفي لاطعام بلد كامل من بلدان العالم الثالث ولمدة سنة كاملة... ولكن كيف يبقى العالم الثالث عالماً ثالثاً؟ لقد تكرر الحدث بالتأكيد في كل مدن اوروبا الغربية وامريكا الشمالية...

* * *

البارحة اشعلت الشموع لثلاثة ضيوف سهروا عندي... ثلاث شموع توهجت لترحب بثلاثة ضيوف، شمعة لسلام الاسدي، وشمعة لاحمد أمير وأخرى لي انا...

سلام واحمد الشابان اللذان رحلا عن العالم في العام الراحل، كانا بضيافتي هنا الليلة البارحة..

لا أدري لماذا خامرني شعور غريب، لم يزل يخامرني حتى الآن، بأني ضيف في شقتي هذه... انني استضفت سلاماً واحمد، هنا، في زمان ومكان زائلين، لانني شعرت بشوق جارف نحوهما. فانا اذكر ولا انسى انهما غادراني فجأة، دون وداع ولا مقدمات في صيف العام الراحل. لمَ أحس انني راحل عن هذا المكان، أنا الاخر؟ قيل انهما انتميا لسكان المقابر، احدهما قرب ساحل المحيط تمدد، والآخر قرب ضفة النهر نام... لم اصدق ما قيل!

والبارحة، البارحة تأكدت من كذب ما قاله الآخرون... فلقد قدم الاثنان معاً، الي، فيما الشموع الثلاث تشيع في الشقة عطراً ألقاً كما لو انها قادمة من اديم كواكب بعيدة.

كان سلام يطل بوسامته السمراء بعينيه الواسعتين الذكيتين العاتبتين على الجميع... اما احمد فكان يبدو بابتسامته الحزينة وبصوته العذب الودود... ومن كلماتهما كنت اشم رائحة الجروح. أما انا فقد كنت مثل الذي توجب عليه ان يودع جثة راحلة... كان لدي خوف من لحظة التوديع واشفاق على نفسي... كنا نريد نحن الثلاثة ان نكتب قصيدة مشتركة، وثيقة ادانة ضد هذا العالم العاهر، صرخة احتجاج بوجه هذه البشرية المزيفة، البشرية التي لا تبرأ من عللها...

اذكر اننا بدأنا نكتب بالدماء، الدماء التي تسيل من اجساد الشموع الثلاث، الشموع النازفة. كتبنا وما انتهينا فيما الشموع لم تزل تنزف حتى اللحظة هذه...

في اليوم الثاني من السنة الجديدة عدت الى اوراقي الراقدة على طاولة الكتابة فوجدتها هامدة لا حراك فيها... عدت الى الشموع: كانت مطفأة مغطاة بكفن احمر! خيل اليّ ان الكفن الذي يغطي الشموع الثلاث هو نسيج واحد يغطي ثلاث جثث.. فكرت بالثلج الهاطل من السماء قطعاً صغيرة بيضاء... ملايين القطع الصغيرة البيضاء المتموجة في الهواء، السابحة بين الاشجار التي تطل عليها نافذتي.. انها ترقص رقصتها الاخيرة قبل ارتطامها الوشيك بالأرض. ملايين من جثث الاطفال تسقط من السماء الى

الارض... انها ترقص وتتغنج قبل ان تطيح... انها تتذبذب خاطّةً مسارات افقية ضمن مسارها العمودي باتجاه حضن الارض.. ان كثافتها تماثل كثافة الهواء، اثقل من الهواء بقليل.. لذا فان سقوطها هو نوع من التحليق.. انها، كما قلتُ، جثث اطفال... تذكرت انني سمعت في طفولتي، ان الاطفال الرضع لا يغرقون فالمياه تحمل اجسادهم الخفيفة كقطع الفلين... حينما درست الفيزياء وددت لو اتأكد بنفسي من هذه الظاهرة ولكن: أنّى لي ان اغامر بحياة طفل رضيع؟! بين مشاهد الموت، بين الاكفان البيضاء والحمراء، حاولت ان استأنف الكتابة الا انني اشفقت على نفسي!

يحدث دائماً انني حين اصل ذرى الحزن الشاهقة واعبرها اتوقف عن الكتابة اذ لا لغة تسعفني... أعرف هذه الاطلالة على الكلمات من قمة عملاقة بحيث تبدو معها اللغة فقيرة بائسة... طرحت القلم جانباً وركنت الى نفسي.

في اليوم الثالث من السنة الجديدة... نهضت بعد ليلة ارق من فراشي، سرت باتجاه الشباك: ملايين من البشر بمسوح طويلة داكنة السواد يقفون على ارض بلا معالم... اين القبّة الفلكية التي كنت اميزها من نافذتي واحضر فيها افلاماً ومحاضرات عن الفضاء والمجرات والكون؟ اين الاشجار التي تقف بمواجهة النافذة؟ اين اليمام الذي كان يأوي الى الاغصان ويلعب في باحة الحديقة؟

ملايين من البشر، هؤلاء المحتفلون قبل ثلاثة ايام، يقفون صامتين على ارض بيضاء خالية من المعالم... السماء بلا لون. لونان اساسيان يحكمان المشهد، الابيض متمثلاً بأرض لا نهائية مغطاة بالجليد حتى حدود الأفق، والاسود متمثلاً بملايين البشر بمعاطف سود طويلة وسراويل سود، كل منهم يحمل بين ذراعيه جثة صغيرة بيضاء.. صوت عواء بشري قادم من الافق البعيد، صوت بلا بداية ولا نهاية، صوت لا ينتمي الى السماء ولا الى الارض، لا الى الاحياء ولا الى الاموات، صوت غريب، مريع، فاجع كان يعوي بلغة غريبة، مريعة، فاجعة... لا استطيع ان اواصل الكتابة، لا اقدر ان اصف ما رأيت وسمعت!

١-١٩٩٥/١/٣

برلين

«إلى آخره»
قصائد تغتسل بكافور الكلام

نجم والي

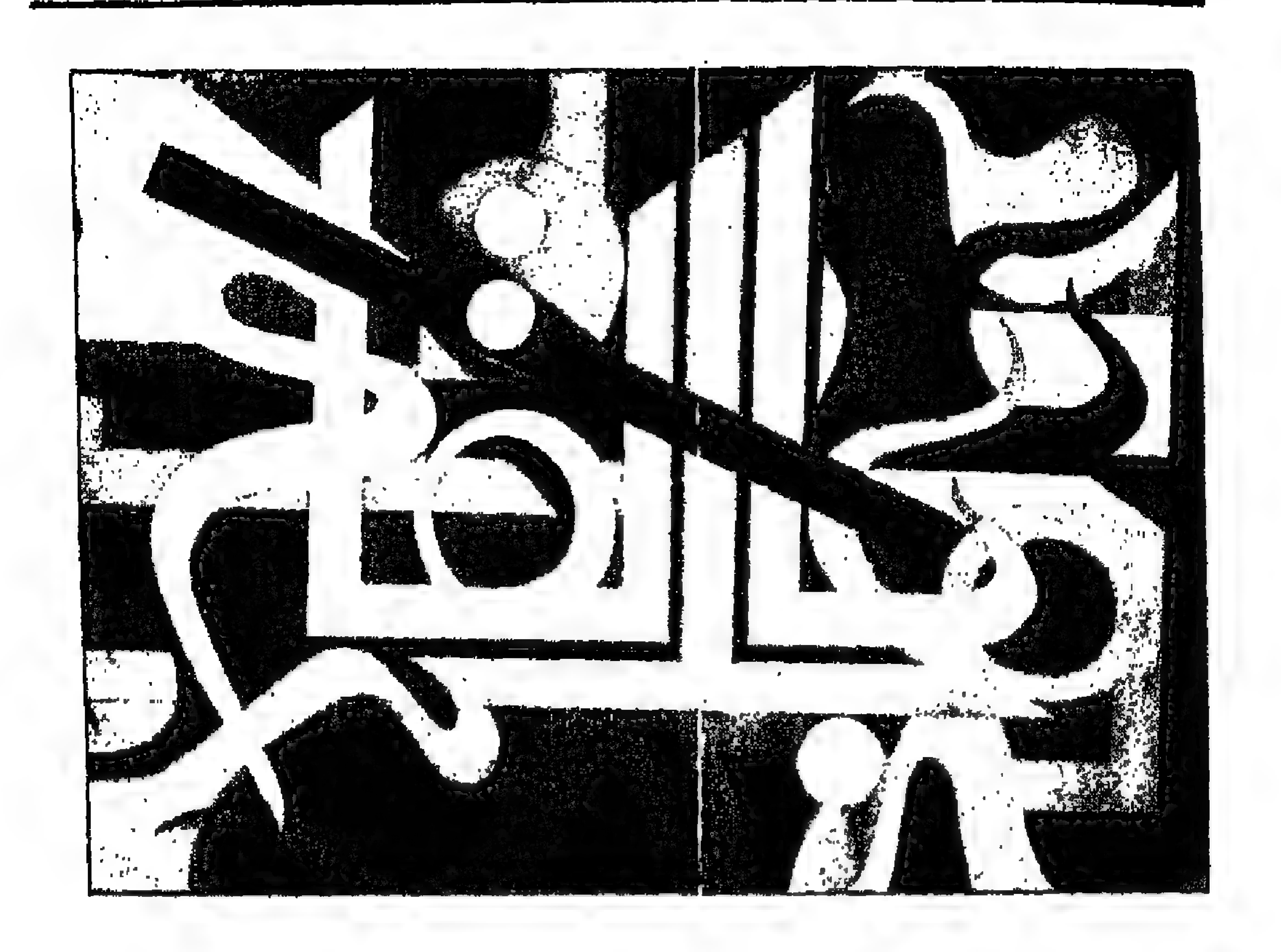
قبل الدخول في تفاصيل ديوان «إلى آخره» للشاعر العراقي عدنان محسن والصادر عن دار فراديس، ينبغي تثبيت حقيقة مهمة، وهي أن عدنان رغم معايشته لما أطلق عليه في العراق «جيل السبعينات» إلا أنه لم ينشر إلا نادراً كما لم تقدمه أية حركة سياسية ضمن جرائدها وإعلامها كما كان المعتاد آنذاك في العراق. وقد ظل الشاعر أميناً لهذه الحالة حتى عند مغادرته إلى المنفى فيبيروت، ففي الوقت الذي واضب الكثير من زملائه على إصدار كم عديد من الدواوين لم ينشر هو سوى قصائد متفرقة في «النهار» وفي مجلة «الحياة الجديدة». إن الكتابة بصمت منحت الشاعر الكثير من الوقت للإشتغال على مادته وعجنها بصورة حذرة وجيدة ليفاجئنا بالفعل بديوانه الأول الذي يحتوي على ٢٢ قصيدة مكثفة في لغتها، ومركزة في موضوعها، تكره الإستطالات، تصلنا بلا نتوءات، بلا نشازات. هكذا تأتي سلسلة بسيطة، تجر العالم معها، وتدفعه كله إلى نقطة واحدة صغيرة، الى القصيدة كما كان لإحتواء العالم.

«الآن
عندما يقيم المساء حفلة للغياب،
ويمضي الآخرون،
خطواتهم موشومة بإنتظارات فسيحة
سأعود إلى نفسه

مشياً على الأقدام» (قصيدة الآن)
ألم أقل ان الشاعر ليس على عجلة من أمره؟ فيه تأمل الفخّار وهدوء الحكيم. سيذهب إلى نفسه مشياً على الأقدام. وحذار سنمشي معه أيضاً، ندخل عوالمه، نعيش طقوس قصائده ولا يهم إذا ما شعرنا بالبرد، فهناك:
«برد في البرد
في كل مكان.... برد
إلاّ في هذا الرأس الحامل أشلائي». (برد)
وعلى طول القصيدة وعرضها ندخل مع طبعه الذي يدخل أقصاه في أدناه، لنعرف أن الكتابة الشعرية عنده ليست هماً أو وظيفة أو بطراً أو إنشاء فارغا وبلاغات طنانة، كلا، فهو لا يكتب لأن الشعر هدف في ذاته، أو لأنه وببساطة موجود، لانه:
«مثل طير معصوب العينين
يرتمي في راحة الغيم» (تفاصيل أولية)
ولكن لا عناء حتى عندما يترك وجهه «في خزانة الغرفة أو في سلة المهملات». فأنه سيكتب: «تاريخ العالم في سطرين» (الآن)
بل سيكسر وزن القصيدة، فهو لا يبالي بالتسميات التي تصنف الشعر إلى قريض أو حر أو قصيدة نثر. انه يؤمن بالقول الشعري الخالص فقط، لا يهم بأي شكل يصاغ.
ليس من المبالغة القول ان عدنان محسن يؤسس لغة خاصة به، ويغني بإيقاع يصفه هو، وحتى إذا اشترك احياناً مع آخرين فأنه يتفق معهم في العام هذا، في صفته للقصيدة في تكثيفه للحالة الشعرية، في سحبه للعالم بسعته وإلقائه على أرض القصيدة الواسعة كقلب والصغيرة ككف. تلك هي فضيلة ومنّة عدنان على الشعر، مثلما يفعل إستاذه سعدي يوسف وزميله رعد مشتت، اللذان يشترك معهما في تعامله مع الحدث اليومي والإشتغال عليه بحنان شعري. فهو مثلهما: اللغة عنده ليست غاية. وهذا ما تطالعه بنا كل قصائد ديوانه. ليس هناك بلاغة ولا إنشاء «رفيع» ولا رومانسية مشلولة، ولا بكاء على الأطلال والوطن «المفقود» و«الحصان المتروك وحيداً». على العكس من كل ذلك، فأننا نواجه شاعراً يرتكز إهتمامه على بلاغة الصورة الشعرية وبساطتها:
«لن يصفو طبعي الليلة
فالقصيدة التي لم تفرغ بعد
من تقليم أظافرها

لا بد لها ان تستحم بكافور الكلام» (قصائد)
هل هناك شهادة أكثر على مقت الشاعر ونفوره من القصائد الطنانة الغير مقلمة الأظافر أو المتحذلقة.
وحتى في تلك القصائد التي تبدو شخصية جداً وتخاطب أصدقاء قريبين للشاعر يدهشنا إصراره على عدم الإطالة، كما أنه يلقي الكلام الحكمة.
يقول مخاطباً جان دمو:
«أنت تبحث عنها في كل مكان
إلا في هذا العالم
وأنا أبحث عنها في كل العالم
إلا في هذا المكان»
إن الإشتغال على المفارقة والضربة يرافق معظم قصائد الديوان، ففي «البعض» يقول:
«رغم أنهم...
لا طعم لهم ولا رائحة
لكنهم لا يشبهون الماء» (البعض)
إن هذه القصائد الغنية بمفارقة الحدث اليومي لا تخلو أيضاً من سخرية مرة وكوميديا سوداء:
«لم أتأكد من موتي
حتى قرأته في عيني صديق»

أو كما في قصيدة «يقين»:
«فتشَ عن رأس يانع لقطفه
فلم يجد أفضل من رأسي»
على هذا المنحى ينسج عدنان قصائده دون تكلف. وحتى تلك الصور التي تحمل بعضاً من السريالية فأنها لا تحلق بأجنحتها بعيداً بل تلامس أرجلها الأرض، وكأن الشاعر يصرّ على سحبها معه، ربما لأنه يؤمن:
«أن الحكمة مرآة الخرافة
العقل حديقة
يتنزه فيها الجنون» (شؤون صغيرة)
هكذا، في الأخير نتنزه نحن معه في عالم قصائده وبمتعة.



صادق الصائغ



بين ٣٠-٨/٥-١٩٩٥/٩/٥ عرض الفنان الشاعر صادق الصائغ، في «ديوان الكوفة» بلندن، ثلاثين من لوحات الخط التي اخترنا بعضها لهذا العدد. وعن نتاج صادق في هذا الحقل، قال زملاؤه المبدعون:

محمود صبري إن صادق يحفرُ بحماسٍ وشغف داخل الشريط الحدودي الوعر، والقائم بين الرسم والخط، بحثاً عن كنز، عن اشكال واطياف، رابطاً بين هذين الميدانين قيماً تجريدية وجمالية.

ضياء العزاوي وهو يجمع بين الشعر والخط يُوجد فسحات للتخيل، فبين نص حر مختزل وانضباطية تكوينات خطية يبقي صادق الصائغ قلقه الحاد كمخزون تعبيري.
صورة الخط عنده تتبدل بين حرفية عالية وبين اجتهادات متنوعة تتجاوز تقليدية الصورة المعروفة لهذا الحرف أو ذاك. وهو هنا يقترب في نواح عدة من الرسم، محتفظاً بتكوينية حروفية مميزة، ميالاً لان تأخذ صورة الحرف أو الجملة شكلاً مركزياً، وحولها تبني العناصر الأخرى (الألوان، الاشكال الهندسية) تكاملها اللوني والتكويني.
ان عبور الصائغ تلك المساحة الحرة يجعله، اكثر فأكثر، داخل مساحة الرسم. وهي، كما نعرف، مضادة لتقنية الخط بصورته التقليدية المعروفة، حيث سطح اللوحة وتنوع بنائها وعلاقاتها اللونية والتكوينية هي اساس وجودها الفني.
من هنا تبدو المحاولة التي يقوم بها صادق وأهمية طاقتها على الاستمرار.

بلند الحيدري: اوسع الصائغ للسطوح وايقاعاتها المتدرجة لتتحاور مع حركة النصوص المكتوبة، فتتحول الالوان والسطوح والاشكال وكأنها من بعض مضان النص في ابعاده الشكلية والتكوينية والرمزية، بما يهبها انسجامها التام، حيث يصير لكل المقومات الموجودة في النص وفي الجهد التجريدي ظهير يؤكد كل منها الآخر، من دون ان يحرج الصنعة الإدائية في الموروث الخطي العفوية الفنية والعكس وارد.
عدا هذا، ففي اللوحات الكثير الكثير من شاعريته الفنية والكثير الكثير من الرهافة والشفافية.

شوقي عبد الأمير: سرقوا منهُ كل شيء
الأهلَ، المدينةَ، السنواتِ
وهو اليومَ يحاولُ تهريبَ القِمَمْ

محمد سعيد الصكَار: تكوينات (صادق) متناغمة متماسكة، طافحة بالحركة والعذوبة والشفافية...

انــه تاريخيــاً، من اوائـل الخطـاطين فـي العـراق الذين اجــترحوا هذه المغـامرة – التجديـد – في فـترة هـي اغنى واهـم الفـترات فـي تـاريخ الثقافـة العراقيـة المعـاصرة. وفـي لوحاتــه الخطية نتعـرف على خيـال الفنان الواسع في استكناه الابعـاد الداخلية والطاقات الخبيئة في الخط العربي، وجرأته في التجـاوز واعادة التركيب تؤهله لجمع فراديس الخط العربي وصحراء اللوحة والمزاوجة بينهما.

* * *

وعن تجربته ومعاناته، يقول صادق: أبحث في داخلي عن نقطة متوازنة، قادرة على خلق لحظة مضيئة في نفسي. وأمارس، لذلك، حقولاً مختلفة، الشـعر اقربها. فالمفردة طريقي الـى التجريد والى الميتافيزيقيا منطوقة أو مرسـومة. فكلمـة (الله) تنقلني الـى أبعاد أخرى، والجملـة حجة لخلق فضاء تخيلـي ينفصل عن الجملة ويرددهـا في عين الوقت. أنقل الخرافة – من منظور ماركســي – الى الشــعر والرسـم واتوقـع الالتقاء بصدفـة ســحرية مع كل خطوة فـي لوحتي، الأمـر الذي يكســبها طاقــة دراميـة متحركـة. احـاول ادخـال الجملـة، وليس الحـرف وحده، ضمن المعادلة التشكيلية الفنيـة واعطاءها بعداً شمولياً مع الاحتفاظ بمصدرها التراثي الذي هو اصول الخطوط وهارمونيتها، سـوى انني اسقط عنها زخرفتها وتزويقها.

قصة قصيرة

أسفار حسان بن علي القحطاني

السفر الأول

وداد عبد الزهرة فاخر

ما أن وطأ بقدمه أرض المدينة، حتى راح يجوبها طولاً وعرضاً، وأمام عينيه تداعت الصور القديمة جلية واضحة وبدون رتوش حدق في الصور المتداخلة كثيراً وراح يستعرض بعضها بدهشة كأنه يراها لأول مرة. أين هو؟! وأين يسير؟ وتراكمت تساؤلات عدة في ذهنه دون ان يجد لها اجوبة معقولة، وتاه في لجة من افكاره في لا عقلانية فريدة من نوعها. بحث عن اشياء افتقدها كثيراً دون ان يتوصل لماهيتها.. وصفق جناحا طيرين كبيرين يطيران فوق رأسه، فرفع رأسه تحية لهما. ابتسم الطير الكبير، وأومأ بمنقاره محييا، فرد التحية مبتهجاً، وهو يقول في نفسه:

– الويل للمجرمين.

وأمتلأت السماء بمخلوقات مختلفة ومتعددة الأجناس، وأرتفعت اصوات عديدة متداخلة، وعلا الصراخ مغطياً على قرقعة السيوف. عرف من بينها اصواتاً متداخلة، وصوت مشادة حامية بين الأمين والمأمون وصل الى حد الشتائم، بينما المنصور واقف لا يلقي بالاً لأحد. وهو يوزع أوامره على الجلاوزة، يصرخ منفعلاً:

– كيف يعيش في عصري من تهمته الزندقة؟!

وكان يستعجل الجميع لأحماء التنور الحديدي لعبد الله بن المقفع.

وراحت الاصوات تخفت رويداً رويدا. ثم ساد هدوء يشبه صمت الأموات. وعادت الهوام تحلق في فضاء لا متناه، وهي خليط من الحشرات والزواحف المنقرضة، ذات ارجل واجنحة كبيرة. وارتفع صوت حزين دندن ببضع كلمات من أغنية حزينة، وضوء الشمس يكاد يختفي من كثرة الهوام الطائرة عندها صاح أحد السدنة، وهو يثبت عمامته الخضراء فوق رأسه:
– ويحكم أفسحوا الطريق لمولاكم.
ثم رفع كبير السدنة عصاه، وطوح بها في الفضاء محذراً، فانتشرت الهوام، ولاح ضوء ابيض يبهر العيون ممتداً من القبة حتى السماء، والتمعت في وسط السماء بقعة مثل شهاب ساقط، وأرتجت الأرض فصرخ السادن ملتاعاً:
– ويل للمكذبين!
عندها بكت احدى النسوة المارات من أمامه، وشدت شعرها مولولة: مولاي أنت سندي ورجائي.
بينما استمر السادن في هذيانه اللامعقول، وهو واقف في مكانه لا يريم، وراح يتمتم بصوت خافت:
– عجّل بالقدوم يا مولاي.. عجّل!
طال الانتظار، والعيون محدقة وهي غرقى بالدموع، والسادن لا يكف عن الأنشاد والتهليل.. وعندما قالوا له: «سقط أحد اعوان الحجاج بشهاب من السماء» لم يختلج جفناه، وظل يرنو بنظره الى الأعلى وكأن شيئاً لم يحدث. وظلت شفتاه ترتعشان، وهما ترددان: «الغوث.. الغوث».
وعاد يهيم في ملكوته بعد صحوة قصيرة، وطار مع الهوام دون هدف، وراح يحلق في أرجاء الكون يقتات أنواعاً من الصبار والحشرات الصغيرة، ويعب قطرات من بخار الماء بطريقة خيشومية حديثة. وعندما يجن الليل يسرح هائماً في فضاء لا متناه يرنو الى القمر المضيء مردداً مع الملائكة أناشيدهم السماوية البهيجة... وعاد يتذكرها وصورتها الجميلة لا تفارقه، بيضاء ممتلئة، في وجهها المحيي بسمة دائمة، وعيناها النرجسيتان ترنوان اليه بشوق ولهفة، وشذى رائحتها خليط من الآس والبنفسج والقرنفل يتصاعد الى أنفه.. كان يسير ملاصقاً لها، وعطرها يفعم أنفه.. كتفها يحتك بكتفه، وجزء من شعرها الأسود الفاحم المنسرح على كتفيها، والممتد حتى أعلى ظهرها، يلامس وجنتيه بين الفينة والأخرى، وهي تحدثه مبتسمة وعيناها لا تفارقان وجهه، وهو سارح في ملكوته.. ثم امتدت يد احد اعوان الحجاج نحوه، جروه بقسوة ذكرته بكل ما حصل للحلاج.. ثم صرخ احد

الاعوان بعنجهية وصلف، وبصوت يشبه فحيح الأفعى. فتغيرت قسمات وجهها الجميل الباسم، وبدت حائرة لا تريم. ابتسم لها مطمئناً، لكن جذبة قوية أخرى اقتلعته من أمامها...

بدأت بعض الهوام بالتفرق وصوت الخليفة يصرخ منادياً باحضار السيف والنطع. فظهر من بعيد مسرور السياف وهو يهرول بطريقة ذئبية ملبياً نداء سيده.. فجأة حلق الطير الكبير في الفضاء وراح يحوم فوق رأسه، فأحس وهو يحييه شاكراً بنوع من السلام الذي افتقده كثيراً. وحانت منه التفاتة نحو كبير السدنة فرآه هائماً في غيبوبته الملكوتية، وعيناه تحلقان في اللاشيء.... تخطته شابة صغيرة حسنة الهندام والمظهر، فيبحلق فيها بدون وعي.. إلتفتت اليه مبتسمة، وأسراب من الفرّاش بألوان زاهية تحجبها عن ناظريه.

حاول ان يقول شيئاً، فلم يستطع.. جرّب أن يتحرك فخانته قواه.. رمته بوردة قرنفل حمراء استقرت على صدره، لكنه ظل على وجومه.. أخذت تبتعد عنه وأسراب الفرّاش الملوّن تحجبها كلية عن ناظريه.. سمع قهقهة الطير الكبير مجلجلة.. عندها استرجع بصره والخليفة ينصرف وأعوانه يحملون رأس الذبيح على رأس رمح احدهم.. لم يعد يرى أي شيء، وهام من جديد مع نفسه، وصوت كبير السدنة يردد منشداً: «مبارك عليكم مولاكم القادم لا محالة»...

الكويت ١٩٨٩



السعر عشرة دنانير